



# العثمانيون بين أوروبا والعرب ومحمد علي

بحوث ودراسات في تاريخ الدولة العثمانية والعالم العربي

أستاذ  
د . عبد المنعم إبراهيم الدسوقي الجميعة  
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

القاهرة ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م

[illegible]
$$\frac{1}{\Gamma(\alpha)} \int_0^t (t-\tau)^{\alpha-1} f(\tau) d\tau = I_{0+}^{\alpha} f(t) \quad (1)$$

## تمهيد

تختلف الروايات حول أصل الأتراك العثمانيين ، وإن كان العديد من المؤرخين يرجع نسبهم إلى إحدى قبائل "غز الخزر" وهي قبيلة "قايى خان"<sup>(١)</sup> التى كان يتولى أمورها سليمان شاه وكان موطنها الأصلي أواسط آسيا ثم نزحت تحت الضغط المغولى صوب آسيا الصغرى والأناضول فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى . وخلال ذلك تولى "سليمان شاه" ، وتولى إدارة هذه القبيلة ابنه "أرطغرل" . وفى أثناء تنقل هذه القبيلة بحثا عن المأوى ومصادر العيش شاهدت جيشين يقتتلان ، وأدركت أن أحد هذين الجيشين ليس ندا للآخر فاندفعت القبيلة إلى جانب الجيش الضعيف الذى كان يلقى هزيمة مروعة - من جانب باب النجدة - وكان انضمامها إليه سببا فى انتصاره . وبعد المعركة تبين أن هذه القبيلة تدخلت لنصرة بنى جلدتها وهم الأتراك السلاجقة الذين كانوا يحاربون تحت قيادة سلطانهم علاء الدين ، وأنهم كانوا يحاربون إحدى الفِرَق المغولية التى أوكل إليها استكمال فتح آسيا الصغرى<sup>(٢)</sup> . ونتيجة لذلك استجاب السلطان علاء الدين لطلب "أرطغرل" بأن يمنح قبيلته مكانا تستطيع العيش والاستقرار فيه<sup>(٣)</sup> ، فأمر باقطاعه عدة أقاليم ومدن ، وصار يعتمد عليه فى حروبه . وكان يقطع أراضى جديدة عقب كل انتصار يتمكن من تحقيقه ويمنحه أموالا جزيلة . يضاف إلى ذلك أنه لقب قبيلته بمقدمة السلطان لوجودها دائما فى مقدمة جيوشه . وظل "أرطغرل" فى خدمة السلطان علاء الدين إلى أن توفى فى عام ٦٨٧هـ الموافق ١٢٨٨م فعين علاء الدين أكبر أولاد أرطغرل مكانه وهو عثمان مؤسس الدولة العثمانية<sup>(٤)</sup> .

١ - عبد السلام فهمى : السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم ، دمشق ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨١ ص ١١ .

٢ - عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٠ ص ٣٣-٣٤ .

٣ - Edward , S. Creasy : History of the ottoman Turks , Beirut , 1968 , P. 2-4 .

٤ - محمد فريد : تاريخ الدولة للعلية العثمانية - تحقيق إحسان حقى ، بيروت ، دار الفاسان ، الطبعة الأولى ١٩٨١م ص ١١٥-١١٦ .

وقد نهج عثمان نهج والده في الجهاد حيث استولى على قلعة "قوجه حصار" التي كانت تابعة للروم وذلك في عام ١٢٨٩م ، وقد كافأه السلطان علاء الدين على ذلك بأن سمح له بضرب "السكة" باسمه ، وأمر بأن يذكر اسم عثمان بجانب اسمه في خطبة الجمعة ، ومنحه كل الأراضي التي تم له فتحها ، وكذلك الأراضي التي سيتمكن من فتحها بعد ذلك مما تسبب في ذبوع صبي عثمان . ولعل السبب الذي دفع السلطان علاء الدين إلى ذلك هو أنه أراد أن يجعل من عثمان وقيادته قوة للدولة السلجوقية التي بدأ الضعف يتسرب إليها .

وبعد سقوط دولة سلاجقة الروم على يد المغول في عام ٦٩٩هـ ، و وفاة السلطان علاء الدين انفتح المجال أمام "عثمان بن أرطغرل" الذي استقل بما تحت يده من بلاد ، واتخذ من مدينة "إني شهر" عاصمة له ودعا نفسه "بإد شاه عثمان (١)" أي سلطان العثمانيين .

وهكذا بدأت الدولة العثمانية على يديه ، واعتنق العثمانيون في عهده الإسلام ، وأصبح عقيدتهم الدينية الرسمية ، وبعد وفاة عثمان في عام ١٣٢٦م وأصل ابنه أررخان ، ومن جاء بعده السير على سياسته ، واستطاع العثمانيون أن يملأوا التاريخ أحداثا ، ومرت عليهم مظاهر عديدة من الحضارات ، وأصبحت إمبراطوريتهم مترامية الأطراف حيث امتدت أقاليمها وولاياتها فسي آسيا ، وأوروبا وإفريقية ، وأصبحت أكبر دولة إسلامية يشهدها التاريخ فكانت حدودها تمتد شمالا إلى بلاد المجر في أوروبا وتشمل أراضيها كلا من بلاد اليونان والبوسنة والهرسك والجبل الأسود وألبانيا وبلغاريا والمجر والبيدغان ، وتمتد شرقا من حدود ولاية جورجيا إلى حدود داغستان وما يلي ذلك من الشرق والجنوب والغرب أرمينيا والأناضول وما بين النهرين وبلاد العرب وسورية ومصر والسودان وقرقة وطرليس وتونس .

وفي تاريخ الدولة العثمانية الكثير من الدروس سواء أكان ذلك في مجال الحرب أو في مجال السلم . لقد توالى على عرش الدولة العثمانية ستة وثلاثون سلطانا كان منهم

١ - ساد المرشدي : محمد الفتح ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩ م من ٢١ - ٢٢ .

من لا يأتي الأدهر يمثلهم إلا على فترات من الزمن ، وكان منهم بين بين ، كما كان منهم من لا يصلح مطلقا لتولي هذا المنصب الخطير الذي وصل إليه عن طريق الوراثة مما ساعد على هدم هذه الدولة ودك أركانها .

وسيلاحظ القارئ لهذا الكتاب أنه يحوى العديد من البحوث والدراسات العلمية لبعض القضايا والمشكلات التي لازمت تاريخ الدولة العثمانية ليس خلال فترة قوتها فحسب بل وخلال فترات ضعفها أيضا .

فقد شملت هذه الدراسة موضوعات متعددة بدأت بفتح القسطنطينية على يد محمد الثاني في عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م وتطرقنا إلى موقف الدولة العثمانية من سقوط الأندلس ، وإلى الانكشارية ودورهم في الفتوحات التي قامت بها الدولة حتى تم القضاء عليهم كما تطرقنا إلى معركة ديوالبحرية وأثرها على حركة التجارة العربية وإلى الفتح العثماني للعالم العربي والحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية ، وتناولنا معركة نفارين البحرية ، ومحمد علي والخليج العربي كما تناولنا موقف القوى الأوروبية من حكم محمد علي لبلاد الشام ، وموقف الدولة العثمانية من توسعات محمد علي في بلاد الشام ، والسلطان عبد الحميد ودعوته لفكرة الجامعة الإسلامية حتى إسقاطه ذا الحركات السياسية والفكرية في العالم العربي والدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى وظهور أتاتورك .

وتأتي البحوث إلى نهايتها مع دراسة نقدية بعنوان "الدولة العثمانية ما نها وما عليها" أوضحنا فيها المناقب والمآخذ التي أخذت على العثمانيين بشكل يتمشى مع منهج البحث التاريخي .

والله ولي التوفيق ..

أ.د. عبد المنعم الجميعي

القاهرة - مدينة المهندسين

١٨ / ١٢ / ٢٠٠٠



## الموضوع الأول السلطان ملامح الثانية وفتح القسطنطينية

تسابق المسلمون إلى فتح القسطنطينية منذ أن فتح العرب بلاد الشام<sup>(١)</sup>، وذلك مصداقا للحديث الشريف "تفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش"<sup>(٢)</sup>، ولكن كل محاولاتهم لم يتحقق لها النجاح حتى قبض الله الأمر للسلطان العثماني محمد الثاني فتمكن من فتحها، وفيما يلي نعرض لهذا السلطان، ولذلك الفتح.

أولا : السلطان محمد الثاني :-

ولد السلطان محمد الثاني في السادس والعشرين من شهر رجب ٨٣٣هـ الموافق للعشرين من أبريل ١٤٢٩م، وقضى أيام طفولته الأولى في "أدرنة" تحت رعاية والده السلطان مراد الثاني الذي اهتم بتكوينه عسكريا فعلمه فنون الفروسية والحرب، كما اهتم بتقنيته مبادئ الدين الإسلامي حتى يزيل تأثير أمه النصرانية عليه<sup>(٣)</sup>.

وقد تولى محمد الثاني السلطة في عام ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م بعد تنازل والده عنها، ومبايعة أهل الحل والعقد له فأصبح بذلك السلطان السابع الذي يعتلى عرش السلطنة العثمانية<sup>(٤)</sup>، وكان عمره وقتئذ لا يزيد عن الثانية والعشرين<sup>(٥)</sup>.

وقد تميز محمد الثاني بكفائته، وشجاعته، وذكائه، وشدة حرصه على الثقافة، وحبه للعلوم والفنون، ومما يذكر عنه أنه كان يجيد عددا من اللغات منها التركية لغته،

١ - تفاصيل ذلك انظر: محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت، دار الجبل، ١٣٩٧هـ/١٩٩٧م ص ٦١

٢ - ورد في مسند أحمد، وفي مستدرک الحاكم (حديث صحيح)

٣ - د. عبد السلام فهمي: السلطان محمد الفاتح القسطنطينية وقاهر الروم، دمشق، دار القلم، ١٩٧٥م ص ٣١

٤ - محمد فريد: المرجع السابق ص ٥٨.

٥ - إبراهيم حليم: التحفة الخفية في تاريخ الدولة العلية، القاهرة، ١٩٠٥م ص ٦٣.



الأصلية والعربية والفارسية والعبرانية ، واليونانية ، ولاتينية ، واتصف أيضا بالموهبة الشعرية وبأنه كان نصيرا للعلوم ، هذا إلى جانب قدرته العسكرية والميدانية<sup>(١)</sup> فقد خاض محمد الثاني العديد من المعارك والحروب ضد أعداء الدولة ، واستولى على الكثير من البلدان ، وحاصر العديد من المدن ، وكان حلمه الذي يروده دائما هو فتح القسطنطينية<sup>(٢)</sup> ، ولعل السبب المباشر والرئيسي الذي دفعه إلى الإسراع في ذلك هو أن الإمبراطور البيزنطي "قسطنطين باليولوس" كان قد انتهز فرصة وفاة والد محمد الثاني وقام بأعمال استفزازية رشح من خلالها أحد أمراء آل عثمان لكسي يتولى عرش أدرنة . ونتيجة لذلك شيد محمد الثاني قلعة كبيرة سميت "روميلي حصار" لمحاصرة القسطنطينية، كما أخذ في فتح العديد من البلدان المجاورة للقسطنطينية لجعل جميع أراضي سلطنته متصلة ببعضها ، لا يتخللها أي حاجز ، هذا إلى جانب قيامه بتحصين مضيق البسفور لمنع أي إمدادات تأتي من مملكة طرايزون لمساعدة البيزنطيين على فك الحصار<sup>(٣)</sup> .

#### ثانيا : فتح القسطنطينية ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م :

جذبت القسطنطينية أنظار العالم من كل حذب وصوب نظرا لموقعها الجغرافي الهام الذي كانت تشغله والذي يربط آسيا بأوروبا عن طريق مضيق البسفور الذي يصل البحر المتوسط بالبحر الأسود عن طريق بحر مرمرة ، ويشكل مضيق البسفور أهمية كبيرة حيث إن أقرب مسافة فيه بين الشاطئين ألف متر فقط . قال نابليون بوناپرت عن مدينة القسطنطينية : لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها<sup>(٤)</sup> .

وقال عنها مؤلف كتاب دليل الأستانة "المسافر إلى تلك العاصمة بحرا لابد له من المرور في أحد البوغازين : بوغاز القلعة السلطانية الذي يقال له الدردنيل ، وبوغاز الأستانة الذي يقال له البسفور ، والأستانة قائمة على مفرق البرين أوروبا وآسيا ، ويفصل بينهما من الجنوب بوغاز الدردنيل ومن الشمال البسفور الجميل .. وبين البوغازين بحر صغير هو بحر مرمرة ، وهذا البحر يتصل شمالا بالبحر الأسود ... وجنوبا بالبحر الأرخبيل - وهو جزء من البحر الأبيض المتوسط<sup>(٥)</sup> .

١ - أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول لتاريخ العثماني ، بيروت ، دار الشروق ، ص ٦٥ .

٢ - عبد العزيز توفيق : الشعوب الإسلامية ، بيروت ، ١٩٧٣م ص ٤٨ .

٣ - محمد فريد : المرجع السابق ص ٥٩ .

٤ - علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، دمشق ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠١هـ / ١٩٨٢م .

٥ - م . شكوى : دليل الأستانة ، الانكليزية ، ١٩٠٩م ص ٤-٣ .

وتميزت القسطنطينية أيضا بحصانة أسوارها العديدة إذ إن هناك سورين من أسوارها طولهما أربعة أميال بين شواطئ بحر مرمرة والقرن الذهبي ، أما السور الداخلي فارتفاعه يبلغ خمسة وعشرين قدما ، ويوجد بين السورين الداخلي والخارجي فضاء ترابي يصل عرضه إلى ستين قدما ويوجد بالسور الخارجي عدة أبواب منها باب أدنة وباب المنفع (طوب قيو) والباب العسكري<sup>(١)</sup> .  
ولقد مر فتح القسطنطينية بعدة مراحل هي : -

#### أ - مرحلة الحصار :

وقد بدأ السلطان محمد الفاتح التأهب والاستعداد التام لفتح القسطنطينية قبل عام كامل من بداية حصاره لها حيث قام بمحاصرة أبواب المدينة الثلاثة الكبرى<sup>(٢)</sup> . وعقد محمد الفاتح عدة اتفاقيات مع حكام الدول المجاورة له ، ثم قام ببناء قلعة هامة على شواطئ البسفور في يابس أوربا وأطلق على هذه القلعة اسم "روم إيلي حصار" وكان موقعها على مسافة تقدر بسبعة كيلو مترات قرب القسطنطينية . وقصد الفاتح من بناء هذه القلعة رد أي محاولة لوصول الامدادات للبيزنطيين ، وقد شارك الفاتح عمال البناء في تشييد تلك القلعة التي انتهى العمل بها في شهر شعبان من عام ٨٥٦ هـ الموافق ١٤٥٢ م ، وكانت هذه القلعة -ثلثة الشكل ، وفي كل زاوية منها برج كبير للمراقبة ، كما نصبت عليها المجانيق ، والمدافع الضخمة لمنع السفن المعادية من المرور إلا بعد تفقش دقيق ودفع الضريبة المقررة<sup>(٣)</sup> . ونتيجة لذلك بدأ الامبراطور قسطنطين الحادي عشر يشعر بالخطر المحدق ، وأن زوال عاصمته في طريقه إلى التحقيق ، فحاول تدارك الأمر بأن أرسل إلى محمد الفاتح بموافقة على دفع الجزية ، وبأن يتزوج من والدته<sup>(٤)</sup> ، ولكن السلطان العثماني رفض كل هذه المساومات وأثر عليها فتح المدينة ، مما اضطر قسطنطين إلى طلب المعاونة من ملوك وأرباب أوروبا لردء الخطر المحدق على بلاده<sup>(٥)</sup> .

١- عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٨٦-٨٨ .

٢- سيد رضوان علي : السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية ، جدة ، الدار السعودية للنشر .

٣- ١٤٥٢ هـ / ١٩٨٣ م ص ٢٤ .

٤- عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٧٣-٧٧ .

٥- ترجمة مراد التائي التي طلت على نصرايتها ، وكانت آنذاك تناهز الخمسين من عمرها .

٥- علي حسون : المرجع السابق ص ٣٣-٣٤ .

#### ب - مرحلة الاستعدادات :

طاف المخترع المجري المدعو "أوربان" أشهر صانع للمدافع في زمانه ببعض بلدان أوروبا يعرض على حكامها وملوكها اختراعاته<sup>(١)</sup> فلم يلتفت إليه أحد بما في ذلك الامبراطور البيزنطي قسطنطين المحاط بالخطر الإسلامي . ولما عرض أوربان اختراعاته على السلطان محمد الفاتح مده بالمال ، وقيل تنفيذ اختراعه ، ووفر له كل متطلباته فقام أوربان بتصميم مدافع ضخمة كان من أبرزها مدفع كبير يزن ٧٠٠ طن ، وتزن قذيفته ١٢ ألف رطل ، ويجره ١٠٠ ثور ، و ١٠٠ رجل من الأقوياء<sup>(٢)</sup> ليتمكنوا من سحبه ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل<sup>(٣)</sup> ، وكان يلزم له نحو ساعتين لسحبه<sup>(٤)</sup> . وقد قطع هذا المدفع المسافة بين أدرنة والقسطنطينية في شهرين . وقد أسمت المصادر الاقترجية هذا المدفع باسم المدفع السلطاني أو "المحمدية" "Mohametta"<sup>(٥)</sup> . يضاف إلى ذلك أن محمد الفاتح تمكن من بناء مجموعة من السفن ، ووضعها في بحر مرمرية لتكون حاجزا لسد مضيق الدردنيل ، ووصل عددها ما بين ٢٥٠ - ٤٠٠ سفينة . وأمام هذه الاستعدادات الواضحة من قبل العثمانيين اضطر قسطنطين إلى الاستئجار بملوك أوروبا وحكامها وكان من بين الذين لبوا طلبه أهالي جنوة ، فأرسلوا إليه أسطولاً بحرياً بقيادة جستينيانى<sup>(٦)</sup> ، وقد كلفه الامبراطور قسطنطين بمهمة الدفاع عن الأبواب الهامة والنقاط الخطرة . وخلال ذلك الوقت تمكن محمد الفاتح من عقد الصلح مع أمراء المناطق المجاورة له ، وظل حوالى ثمانية أشهر كاملة يجمع المواد والمؤن والرجال ويديرهم ، واستعان بمجموعة من الصناع ليصنعوا له الأسلحة والمدافع ثم بدأ بعد ذلك قس محاصرتهم للقسطنطينية بواسطة مائة وأربعين ألف مقاتل<sup>(٧)</sup> .

١- سالم الرشيدى : محمد الفاتح ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٩م ، ص ٩٠ .

٢- على حسون : المرجع السابق ص ٣٤ ، وذكر لوثرروب ستودارد أن العدد كان ٧٠٠ رجلاً . انظر حاضن العالم الإسلامى - ترجمة عجاج نوبهض - المجلد الأول ج٢ ، الباب الخامس ١٣٥٢هـ ، ص ٢٢٠ .

٣- محمد فريد : المرجع السابق ص ٥٩ .

٤- لوثرروب : المرجع السابق ج٢ ص ٢٢٠ .

٥- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٢٤ .

٦- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

٧- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ج٢٣ - ترجمة عبد الحميد بوش ، القاهرة ، الإدارة الثقافية للجامعة العربية ص ٣٦ . وقيل إن عدد المحاصرين بلغ ثلاثمائة ألف مقاتل .

انظر لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ج٢ ص ٢٢٠ .

#### ج - مرحلة بدء القتال :

بدأ زحف الجيش الإسلامي صوب أسوار القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح الذي كان في طليعة جنوده ، وقد قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام :

١ - الميمنة : وكانت مؤلفة من جنود الأناضول بقيادة إسحاق باشا ومحمود بك ، وكان مركز عملياتها يمتد من الساحل الجنوبي عند بحيرة مرمرية حتى باب طوب قبو .

٢ - الميسرة : يتألف مجموع جنودها من جنود أوروبا والمتطوعين وغير النظاميين ويقوده "قره جه باشا" ويكون امتداد هؤلاء الجنود عند سور القسطنطينية الشمالي قس ميضاء القرن الذهبي حتى باب أدرنة .

٣ - القلب : وهو مؤلف من جنود الإكشارية إضافة إلى الفرق الخاصة التي اختارها محمد الفاتح وهي فرق انتحارية ، وكان يقود هذا الجزء من الجيش محمد الفاتح بنفسه ، وكان هؤلاء الجنود أمام الجزء الأوسط من السور ، ويمتد من باب طوب قبو حتى يصل "باب أدرنة"<sup>(١)</sup> . وتركز أفراد هذا الجيش أمام بوابات القسطنطينية . هذا إلى جانب قيام الأسطول العثماني بتطهير بحر مرمرية من السفن البيزنطية ، واحتلاله لبعض الجزر .

وبعد كل ذلك بدأت المدافع العثمانية تدك بقذائفها أسوار القسطنطينية حتى أحدثت فيها ثغرة تمكن البيزنطيون من سدها . وقد حاول الأسطول العثماني محاولات جادة لتحطيم السلسلة الحديدية التي تقع في مدخل القرن الذهبي ولكن تلك المحاولات بساعت بالفشل ، إضافة إلى فشله في التصدي لعدد من السفن التي أرسلها بابا روما محملة بالعتاد الحربي والمؤن حيث نشبت معركة بحرية بين الطرفين كانت الهزيمة فيها في جانب العثمانيين<sup>(٢)</sup> . وأمام هذا الفشل لم تثن عزيمة المسلمين عن السعي إلى تحقيق النصر ، وكان ذلك الفشل دافعا قويا لهم للتمسك بالعزيمة ، ومواصلة العمل ، وهذا كان من أبرز الصفات التي اتصف بها العثمانيون<sup>(٣)</sup> ونتيجة لذلك فكر السلطان محمد الفاتح في طريقة أخرى يدخل بها سفينته إلى داخل القرن الذهبي دون أن تعوقها السلسلة الضخمة الموجودة هناك وذلك عن طريق نقل سفينته برا بمقدار ثلاثة أميال من بحر مرمرية حتى تصل مياه القرن الذهبي<sup>(٤)</sup> عبر برزخ ترابي خلف مستعمرة "غلطة" فأمر جنوده بتركيب بعض العجلات الصغيرة في سبعين من سفينته ، كما أمرهم بتعبيد الأرض وفرشها بألواح خشبية

١- عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٨٨ .

٢- سيد رضوان علي : المرجع السابق ص ٢٩ ، ومحمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

٣- علي حسون : المرجع السابق ص ٣٦ .

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .

مدهونة بالزيت والشحم<sup>(١)</sup>، ثم زلّجت السفن على طول هذا الطريق وفوق تلك الأكوام، واستطاع خلال ليلة واحدة أن يدخل سبعين سفينة إلى تلك المياه، وخلال ذلك كانت المدفعية العثمانية تطلق نيرانها على مدينة القسطنطينية لحماية تنفيذ تلك الفكرة<sup>(٢)</sup>. وخلال الصباح فوجيء البيزنطيون بالأمر، وتأكدوا من نجاح العثمانيين في محاصرتهم من كل جانب، ومع ذلك فقد ظلوا في دفاعهم المتواصل عن مدينتهم، فقاد الإمبراطور قسطنطين مجموعة من المقاتلين، وأخذوا في ترميم تحصينات مدينتهم المتهدمة، وإعداد كافة وسائل الدفاع الممكنة عنها. وخلال ذلك أرسل السلطان محمد الفاتح إلى الإمبراطور قسطنطين يدعو إلى التسليم حقنا للدماء على أن يتعهد بإعطاء الحرية الدينية للأهالي، ولكن الإمبراطور رفض ذلك وأصر على الدفاع عن مدينته حتى الموت<sup>(٣)</sup> مما جعل محمد الفاتح يضاعف من نيران مدافعه، ويأمر باستمرار الهجوم البحري والبري على المدينة المحصنة، وحفر الأنفاق من تحت الأسوار، كما أمر محمد الفاتح ببناء قلعة خشبية كبيرة جاوزت في ارتفاعها ارتفاع أسوار مدينة القسطنطينية، وكانت من ثلاث طبقات كسيت بالجلود المثينة المبللة حتى لا تحرقها النار. واستمرت مدافع العثمانيين في إطلاق قذائفها لمدة خمسين يوما في حين كان البيزنطيون وعلى رأسهم الإمبراطور قسطنطين، وقائد القوات جستنياني لا ينامون الليل وبواصلون العمل من أجل إصلاح كل ما يتهدم من الأموار، وإعادة بنائه.

#### د - مرحلة الهجوم :

قبل بدء الهجوم عقد محمد الفاتح مجلسا حربيًا في خيد<sup>٤</sup> حضره وزراءه، وكبار رجال جيشه، والعلماء والمشايخ وطلب منهم الرأي في استمرار الحصار من عدمه، فما كان منهم إلا أن قالوا "ما أتينا هنا إلا لنموت ولا نرجع"<sup>(٥)</sup>. وعندئذ أصدر الفاتح أوامره إلى جنوده بالصيام لتطهير نفوسهم وتركيتها، وأن يطلبوا من الله العون، وتحقيق النصر وفي تلك الليلة علت صيحات التكبير والتهليل، وقرعت الطبول<sup>(٦)</sup> وأشدت الأناشيد الحماسية، ثم تلا الشيوخ الآيات والأحاديث التي تحض على الجهاد وترغب فيه، وتفقد الفاتح قواته، كما تفقد أسوار المدينة من الخارج، وبدأ يعد لكل شيء عدته،

١- سيد رضوان علي : المرجع السابق ص ٢٩-٣٠.

٢- علي حسون : المرجع السابق ص ٣٤.

٣- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠.

٤- سالم الرشدي : المرجع السابق ص ١٢٠-١٢١.

٥- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠.

ثم عاد إلى خيمته ، ودعا كبار رجال جيشه وخاطبهم قائلا "إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزته ، وسيكون من حفلنا ما أشاد به هذا الحديث ، فابلقوا أبناعنا الصاكر فردا فردا أن الظفر العظيم الذي سوف نحرزه سيؤيد الإسلام قدرا وشرفا" ثم أمرهم أخيرا أن يتمسكوا بتعاليم الشريعة الإسلامية وألا يخرجوا عليها<sup>(١)</sup> فلا يمسوا الضعفاء بأذى ويتقوا الله في أعمالهم .

وفي صبيحة الثلاثاء ٢٩ من مايو ١٤٥٣م<sup>(٢)</sup> (٨٥٧ هـ) بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية<sup>(٣)</sup> ، ودوت الهتافات العالية تردد التهليل والتكبير . ثم بدأ الجنود يتقدمون بسرعة نحو الأسوار ، ولكنهم ردوا على أعقابهم وأُزيل فيهم المدافعون عن المدينة خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد ، ومع ذلك فقد حققوا شيئا هاما كان يهدف إليه السلطان محمد .<sup>(٤)</sup> وهو إنهالك المدافعين واستنفاد ذخيرتهم .

ثم تبع ذلك الهجوم هجوم آخر قامت به مجموعة من قوات "العاصفة" ولكنهم أخفقوا في مهمتهم واضطروا إلى الانسحاب ، ثم جاء الهجوم الثالث وقد قام به مجموعة كبيرة من حرس السلطان ورماته إضافة إلى ١٢ ألف جندي من الإنكشارية<sup>(٥)</sup> ، وفي أثناء هذه الهجمات الثلاثة كانت المدفعية العثمانية تطلق قذائفها باستمرار ، ودون توقف من البحر والبحر . وخلال ذلك استطاع أول رجل من جنود الفاتح اعتلاء السور ، وهو الجندي الإنكشاري "حسن طولو" ومع أنه سقط من على السور إثر ضربة بحجر كبير ، فإنه مسهد لرفقائه الآخرين الطريق حيث استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى الأطراف الداخلية من السور في الوقت الذي كانت فيه مجموعة كبيرة من الجند العثماني بقيادة محمد الفاتح تتقدم لدخول المدينة من جهة باب السيرك الذي أهمله البيزنطيون ، وقد فوجئ بهم البيزنطيون وعلت صيحاتهم تردد كلمة "Polis Healo He" ومعناها احتلت المدينة<sup>(٦)</sup> . وبدأت أعلام العثمانيين ترتفع فوق الأبراج من جهة "باب أدرنة" ومن جهة السور الذي يطل على ميناء القرن الذهبي ، وامتد القتال العنيف داخل شوارع المدينة ، وسقط فسطاطين آخر الأباطرة البيزنطيين متخبطا في جراحه ، وقبيله أصيب جستناني

١- حيون : المرجع السابق ص ٣٩ .

٢- سيد رضوان علي : المرجع السابق ص ٣٢ .

٣- Edward Creasy : History of the Ottoman , P. 83 .

٤- برنارد لويس : استنول وحضارة الخلافة الإسلامية - ترجمة سيد رضوان علي - جدة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢م/١٤٠٤ هـ ص ٢١ .

٥- برنارد لويس : المرجع السابق ص ٢٢ .

قائد القوات ، وهرب إلى إحدى الجزر البعيدة عن المدينة<sup>(١)</sup> .  
وبعد ساعات من إحكام سيطرة العثمانيين على الموقف دخل السلطان محمد الفاتح إلى المدينة ، وهو راكب جواده وحوله حرس الاتكشارية ، وكبار رجال دولته ، وتوجه قاصدا كنيسة أيا صوفيا ، ثم نزل من على جواده ، وسجد لله شكرا على هذا النصر الكبير ، ودعا بالرحمة للشهداء من جنوده ، وبعد ذلك دخل الكنيسة وأمر بتحويلها لتكون الجامع الرئيسي بالمدينة<sup>(٢)</sup> ، ودعا أحد الأئمة ليصعد المنبر ويجهز بالعقيدة الإسلامية ، فصعد الامام معلنا "أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله"<sup>(٣)</sup> . وبعد ذلك صليت أول جمعة فيه .

كما أمر محمد الفاتح بإقامة العديد من المنشآت الإسلامية في المدينة فتأسس الجامع المعروف باسم جامع محمد الفاتح ، وأيضا الجامع المشيد قرب ضريح أبي أيوب الأنصاري وإلى جانب ذلك أعلن محمد الفاتح عدم معارضته في إقامة الشعائر المسيحية ، وضمن حرية النصراني الدينية ، والمحافظة على أديانهم<sup>(٤)</sup> .  
وهكذا ارتفعت رايات الإسلام خفاقة على القسطنطينية وتحققت معجزة نبي الإسلام ، وسطر التاريخ لمحمد الفاتح صفحات المجد والبطولة ، فأصبح أول سلطان عثماني يطلق عليه أهل أوروبا لقب السيد العظيم ، كما أصبح مجرد سماع اسمه يثير الرعب والسهل في نفوس أعدائه .

وبعد أن وطد محمد الفاتح مركزه بفتحته للقسطنطينية أنشأ يهتم بالتعمير والبناء ، ثم عاد إلى "أدرنة" فاستقبله الناس استقبالا حافلا ، وبعدها ذهب إلى "بروسه" للاستجمام والراحة استعدادا لمواصلة فتوحاته في أوروبا .  
وقد استطاع محمد الفاتح أن يضم إليه بلاد الصرب واليونان والافلاق والجزر الرئيسية في الأرخبيل وبهذا وطد سيادته في أوروبا حتى أن خلفاء لم يفتحوا بعده بلادا مثلما تحقق على يديه<sup>(٥)</sup> .

١- سيد رضوان علي : المرجع السابق ص ٣٤ .

٢- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٣- برنارد لويس : المرجع السابق ص ٢٣ .

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٥- سالم الرشيد : المرجع السابق ص ١٨٥-١٨٦ .

ونتيجة لذلك لم يكن أمام بعض المؤرخين إلا أن يتخذوا من فتح القسطنطينية في ٢٩ مايو ١٤٥٣م بداية للتاريخ الحديث ، ونقله واضحه للعالم من العصور وأنظمتها الإقطاعية إلى العصور الحديثة .

وقد جعل الفاتح من القسطنطينية عاصمة لدولته بعد أن غير اسمها إلى اسلامبول أي تخت الإسلام أو مدينة الإسلام<sup>(١)</sup> . واستمر الفاتح يحقق الانتصارات للإسلام والمسلمين حتى توفي في ٣ مايو ١٤٨١م<sup>(٢)</sup> ، فابتهجت أوروبا بوفاته وأقامت الاحتفالات ونصبت الزينات بهذه المناسبة<sup>(٣)</sup> ، فلقد استطاع أن يهز عروش أوروبا ، ونجح في تحويل الكثير من سكان جنوب شرق أوروبا إلى الإسلام ، وجعل معظم الطرق التجارية البحرية الهامة خاضعة لسيطرة العثمانيين<sup>(٤)</sup> .

١- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٢- Edward Creasy : OP. Cit , P. 92 .

٣- عبد السلام فهمي : المرجع السابق ص ٣١ .

٤- ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٨ .



\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

## الموضوع الثانى

### موقف الدولة العثمانية والقوى الإسلامية الأخرى من سقوط الأندلس

فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى استمرت قواعد المسلمين فى الأندلس تتساقط تباعا فى يد أسبانيا النصرانية ، ولم يبق منها سوى مملكة غرناطة الصغيرة بمدنها وثغورها القائل .

وبعد أن اتحدت قشتالة وأرجوان على يدى فرديناند وإيزابيلا اعتزمت أسبانيا النصرانية توجيه ضربتها الحاسمة لما تبقى للإسلام فى الأندلس فتدفقت جيوشها على مملكة غرناطة التى كانت رغم صغرها وضعفها تمثل صولة الإسلام فى أسبانيا ونواة التحرك الإسلامى تجاه أوروبا والذى بدأت طلائعه فى الشرق على يد الأتراك العثمانيين بعد فتحهم للقسطنطينية . وقد استغلت أسبانيا النصرانية فى ذلك الخلاف الداخلى الذى دب بين الأسر الحاكمة فى غرناطة واضطرام المنافسة على السلطة ، وغلبة نفوذ النساء على الحكام ، وانتشار الخطوب والفتن والحروب الأهلية داخلها<sup>(١)</sup> .

وفى تلك الأونة العصيبة اتجهت أبصار أمراء وأهل الأندلس إلى القوى الإسلامية المعاصرة لهم فى المشرق والمغرب معا يناشدونها التجدة والغوث إزاء الخطر المحدق بهم وكانت رسالتهم ووقودهم تصل تباعا إلى الآستانة والقاهرة ومراكش خاصة وأن هذه القوى الإسلامية كان لها مكانتها وإسهاماتها فى خدمة الإسلام والمسلمين فالدولة العثمانية حقق الله على يديها فتح القسطنطينية ، وراحت قواتها تتابع فتوحاتها فى أوروبا وآسيا وتنفذ بلواء الإسلام إلى أمم النصرانية فأخضعت ممالك الأفلاق والصرب والبوسنة والهرسك وألبانيا وغيرها ، وكانت بمثابة القوى القادرة القاهرة التى تفتح الممالك المسيحية باسم الإسلام ، وبوسعها أن تدفع الغائلة عن المسلمين فى أى مكان مما جعل أعناق أهل الأندلس تشرب إليها لانتقاذهم من محنتهم وليحتفظوا بسال الأندلس للمسلمين .

١- للتفاصيل انظر محمد عبد الله عثمان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتعمرين ج١ : القاهرة - مطبعة مصر - ص ١٦٢ وما بعدها .

- وكانت هناك دولة المماليك الشراكسة في مصر والشام والجزيرة العربية الذين تحقق على أيديهم هزيمة المغول واجلاء الصليبيين من آخر معاقلهم بالشام ، وكانت أوروبا تخشاهم ، وتعمل لسلطنتهم ألف حساب خاصة وأنهم كانوا يتحكمون في البقاع النصرانية المقدسة وبين رعاياهم العديد من النصارى . وكان هناك حكام المغرب الأقصى الذين كانوا يتمسكون بفكرة الجهاد ، وبأهمية المحافظة على ما تبقى للمسلمين من ممتلكات في الأندلس ، ويرغبون في وقف أطماع الممالك المسيحية النامية في شبه جزيرة إيبيريا ، وقد تمثل ذلك في الحملات المتتالية للمرابطين والموحدين ثم المرينيين والتي كان من أهمها قيام المرابطين بمساندة ملوك الطوائف ضد جيوش أسبانيا النصرانية في موقعة الزلاقة ١٠٨٦م وقيام السلطان المغربي يعقوب بن عبد الحق المريني بإرسال جيش جرار في عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م لمساندة أهل الأندلس في الانتصار على نصارى أسبانيا .
- ونظرا لأن أهل غرناطة وحكامها شعروا بعدم قدرتهم وحدهم على الثبات أمام أعدائهم فقد استغاثوا بهذه القوى ، وطلبوا منها العمل على إغاثهم من الخطر المحدق بهم والاحتفاظ بغرناطة للمسلمين ولكن ذلك لم يتحقق مما يدفعنا إلى البحث عن الأسباب التي أدت إلى تقاعس هذه القوى عن نصرة أخواتهم في الدين والملة على الرغم من أن صدى الأحداث المؤسفة التي وقعت للمسلمين في الأندلس كانت تملأ بلاط حكام القاهرة والآنسة وغيرها ، وتثير فيهم الاهتمام والعطف<sup>(١)</sup>.
- وحتى نتضح لنا الأمور سنعرض لأحوال كل دولة من هذه القوى على حدة ، والأسباب التي باعدت بينها وبين مساندة أهل الأندلس .
- أولا : الدولة العثمانية :

كان من الطبيعي أن يتجه أهل الأندلس إلى الدولة العثمانية بصفتها أكبر دولة إسلامية ينشدون مساعدتها عسكريا خلال صراعهم من أجل البقاء والمحافظة على الدين والملة فأرسل أهل غرناطة في منتصف عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م سفارة إلى استانبول ملغتين نظر السلطان محمد الفاتح إلى حالة المسلمين بالأندلس طالبين تدخله لإنقاذهم<sup>(٢)</sup> ولكنه كان مشغولا عنهم ولم يقدم لهم النجدة . وتكررت مناشداتهم بعد وفاة هذا السلطان لابنه

١- عثمان بن عمر الإسلامية وتاريخ الخطوط المصرية ، القاهرة - مطبعة دار الكتب - ١٣٥٠هـ/١٩٣١م ص ١٣٨ .  
٢- عبد الجليل الميمى : رسالة من مسلمى غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد الثالث يناير ١٩٧٥ ص ٣٨ .

بإيزيد فأرسل أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة رسولا إليه يلتمس منه النجدة لانقضاء بلاده ، ونصرته ضد ملوك النصارى<sup>(١)</sup> كما أرسل إليه أحد شعراء غرناطة بقصيدة يصور فيها مأساة المسلمين ويستجده لانقاذهم والدفاع عن حرمان المسلمين<sup>(٢)</sup> . وتختلف الآراء حول مدى استجابة السلطان بإيزيد لهذه الاستغاثة . فهناك من يقول إن الدولة العثمانية استجابت لنداء أهل الأندلس ، وأرسلت أسطولا إلى الميساء الأسبانية لمساعدة حاكم غرناطة المحتضر<sup>(٣)</sup> . وهناك من يقول إن مشاكل السلطان الداخلية قد حالت دون ذلك خاصة وأن نزاعه مع أخيه جم على العرش وما أثاره ذلك النزاع من مشكلات مع البابوية وبعض الدول الأوربية ثم التحالفات الصليبية ضد الدولة قد جعلته يصم أذنيه عن تقديم النجدة لأهل الأندلس . والواقع أن إرسال أسطول عثماني لمساعدة أهل الأندلس في محتهم لم يثبت تاريخيا وإن كان هناك بعض المصادر الثانوية التي أشارت إلى ذلك<sup>(٤)</sup> . حقيقة أن الدولة العثمانية كانت تمتلك جيشا يشار إليه بالبنان ، ولكن هذا الجيش كان قوامه القوات البرية وليس البحرية . يضاف إلى ذلك أن هزائم الدولة العثمانية البحرية كانت تجعلها تحجم عن المخاطرة<sup>(٥)</sup> وتساند أهل الأندلس المحاصرين بالشواطئ ، والذين كانوا في حاجة إلى قوة بحرية قوية وإلى جانب ذلك فإن السلطان بإيزيد كان ميالا للمسلم أكثر منه للحرب ، وفي عهده عموما لم تحدث فتوحات تذكر . ويميل بعض الباحثين إلى تهيئة ساحة الدولة العثمانية بالنسبة لسقوط الأندلس بحجة أنها لم تكن تستطيع أن ترسل جيوشها إلى هناك بسهولة بينما يرى البعض الآخر أن العثمانيين قصروا في نصره أخواتهم في الأندلس ، ولم يسارعوا إلى نجدتهم ودويلاتهم المتهرئة تتساقط الواحدة تلو الأخرى .

١- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ - القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ص ٩٠٣ .  
٢- شهاب الدين المقرئ للتمسني : أزهار الرياض في أخبار عياض - تحقيق مصطفى السقا وآخرين جـ١ - القاهرة ، ١٩٣٩ ص ١٠٩-١١٥ .  
٣- ستالي ابن بول : الدولة الإسلامية ، القسم الأول - ترجمة محمد صبحي قرزات ص ٦٥ .  
٤- ذكر ستالي ابن بول أن السلطان العثماني ساق أسطولا لنجدة أهل الأندلس بقيادة رجلا من حاشيته اسمه جمال ولكننا لم نجد في المصادر التاريخية ما يشير إلى هذا الأسطول أو إلى التتويه بنجدة قدمها السلطان للمسلمين الأندلس .  
٥- لتفاصيل ذلك انظر الشناوي : المرجع السابق جـ٢ ، ص ٨٩٦-٨٩٨ .

والواقع ان الدولة العثمانية عقب فتح القسطنطينية في عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م كانت منشغلة في حروب متعددة مع النمساويين والألمان والمجريين والألبان والصرب والجبل الأسود واليونان وإمارتى جنوة ونابلى وغيرها ، وكان على آل عثمان إذا أرادوا إنقاذ الأندلس القيام بمغامرة غير مأمونة العواقب حيث يتركون الجبهة الأوربية ، ومنطقة الأناضول مكشوفة ويذهبون للحرب على مسافة هائلة دون استعدادات بحرية مجددة لنقل الجنود من أقصى شرق أوروبا إلى أقصى جنوبها الغربى شبه جزيرة إيبيريا ليحاربوا حرباً وسط اقليمين كبيرين هما أسبانيا والبرتغال المدعومين من كل القوى الصليبية فى الشمال<sup>(١)</sup> .

وهكذا يتضح أن الدولة العثمانية لم تستطع لظروفها الداخلية والخارجية أن تمد يد المساعدة لمسلمى الأندلس لإنقاذهم من الوقوع فى براثن الصليبية ، وبقي مسلمو الأندلس يواجهون ضراوة الموقف وحدهم .

#### ثانيا : دولة المماليك :

اتجه سلاطين غرناطة وأهلها إلى مصر يلتمسون معونتها أمام الخطر الصليبي المحقق ببلادهم فأرسل السلطان محمد بن يوسف بن نصر رسالة<sup>(٢)</sup> إلى السلطان أحمد بن محمد بن قلاوون<sup>(٣)</sup> يوضح له فيها الأحوال التى ألت إليها الأندلس وما يضره النصرارى من شر ، ويناشده المساعدة لإنقاذ الإسلام بقوله "والدين غريب والغريب يحن إلى أهله والمرء كثير بأخيه على بعد محله"<sup>(٤)</sup> .

ويبدو أن المشاكل التى اقترن بها عصر السلطان أحمد قد حالت بينه وبين بسط يد المساعدة للأندلس ، خاصة وأن سلطنته لم تستمر سوى شهرين واثنتى عشر يوماً<sup>(٥)</sup> . ونتيجة لذلك تكرر طلب النجدة من مصر فأرسل السلطان عبد الله بن محمد بن

١- محمود الشاذلى : المسألة الشرقية - دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية ، القاهرة ، مكتبة ودية ، للطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ص ٥٠-٥١ .

٢- عن أقوى هذه الرسالة انظر : المقرئ : فتح الطيب من غصن الأندلس الزطوب ج١ - تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص ٣٢١-٣٢٦ .

٣- أكبر أبناء الناصر محمد بن قلاوون ، تولى الحكم أول مرة عام ٧٤٤هـ .

٤- فتح الطيب ص ٣٢٦ .

٥- انظر محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتائج العلم والأدب ج١ - القاهرة ، مكتبة الأدب ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ص ٤٣ .

نصر<sup>(١)</sup> حاكم غرناطة إلى الظاهر جقمق العلاني<sup>(٢)</sup> سلطان مصر برسالة عام ٨٤٤هـ يلتمس منه النجدة والعون ضد "الإفرنج المجاورين" والتي يمكن عن طريقها أن يتقوى بها المسلمون في الدفاع عن أنفسهم ضد الخطر المحيط بهم<sup>(٣)</sup> وكان رد السلطان المملوكي على هذه الرسالة أن مصر بعيدة عن بلاد الأندلس ، ومن الصعب تجهيز قوات عسكرية لمساندتها لحيلولة البحر والافتقار إلى المراكب الكثيرة ووعد بمخاطبة العثمانيين<sup>(٤)</sup> في مساعدة غرناطة ، وكان رد السفير على ذلك "يا مولانا السلطان ! نصركم الله أنت كبير الملوك والسلاطين ، وخديم الحرمين الشريفين ولم نجى إلا إلى حضرتكم وحاشا أن تردنا خائبين" . وأخيرا وافق جقمق على تقديم معونات مالية ومعدات عسكرية إلى غرناطة<sup>(٥)</sup> . ونتيجة لاشتداد ضغط النصارى على غرناطة وقيام إيزابيلا بطلب الجزية من أميرها في عام ١٤٧٦م واحتقار الأمير لهذا الطلب بقوله "إن دار الضرب عندي لم تعد تضرب عملة ذهبية وإنما تضرب الفولان" واستئناف الحرب بين الطرفين وتقدم جيوش فرديناند وإيزابيلا اضطر أمير غرناطة إلى إرسال بعض مبعوثيه برئاسة الفقيه الأندلسي أبي علي بن علي بن محمد الأزرق إلى السلطان الأشرف أبي النصر قايتباي<sup>(٦)</sup> قس ذي القعدة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م يستجد به ضد المسيحيين ويستنهض عزائمهم لمساندة أهل الأندلس<sup>(٧)</sup> في قتالهم للمحاصرين ليلاده الذين أشرفوا على أخذ غرناطة<sup>(٨)</sup> .

- ١- تذكر بعض المصادر وتتوصل الأجنبية أن سلطان غرناطة في ذلك الوقت كان محمد بن يوسف الأيسر ، ولكننا أخذنا برأي السقريزي .
- ٢- تولى سلطنة مصر من عام ٨٥٧-٨٤٢هـ (١٤٣٨-١٤٥٣م) . للتفاصيل انظر قسحاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ج٣ ص ٧١-٧٤ ، وأيضا إبراهيم طرخان مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ، النهضة المصرية - ١٩٦٠م ص ١٤٦ .
- ٣- للتفاصيل ذلك انظر د. عبد العزيز الأهواني: سفراء سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري (سنة ٨٤٤) مقال منشور بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السادس عشر ج١ مايو ١٩٥٤ ص ٩٥ .
- ٤- يقصد مخاطبة السلطان مراد بن محمد ، وكانت الصلة بينها طيبة .
- ٥- د. إبراهيم طرخان : المرجع السابق ص ١٤٦ .
- ٦- وثب إلى عرش مصر في عام ٨٧٢هـ ، وكان عهده بداية النزاع بين العثمانيين والمماليك .
- ٧- أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس . الاسكندرية ، الطبعة الأولى ١٩٦٨م ص ٤٦٨ .
- ٨- محمد بن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ج٢ ، القاهرة ، مطبعة بولاق ١٣١١هـ ص ٢٤٦ .

- ولما لم يكن في مقدرة السلطان المملوكي القيام بعمل عسكري لمساعدة أهل الأندلس خاصة وأنه كان يستعد لمنازلة السلطان العثماني بايزيد الثاني ، هذا إلى جانب بعد المسافة بينه وبينهم وصعوبة المواصلات ، واحتياج الأمر لمقدرة بحرية ضخمة لم يستطع إليها سبيلا فقد حاول اتخاذ الموقف عن طريق الضغوط السياسية فأرسل إلى كبير قساوسة كنيسة القيامة بالقدس يذكره بما يتمتع به نصارى الشرق من حريات وأمان على أنفسهم وعقائدهم ويطلبه بإرسال مكاتبة على يد قسيس من أعيانهم إلى ملك نابلي<sup>(١)</sup> ، وإلى بابا روما<sup>(٢)</sup> للتدخل لدى ملك قشتالة وأرجوان بأن يحل عن أهل غرناطة ويرحل عنهم<sup>(٣)</sup> ولا يتعرض لهم ويرد إليهم ما استولى عليه من أراضيهم ، وإلا فإنه سيضطر إزاء هذا العدوان أن يتبع نحو نصارى الشرق سياسة القصاص ، ويجلب عليهم المتاعب، ويقوم بالتنكيل بهم ويمنعهم من دخول كنيسة القيامة ويحبس على أعيانهم ويهدم الأديرة والمعابد والآثار النصرانية المقدسة<sup>(٤)</sup>.

ومع أن كبير قساوسة كنيسة القيامة استجاب لطلب السلطان المملوكي ، وكتب ملك نابلي فإن هذه المحاولة لم تقد بشيء .

- وفي محاولة أخرى من السلطان المملوكي أمر بإرسال وفد من رعاياه النصصاري<sup>(٥)</sup> إلى روما ونابلي ، وإلى الملكين الكاثوليكين فرديناند وإيزابيلا يعاتبهم على ما يحدث لأبناء دينه في غرناطة ، ويهددهم باضطهاد نصارى الشرق إن لم يكف عن مهاجمة غرناطة ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضا<sup>(٦)</sup> وسقطت غرناطة في صفر ٨٩٧هـ / ١٤٩١م وانتهت بذلك دولة الإسلام في أسبانيا . ومع ذلك فإن وساطة المماليك وتوعداتهم لم تتوقف عند سقوط غرناطة فقد أرسل السلطان المملوكي وفدا إلى أسبانيا في عام ١٥٠٠م للتعرف على إذا ما كان المسلمون الأندلسيون قد أجبروا على الارتداد عن

١- هو فرديناند الأول .

٢- هو البابا أوسمان الثامن .

٣- ابن أبياس : المصدر السابق ص ٢٤٦ .

٤- Prescott, William, H : History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, London- 1895 P. 278 .

٥- تكون هذا الوفد من راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما قس الطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس في بيت المقدس ، وقد وصل هذا الوفد إلى أسبانيا في عام ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م أي قبيل سقوط غرناطة . انظر عثمان : نهاية الأندلس ص ١٦٧-١٦٨ وأيضا Prescott: op. cit P. 278 .

٦- لم ينفذ السلطان المملوكي وعهده باتخاذ إجراءات عنيفة ضد النصارى لانشغاله عندئذ بعد غارات بايزيد الثاني على حدود مصر الشمالية ، واضطراب أحوال مصر خلال هذه الفترة .

دينهم واعتناق النصرانية ، وعن مدى صحة ما تردد عن تحويل المساجد إلى كنائس ، وليخبر الملك فرديناند والمملكة إيزابيلا بأن السلطان المملوكي سوف يقابل الاعتداء بمثله ، ويثار للمسلمين باضطهاد النصارى الخاضعين لحكمه<sup>(١)</sup> . وكان رد فرديناند على ذلك هو محاولة إقناع سلطان مصر بما يلقاه المسلمون في الأندلس من الرعاية ، وأن يضمنه على مصيرهم .

والسؤال المطروح هل كان في مقدرة مصر القيام بعمل عسكري لاتخاذ أهل الأندلس

الواقع أن بعد المسافة ، وقصور إمكانات الممالك الجراكسة البحرية خاصة وأنهم أصحاب خيل وقوتهم برية أكثر من كونها بحرية كان السبب في التقاعس عن اتخاذ الأندلس . وإن كان ما فعله الممالك لا يتعدى قيام مصر بمظاهرة دولية تقوم على استغلال المؤثرات الدينية مما أدى إلى ترك الأندلس لمصيرها<sup>(٢)</sup> .

#### ثالثا : المغرب الأقصى :

توالت نداءات أهل الأندلس لمثوك المغرب وحكامها يلتصقون نصرتهم ويطلبون منهم القوت والنجدة غير أن الأوضاع الداخلية التي كانت عليها بلاد المغرب خلال هذه الفترة ، وانقسامها إلى دويلات عدة تحاول تمزيق بعضها بعضا وازدياد النفوذ الأسباني البرتغالي على السواحل المغربية كل ذلك جعل من الصعب القيام بإجراءات فعالة لنصرة أهل الأندلس<sup>(٣)</sup> واتخاذهم من المأساة التي تعرضوا لها كما حدث في الماضي غير مرة<sup>(٤)</sup> فسقطت غرناطة آخر ما تبقى من بلاد الأندلس للإسلام وطويت صفحة الحكم الإسلامي في شبه جزيرة ايبيريا .

وبعد هذا العرض لمواقف القوى الإسلامية من الأندلس أثناء محتتها يطرح سؤال نفسه لماذا لم تتأزر القوى الإسلامية وتتفق على خطة موحدة لمساندة أهل الأندلس واتخاذهم من السقوط بعد أن داهم العدو ساحاتهم ومد الصليب ذراعيه إليهم على الرغم من أن القرآن الكريم والسنة النبوية يحضمان على ذلك فيقول تعالى **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ**

١- مؤلف مجهول: وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة - ترجمة محمد عبد الله الشرقاوي ، القاهرة ، دار البداية ص ١٢-١٣ .

٢- عنان : مصر الإسلامية ص ١٤٣ .

٣- الشناوي : مرجع سابق ج ٢ ص ٩٠٤ .

٤- Irving, Wilegends of the conquest of Spain P.P 220-221



- يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص" ، ويقول الرسول الكريم "من أغبرت قدامه في سبيل الله حرمها الله على الناس" و"من جهن غائراً في سبيل الله فقد غزا" .
- الواقع أن العلاقات بين القاهرة والأستانة خلال هذه الفترة كان يسودها القطيعة والجفاء خاصة وأن العثمانيين كشفوا مراراً عن نيتهم في غزو مصر ، مما جعل حكام مصر يقفون منهم موقف الحذر المتأهب ، وينصرفون إلى الاستعداد للقتال بدلا من مساعدة أهل الأندلس . يضاف إلى ذلك ما كان بين العثمانيين والصفويين في إيران من صراع وصل مداه إلى حد أن يقوم الشاه إسماعيل الصفوي بطلب المساعدة العسكرية من ملوك أوروبا الذين حرصوا على توسيع شقة الخلاف بين الدولتين الإسلاميتين فتحالف البرتغاليون مع الدولة الصفوية ضد الدولة العثمانية كما دخل الشاه إسماعيل الأول في مراسلات مع الامبراطور شارلكان للتحالف ضد العثمانيين ، يضاف إلى ذلك أن الصراع في المغرب انحصى للوصول إلى الحكم والحروب الطاحنة بين الأسر المتنافسة قد حال دون تقديم المساعدات اللازمة لأهل الأندلس .
- وهكذا يتضح أن السبب الرئيسي في محنة الإسلام بالأندلس نتج عن فرقة المسلمين وتشرذمهم ، والعداء المستحكم بين حكامهم ، ونجاح حكام أوروبا في توسيع شقة الخلاف بين هؤلاء الحكام لدرجة أن استعان بعضهم بالنصارى ضد إخوانهم في الدين .
- وعلى أي حال فقد استوعب العثمانيون الدرس جيدا ، ورفضوا تكرار ما حدث للأندلس في أي منطقة إسلامية أخرى واستمرت عقدة الشعور بالذنب تلاحقهم حتى واتهم الفرصة لاستعادة ثقة العالم الإسلامي بهم عندما طلب منهم أهل شمال أفريقيا النجدة ضد البرتغاليين والأسبان فقام السلطان سليم الأول بحسم الموقف ، ومساندة المسلمين وتثبيت دعائم الإسلام هناك .

## الموضوع الثالث

### الإنكشارية

لما كان الطابع العسكري الشديد الصرامة إحدى سمات الدولة العثمانية ، لم تظفر هيئة بها يمثل الاهتمام الذي ظفر به الجيش العثماني وخاصة أنها كانت تنظر إلى الجيش على أنه أداتها في الفتوحات الحربية ، ووسيلتها في حكم الأقاليم التي استولت عليها ، ودرعها في الدفاع عن ممتلكاتها<sup>(١)</sup> لدرجة أن شبه بعض المؤرخين الجيش العثماني بعملية نقش على أحد وجهيها لفظة الحرب ، وعلى الوجه الآخر كلمة الحكم .

وقد اعتمد قوام الجيش العثماني على تجنيد أبناء رعايا السلطان من المسيحيين . وذلك من طريق ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها الذين يعتنقون مذهب الكنييسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة في استانبول سماها العديد من المؤرخين ضريبة الغلمان وسماها بعضهم "ديوشيرمه" ، فقد كان العشرات من صغار هؤلاء الرعايا يؤخذون من أهلهم ، وتتم تنشئتهم بطريقة تنسم بالصرامة والتكذيب العقلي والجسمي ، كما يتم تحويلهم إلى الإسلام ثم يختار منهم من يصلح للعمل في مشاة الجيش العثماني ويطلق عليهم الإنكشارية ومعناها الجنود الجدد ، ومعنى ذلك أن هؤلاء الجنود كانوا بمقتضى اعتناقهم الإسلام وإبعادهم عن بلادهم الأصلية وترسيخ الولاء للسلطنة في نفوسهم يفقدون روابطهم الأصلية ، كما أنه لم يكن في امكانهم تكوين روابط اجتماعية جديدة وخاصة أنه لم يكن يسمح لهم بالزواج ، ولم يكن لهم أقارب بين الأهالي ولم يكن يسمح لهم بأن يبتعدوا عن ثكناتهم وبذلك توثقت روح الجماعة بينهم ، كما تعمق ولاؤهم للسلطان<sup>(٢)</sup> وصاروا لا يعرفون لهم أباً إلا السلطان ، ولا حرفة إلا الجهاد قسوى سبيل الله<sup>(٣)</sup> . ولا

١- عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها جـ١، القاهرة ١٩٨٠ . الأجلد المصرية ١٩٨٠ ، ص ٤٧١ .

٢- Edward Creasy : History of the Ottoman Turks, London 1818, P. 14 .

٣- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص ٤٢ .

مسكننا إلا ثكناتهم العسكرية . وترجع فكرة فرض ضريبة الغلمان إلى وزير السلطان "أورخان" ثنائي سلاطين آل عثمان المسمى "هابيل الأسود" . وقد أعجب السلطان بهذه الفكرة ، ولما تجمع لديه عدد غير قليل من هؤلاء الغلمان سار بهم إلى الحاج بكطاش شيخ الطريقة البكطاشية ليدعو لهم بخير فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال فليكن اسمهم (بني تشاري) أي الجيش الجديد ، ثم حرف هذا الاسم في العربية فصار الكشاري ، وبالتدريج ازداد عدد هؤلاء وصاروا من أهم الركائز التي اعتمدت عليها الدولة في حروبها وبسط سلطاتها<sup>(١)</sup> ولكنهم صاروا بعد ذلك من أسباب تأخر الدولة وتدهورها . وقد بلغ عدد كتابتهم التي كانت تسمى كل منها أورطة ١٦٥ كتيبة ، ولم يزد عددهم على خمسة عشر ألف رجل<sup>(٢)</sup> ، وكانت هذه الكتائب منظمة تنظيمًا متشابهًا وتعداد كل منها متساويًا ، وكانت كل منها تحت قيادة ضابط يدعى (الجورباجي) يساعده ستة من مروضيه وعدد من ضباط الصف ، وكانت تقسم في ثكنات تسمى أورطة) ولكل كتيبة شارة توضع على أعلامها وعلى أبواب ثكناتها<sup>(٣)</sup> . كما كانت توضع هذه الشارات على أشرطة الاكشارية وسيفاتهم عن طريق الوش . وهذه الشارات كانت عبارة عن سمكة أو مفتاح أو خطاف . وكان ضباطهم يلقبون بالألقاب تدل على أنهم كانوا يعيشون من انعامات السلطان وأنهم كانوا ، ومن ألقابهم "شوربجي باشي" و "عشي باشي" و "أوده باشي" و "سقا أغاسي" أي شرف ذلك من الألقاب ، وكانت هذه الألقاب عندهم بمثابة عنوانات خاصة بالرتب العسكرية ثم أنهم كانوا يعظمون قدور الطعام ولا يفارقونها حتى زمن الحرب ، وكانوا يداخون عنها دفاع الجنود عن أعلامهم . لدرجة أن ضياع إحدى هذه القدور كان بمثابة إهانة تلحق بأصحابها العار ، وكانوا إذا أرادوا إظهار عدم الرضا من بعض أوامر رؤسائهم يلقبون القدور أمام ثكناتهم<sup>(٤)</sup> . وكانت ترقية الاكشارية تتم طبقا لقواعد الأقدمية ، وكانت الدولة تسرح الذين تتقدم بهم السن أو تصيبهم عاهة تقعدهم ، وفي كلتا الحالتين تقرر لهم الدولة معاشا .

١- محمد فريد : المرجع السابق ص ٤٢ .  
 ٢- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين ومثير العليكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٩ ص ٤٦٦ .  
 ٣- المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة العدد ٢٥-٢٦ في يونيو ١٩٨٢ ص ١٠٦ مقال الدكتور علاء موسى كاتم تحت عنوان "مستولية الاكشارية في تدهور الدولة العثمانية" .  
 ٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٤٢ .

وقد خصت الدولة الاتكشارية بعدة امتيازات منها أنهم كانوا يتقاضون رواتبهم من خزائن السلطان ومنها منحهم حصانة تمنع السلطات المدنية من القبض عليهم ، وقيام ضباط الاتكشارية بمعاقبة الأفراد المخطفين بأنفسهم . وكانت العقوبات تتفاوت بين الجلد والسجن والخصاء والاعدام ، وكانت عقوبة الخصاص توقع على معتادى الاجرام من الاتكشارية أو ممن تتعدد حوادث خروجهم على قواعد الانضباط العسكري فيأمر رئيس الاتكشارية بإجراء عملية الخصاص الجزئي أو الكلي لمن يحكم عليهم بذلك وبمقتضاها يفقد الاتكشارى رجولته ويلتحق بالخدمة الداخلية في القصر السلطاني .

وكان رئيس الاتكشارية ويطلق عليه أغا الاتكشارية أو بالمصطلح التركي (بنى شرية أغاسى) من أبرز الشخصيات فى الدولة العثمانية إذ كانت القوات العسكرية التى تحت قيادته تعد أقوى أداة عسكرية فى سلاح المشاة تحت تصرف السلطان<sup>(١)</sup> ، كما أنه كان يعمل أيضا مديرا للشرطة فى استانبول وبجانب ذلك فإنه كان يحكم منصبه عضوا بمجلس الدولة ، كما كان مقدما على كل قواد الدولة<sup>(٢)</sup> .

وترجع أهمية الاتكشارية إلى عوامل عدة منها : كفاءتهم القتالية ، وشجاعتهم المفرطة ، ووفرتهم العددية ، وضراوتهم فى المعارك الحربية ، فكانوا يشكلون ثقلا حربيًا أساسيا فى الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية دفاعا أو هجوما سواء فى آسيا أو أوربا أو إفريقيا .

وقد ترجع ضراوة الاتكشارية فى القتال وخشونتهم وجفاء طباعهم إلى الصرامة التى اتسمت بها تربيتهم وخاصة أنهم كانوا يفتقدون جو الأسرة التى تركز فيه شتى مشاعر الحب والعطف والحنان فنشئوا مجردين من جميع المؤثرات الإنسانية التى تساعد على تهذيب الطباع ، وتركز اهتمامهم على الاستبسال فى الحروب واسترخاض المسوت . وكان الاتكشارية غالبا ما يأخذون أماكنهم فى طليعة الجيش وقلبه فى أثناء المعارك وكان السلطان يتخذ مكانه خلفهم وإلى جانبه يبرق الحرب . وإلى جانب ذلك كان الاتكشارية يتبعون السلطان فى تنقلاته وخصوصا أن بعضهم كانوا يؤلفون الحرس السلطاني<sup>(٣)</sup> وقد جعلهم ذلك يشعرون بمكانتهم .

وبقيت كتائب الاتكشارية سندا وعونا للدولة فى فتوحاتها ومواجهة أعدائها ، واستطاعت الدولة عن طريقهم أن تمضى قدما فى سياسة التوسع ومواجهة أقوى جيوش

١- الشناوى : المرجع السابق ص ٤٨٢ .

٢- هاملتون جب وهاروك بون : المجتمع الإسلامى والغرب - ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى وأحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١م ص ٨٩ .

٣- الشناوى : المرجع السابق ص ٤٨٢-٤٨٣ .

أوريا . ثم انقلبت الأمور رأساً على عقب بعد أن استشرى نفوذ الانكشارية وداخلهم الغرور ، وأخذوا يتسلطون على أمور الدولة ، ويزوجون بأنفسهم في أمر تعيين السلاطين، وتوالى تمردهم بعد ذلك فصاروا ثقلًا كبيراً على كاهل الدولة ، لدرجة أن بلغ بهم الأمر أنهم لا يسمحون للسلطان الجديد بارتقاء أريكة الحكم قبل أن يغدق عليهم العطايا التي أطلق عليها كلمة البخشيش . وإلى جانب ذلك بدأت ظاهرة تدخل الانكشارية في المسائل السياسية منذ عهد السلطان بايزيد الثاني ١٤٨١-١٥١٢ ، وظهر تمردهم على السلطان سليم الأول في أثناء محاربته للصوفييين في فارس ومطالبتهم له بوقف العمليات الحربية بحجة الاكتفاء بما حققوه من انتصارات فاضطر إلى العودة إلى بلاده استجابة لضغوطهم<sup>(١)</sup>، وتكررت حالات التمرد بعد ذلك . وإلى جانب ذلك نماحوا في مطالبهم غير المشروعة كلما آتسوا من السلطان الحاكم ضعفاً ، ووصل بهم الأمر أنهم كانوا يعزلون السلاطين والصدور العظام والوزراء وكبار رجال الدولة ، ويقتلون بعضهم ، ويتدخلون في تعيين غيرهم في المناصب التي تخلو بقتل أو عزل شاعليها .

وزدادت مخاطر الانكشارية تفاقمًا عندما قررت الحكومة العثمانية تطوير جيوشها بعد الهزائم التي حاقّت بها وذلك بإدخال النظم العسكرية الحديثة التي أخذت بها الدول الأوروبية في جيوشها ، فقد عارض الانكشارية إدخال مثل هذه النظم معاضة شديدة، وكتاتوا أكبر عقبات الإصلاح العسكري في الدولة العثمانية ، لاعتقادهم أنها ستؤدي إلى إهمالهم أو ذوبانهم في الفرق العسكرية الجديدة ، وبدأوا في إعلان تمردهم وعصيانهم في وجود السلاطين ، فأغتالوا السلطان سليم الثالث في عام ١٨٠٨ لأصراره على إدخال النظم العسكرية الحديثة بين صفوفهم ، ونجحوا في إجبار عدد من السلاطين على إلغاء هذا النظام الجديد ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل امتدت شُرور الانكشارية إلى المديين فافتحموا بيوتهم وانتهكوا أعراضهم ، وعمدوا إلى حرق الأحياء التي تقف أمامهم ، وهاجموا المحلات التجارية ، وبعد أن فاض الكيل وأصبح الانكشارية أشد عناصر الفساد في جسد الدولة ، رأت الحكومة إبعادهم عن العاصمة فأمرت بتوزيع فيالقهم على الحدود، كما سمحت لهم بالزواج لشغلهم بمشكلات الحياة الزوجية ، وأذنت لهم بممارسة بعض الحرف والاشتغال بالتجارة في أوقات السلم ، ومع كل ذلك فقد ظل الانكشارية مركز قوة<sup>(٢)</sup> . ولما تولى السلطان محمود الثاني العرش ١٢٢٣هـ (١٨٠٨-١٨٣٩م) أدرك أنه لن يتمكن من وقف طغيان الانكشارية إلا بإصلاح أحوال الجيش ، فجمع أعيان الدولة وكبار ضباط الانكشارية في بيت المفتى وقام الصدر الأعظم سليم

١- جلال يحيى : العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ج١ ، الإسكندرية ١٩٨٢ ص ٥٨٦-٥٨٧ .

٢- الشلوي : المرجع السابق ص ٤٩٤-٥٠٢ .

أحمد باشا خطيباً فبين الحالة التي وصلت إليها الإنكشارية من الضعف والاحتياط والقصور في فنون الحرب الجديدة ، وبين ضرورة إدخال النظم العسكرية الحديثة . ثم أفتى المفتى بجواز العمل بمقاومة المعارضين له ، وقد وافق كبار ضباط الإنكشارية على إدخال النظم العسكرية ظاهراً وأبطنوا خلاف ذلك إذ سرعان ما ثاروا عند تنفيذ هذه الإصلاحات وخاصة أنها ستفقد سلطاتهم ، فجمع السلطان العلماء وأخبرهم بنية التمرد فشجعوه على إبادة الإنكشارية ، لذلك استعد لقتالهم ، وأمر بأن تحيط المدفعية بميدان (أت ميداني) الذي اجتمع فيه العصاة وأن توجه قذائفها عليهم ، وقد حاول الإنكشارية الهجوم على المدافع ولكنها أحرقتهم بلهب نيرانها فهربوا إلى تكتلاتهم طلباً للنجاة فأحرقت وهدمت فوقهم وبذلك قضى على قوتهم بصفة نهائية ، وقضى معهم على فرقة البكتاشية الصوفية التي كانت تساندتهم ، وصدر مرسوم سلطاني بإلغاء فئة الإنكشارية وملابسهم واصطلاحاتهم وإعدام كل من تبقى منهم وكان ذلك في التاسع من ذي القعدة ١٢٤١هـ<sup>(١)</sup>.

وبذلك اتفتح الطريق لبناء النظم العسكرية الحديثة في الجيش العثماني وأزيلت الحواجز أمام دخول الخبراء الأوروبيين لتطويره .

والسؤال المطروح: هل كان القضاء على الإنكشارية في صالح الدولة العثمانية من ناحية القوة العسكرية أم كان سبباً في إضعافها وازدياد التغلغل الأجنبي في ممتلكاتها.

الواقع أن القضاء الإنكشارية قد أتاح الفرصة للأوروبيين وغيرهم للاحاق العديد من الهزائم بالدولة العثمانية التي بدت أمامهم شبه عارية وحررهم من الرهبة منها وكان من الأجدى بالسلطان العثماني القضاء على الأسباب التي أفسدت الإنكشارية وليس القضاء على الإنكشارية كنظام والدليل على ذلك أنه بعد القضاء على الإنكشارية بمسنوات قليلة تمكنت روسيا من الاستيلاء على العديد من المناطق والأقاليم التابعة للعثمانيين وأجبرت السلطان على توقيع معاهدات مهينة منها إجبارها في عام ١٨٢٩ على توقيع اتفاق تنفتح به أبواب الدولة العثمانية أمام الروس من ناحيتي القوقاز والدانوب ، ومن ناحية أخرى فقد تم هزيمة الدولة العثمانية في موقعة تفارين البحرية في عام ١٨٢٧م وتحطم أسطولها ، واضطر السلطان إلى الموافقة على استقلال اليونان ، كما نجحت فرنسا في الاستيلاء على الجزائر في عام ١٨٣٠م ، هذا إلى جانب قيام محمد علي بحملته على بلاد الشام في عام ١٨٣٠م ونجاحه في إلحاق العديد من الهزائم بالعثمانيين وإعلان داود باشا والي العراق العصيان على الدولة .

١- علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ص ١٣٥-١٣٦

ومما سبق يتضح أن الانتكشارية كانوا في بداية نشاطهم قوام الجيش العثماني وعماده ، وأنهم شاركوا بشكل أساسي في الدفاع عن الدولة وخلال فتوحاتها ، وبذلوا النفس والنفس في سبيل إعلاء شأن الإسلام ، ولكن وضعهم سرعان ما تغير فذهب الضعف والفساد في نظامهم ، ووقفوا حجر عثرة أمام كل المحاولات الرامية إلى تحديث الجيش العثماني كما تحولوا إلى عصابات مسلحة هدفها الاعتداء على النظام ، والتدخل في سياسة الدولة العليا وترويع الأمنين والاعتداء على حرماتهم ، مما دفع بالسلطين إلى القضاء عليهم .

#### الموضوع الرابع

### أثر معركة ديو البحرية ١٥٠٩م

#### على حركة التجارة العربية

قبيل وصول البرتغاليين إلى مياه المحيط الهندي، وتمكنهم من الدوران حول رأس الرجاء الصالح كان المماليك يسيطرون على التجارة الشرقية في بحر العرب، والموانئ الواقعة على ساحل الهند الغربي، ويدافعون عن دمار المسلمين، ويبسطون سيطرتهم على البحر الأحمر، ويضعون ميناء جدة<sup>(١)</sup> الإسلامي تحت حكمهم المباشر.

وكانت تجارة "الترانسيت" من أهم مصادر الثروة للمماليك فكانت السفن العربية تسير في المحيط الهندي والبحر الأحمر، وتتوغل حتى "ملقا" وما بعدها، وتقوم بنقل تجارة التوابل إلى السويس، ثم عن طريق البر إلى موانئ مصر على البحر المتوسط حيث تنقل بعد ذلك إلى أوروبا بواسطة التجار الإيطاليين وبوجه خاص تجار البندقية وجنوة<sup>(٢)</sup>. وبمعنى آخر كان المماليك يتحكمون في تجارة الهند مع موانئ البحر المتوسط، وكانت البندقية وجنوة بامتيازاتها التجارية معهم تعد الوكيل الوحيد لهم في القارة الأوروبية<sup>(٣)</sup> وقد استغل سلاطين المماليك مرور هذه

(١) في مطلع القرن التاسع الهجري حل ميناء جدة الإسلامي محل ميناء عدن كمركز للتجارة القادمة من الهند والصين.

(٢) للتفاصيل انظر: أحمد دراج: أبحاث جديدة عن التحول في تجارة البحر الأحمر. الموسم الثقافي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦٨/٦٧، ص ١٨٥.

(٣) بعد الصراع البحري بين جمهوريتي البندقية وجنوة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي من أجل السيطرة على الأسواق التجارية أصبحت البندقية المحتكر الرئيسي لتجارة الشرق وسلمه في أسواق أوروبا.

دراج: مقال سابق، ص ١٨٨-١٨٩.

(٤) كستيلي لين بول: سيرة القاهرة - ترجمة حسن إبراهيم وآخرين، ص ٢٢٢.



التجارة في أراضيهم فتحكموا في الموانئ، وفي طرق القوافل، وفرضوا رسوما جمركية على كل بضاعة شرقية تصل من الخليج والبحر الأحمر إلى الموانئ الواقعة بين الاسكندرية والاسكندرونة لدرجة أدت إلى بيع التوابل في القاهرة بثمن أعلى مما كانت عليه في قاليقوت.<sup>(١)</sup> خمس مرات مما عاد على الممالك بالثراء الواسع، والربح الوفير وحقق لمصر، ولخزائن السلاطين أرباحا وفيرة. ولم يكتف الممالك بذلك بل قام السلطان "برسباي" وتبعه بعد ذلك خلفاؤه باحتكار هذه التجارة نظرا لما تعود به عليهم من مكاسب، وثروات ضخمة. وقد اقترن ذلك بطرح البضائع على تجار الاقترنج جبزا، وبالسعر الذي يحدده السلطان والذي فاق في بعض الأحيان ثمنه بأربعين مرة عن ثمنه الأصلي مما أدى إلى امتناع بعضهم في كثير من الأحيان عن شراء ما يطرح عليهم من بضائع، وترتب على ذلك حدوث أزمات سياسية واقتصادية عديدة بين الممالك ودول أوروبا التي كانت تتدخل لحماية مصالح تجارها،<sup>(٢)</sup> كما دفع بعض الممالك الأوربية خاصة البرتغال الذي هالها ما كانت تجنيه مصر، ويجنيه التجار البنادقة من الضرائب على التجار بين الهند والشرق من جهة، وبين أوروبا من جهة أخرى على التفكير في البحث عن طريق آخر للتحكم في هذه التجارة والاستفادة من ثرواتها، وأضعاف موارد المسلمين الاقتصادية وقد ساعدهم على تحقيق أهدافهم النهضة العلمية التي ظهرت في أوربك والتي برزت آثارها حين انتهت إلى حركة الكشف الجغرافية.

فبعد تمكن البرتغاليين من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٧هـ/ ١٤٩٧م، وتحويل مسار التجارة الشرقية إليه ثم الوصول إلى شاطئ ملبار، نزلت بالمسلمين ضربة قاصمة حيث بدأ مركزهم الاقتصادي كطريق رئيسي للتجارة بين الشرق الأقصى والغرب يهتز، مما أذن بالقضاء على تجارتهم في

<sup>(١)</sup> انكتب أحيانا كاليكوت، وأحيانا أخرى قاليقوت وتسمى حاليا كلكتا.  
<sup>(٢)</sup> انراج: مقال سابق، ص.ص ١٨٥-١٨٦.

الشرق الأقصى، وانتقال مراكز التجارة الشرقية إلى البرتغاليين، وتحويل السيادة التجارية والبحرية إليهم.<sup>(١)</sup>

ولإحكام الحصار على التجارة العربية طلب البرتغاليون من السامري حل كم قاليقوط عدم التعامل مع العرب أو الإتجار معهم وعرضوا عليه شراء ما كان يبيعه لهم بثمان أكثر مما كانوا يشترونه به.<sup>(٢)</sup> ولما رفض مطلبهم أجبروه بالقوة على تنفيذ، كما فرضوا عليه غرامة كبيرة<sup>(٣)</sup>

وفي أعقاب ذلك بدأوا في التحرش بالتجار المسلمين فأغرقوا سفنهم، وكانت إحداهما سقينة تابعة للسلطان القوري، ومحملة بالتوابل، وعلى وشك الإبحار إلى جدة، كما ضربوا مدينة ملبار بالمدافع، وأغرقوا السفن الموجودة بها ثم ألقوا إلى بلادهم حاملين الغنائم والإسلاب.<sup>(٤)</sup>

وإلى جانب ذلك أرسل ملك البرتغال القائد "فرانسوا الميدا" François d'Almeida بالأساطيل والرجال والعتاد، "وأخضعوا بلاد كجرات، وسواحل دكن، وجزيرة هرمز الواقعة في فم خليج العجم، وأخذت سفنهم تمخر فيملا بين البصرة وعدن، وتتعدى على كل سفائن مصر والعرب التجارية وتتهبها، وتستولي عليها، وبذلك انقطع طريق التجارة بين الهند ومصر خاصة بعد بنائهم قلعة فونا في ساحل دكن."<sup>(٥)</sup>

<sup>(١)</sup> أنظر ابن أبياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ ٥، ص ٩٤-٩٥ وأنظر أيضا: Stands, J: Portuguese Period in East Africa, P.P 43-45.

<sup>(٢)</sup> زين العابدين: تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين، ص ٣١٧.

<sup>(٣)</sup> ادفع السامري غرامة قدرها ١٥٠٠ بهار من الفلفل (البهار عبارة عن ثلاثة قناطير أو أربعة)

أنظر: المقتطف عدد نوفمبر ١٩١٧ ص ٤٥٢-٤٥٣.

<sup>(٤)</sup> سمعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية، ١٢٧-١٢٨.

<sup>(٥)</sup> إسحاق سرهنگ: حقائق الأخبار عن دول البحار، جـ ٢، ص ٣٥.

كما شن البرتغاليون حرباً ضارية على المعاقل التجارية العربية، وأجبروا السفن العربية التي تعبر المحيط الهندي على دفع رسوم واتاوات كبيرة لهم ولأعوانهم من سلاطين وأمراء الهند، وعلى ضرورة حصولهم على تصريح للمرور في مياه المحيط، هذا إلى جانب قيامهم بإيذاء المسلمين والاستهزاء بهم وبمشاعرهم، وإعلانهم العزم على مهاجمة الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز وتخريبها.

ولم يكتفِ البرتغاليون بذلك بل أرسلوا أسطولاً مكوناً من تسع سفن عند باب المندب في عام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م لمنع دخول الأسطول المملوكي من بحر الهند، ولصد السفن التجارية القادمة من الهند إلى الموانئ المصرية. ونتيجة لذلك تحولت التجارة الدولية عن مصر، وتحول مجرى تجارة الشرق الأقصى من مصر والشام والبحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي حول شواطئ القارة الأفريقية<sup>(١)</sup>

ومن هنا كان لابد من وقفة حازمة، وكان لابد للتجار العرب من البحث عن سند قوي يشد من عضدهم. وقد اتجهت الأنظار إلى السلطان المملوكي قانصوه الغوري بصفته أكثر الحكام المسلمين تأثراً بتحويل طريق التجارة الشرقية عن بلاده، ولمقدرة بلاده البحرية في التعامل مع البرتغاليين خاصة وأن العثمانيين كانوا مشغولين بفكرة توسعهم نحو الشرق. كما كانت الدولة الصفوية مشغولة بنزاعها المذهبي يضاف إلى ذلك أن كلا منهما لم يكن يمتلك أسطولاً قوياً في منطقة الخليج. يمكنه دفع خطر البرتغاليين.

(١) إسماعيل ماهر: مرجع سابق، ص ١٢٨-١٢٩.

ونتيجة لذلك طلب بعض حكام الهند والعرب الذين تربطهم بمصر روابط تجارية مثل ناصر الدين مظفر شاه سلطان كجرات، وعامر بن عبد الوهاب حاكم اليمن<sup>(١)</sup> طلبوا المعاونة من السلطان الغوري لمواجهة خطر البرتغاليين الذين عاثوا في سواحل بلادهم فسادا حتى يمكن دفع ضررهم عن التجار المسلمين<sup>(٢)</sup>. وقد رحب السلطان الغوري بهذا الطلب خاصة وأن مصالح بلاده الاقتصادية والمالية قد تأثرت إلى حد كبير. هذا إلى جانب رغبته في جهاد البرتغاليين، ومساندة المسلمين الذي هدد البرتغاليون ديارهم ومقدساتهم. وقد بذل الغوري جهودا كبيرة من أجل اعداد أسطول ضخم على وجه السرعة لمحاق قوة البرتغاليين في بحر العرب وطلب من السلطان العثماني بايزيد،<sup>(٣)</sup> ومن جمهورية البندقية المساعدة لكسر شوكة البرتغاليين. وقد تمكن الغوري من اعداد أسطول مكون من ثلاثة عشر سفينة حربية، وألف وخمسمائة مقاتل بقيادة الأمير "حسين الكردي"<sup>(٤)</sup> وإلى جانب ذلك لجأ السلطان الغوري إلى الطرق الدبلوماسية في محاولة منه لوقف اعتداءات البرتغاليين على التجار المسلمين فكلف الراهب الأسباني "موروس Maurus" حارس دير جبل صهيون بالقدس بالذهاب إلى أوروبا حاملا رسائل إلى كل من دوق البندقية، والبابا، وملك اسبانيا، وملك البرتغال هدد فيها بطرد جميع النصارى من سلطنة الممالك، وهدم أماكنهم في القدس. وبناء على ذلك كتب البابا "بيوس" الثاني إلى الملك "عمانوئيل الثاني" ملك البرتغال يحضه على العدول عن مشروعاته في الهند حتى لا يتعرض نصارى الشرق للضرر إلا أن ملك البرتغال أقنع البابا في كتابه المؤرخ ٩١١هـ/١٢ يونيو ١٥٠٥ بعدم جدية

(١) ابن هنيك: مرجع سابق، ج٢، ص ٣٥.

(٢) ابن أبياس: مصدر سابق، ج٤، ص ١٨٥.

(٣) لم يمد العثمانيون السلطان الغوري سوى بمساعدات محدودة، كما ان القوى الإسلامية في عدن وصنعاء ومكة كانت لا تملك سوى الدعاء للأسطول بالنصر، هذا إلى جانب قيام حاكمي مسقط وهرمز بتقليد مصالحها الخاصة على المصلحة الإسلامية العامة.

انظر: عبد العزيز نوار: الشعوب الإسلامية، ص ١٣٦.

(٤) زين العابدين: تحفة الساجدين، ص ٤٠-٤١.

تجهيزات السلطان الغوري، وإلا يعيرها اهتماما، خاصة وأن الإيرادات الكبيرة التي يحصل عليها السلطان من حجاج الأماكن المقدسة تحول بينه وبين ما يهدد به.<sup>(١)</sup> ونتيجة لقتل محاولات الغوري السياسية لم يجد بدا من اللجوء إلى الحرب لفتح طرق التجارة إلى بلاده. لذلك طلب من الأمير حسين الكردي استكمال بناء الأسطول ومواصلة الاستعدادات الحربية.

وقد ألق الأسطول المملوكي بقيادة "حسين الكردي" إلى الهند لاجتثاث الخطر البرتغالي وانضمت إليه السفن الإسلامية وأزره البنادق التي تآثرت تجارتهم بتحويل البرتغاليين لتجارة الهند. وقد تمكن الأمير "حسين الكردي" من مباغتة الأسطول البرتغالي قرب "شول" Chaul على الشاطئ الغربي للهند في (رمضان ٩١٣هـ/يناير ١٥٠٨م) وانتصر عليه وغنم منه غنائم كبيرة<sup>(٢)</sup> وقد وصف المؤرخ المصري ابن إياس ذلك بقوله "ورجع الأمير حسين تخفق على هامته، وعلى صواري أسطوله المصري رايات الظفر، وأعلام النصر".<sup>(٣)</sup> وتوجه "حسين الكردي" بعد هذه المعركة إلى جزيرة "ديو" وطلب من حاكمها "مالك إياس"<sup>(٤)</sup> المساعدة لإصلاح سفنه.<sup>(٥)</sup>

ولم يستسلم البرتغاليون للهزيمة بل تمكنوا من تغيير الموقف العسكري لصالحهم واسترداد زمام المبادرة من المسلمين، وتمكنوا بقيادة "نونوفاز بيريرا" Nunno Voz Pereira من الثأر لأنفسهم فبعد معركة عنيفة شارك فيها أسطول السامري، وأسطول كجرات بجانب الأسطول المملوكي استطاع الأسطول البرتغالي

<sup>(١)</sup> التفاضيل انظر: احمد زكي باشا: المقال السابق، ص. ٤٥٧-٤٥٨.

<sup>(٢)</sup> إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة، ص ٢٩٦.

<sup>(٣)</sup> ابن إياس: مصدر سابق، حوادث شعبان ٩١٤هـ/ ص ١٤٢.

<sup>(٤)</sup> هذا اللفظ يستعمله: أهل الهند بمعنى ملك أو أمير.

<sup>(٥)</sup> انظر: صفحة من تاريخ التجارة، مقال سابق، ديسمبر ١٩١٧، ص ٥٤٩.

<sup>(٦)</sup> ابن إياس: مصدر سابق، ص ١٤٢.

القيام بمفاجأة الأساطيل الإسلامية من الخلف والانتصار عليها عند ديو فسي عام ٩١٤هـ/فبراير ١٥٠٩ فقتل العديد من بحارة حسين الكردي<sup>(١)</sup> وهي المعركة التي أطلق عليها معركة ديو البحرية.

وبتحطيم الأساطيل الإسلامية في تلك المعركة أصيبت المقاومة المملوكية في الصميم مما أدى إلى استفحال الخطر البرتغالي.

وبهذا الانتصار تمكن البرتغاليون من تثبيت أقدامهم في المحيط الهندي، واستطاعوا التحكم في تجارة التوابل، وراقب أسطولهم مداخل البحر الأحمر لمنع السفن الإسلامية من التحرك فيه كما شددوا حصارهم على الخليج حتى لا تصل التوابل إلى الممالك يضاف إلى ذلك أنهم قاموا بالإستيلاء على عدد من السفن اليمنية<sup>(٢)</sup> وحاولوا الإستيلاء على عدن (١٥١٣) والوصول إلى ميناء جدة<sup>(٣)</sup> والتحالف مع الأحباش بهدف تطويق العالم العربي من ناحية الجنوب، وتحويل مصب النيل إلى البحر الأحمر لتجويع مصر<sup>(٤)</sup> وتهديد الأماكن المقدسة في الحجاز. ونتيجة لخطورة الموقف، وتعطيل حركة التجارة تماما بين مصر والهند شرع السلطان الغوري في بناء أسطول جديد<sup>(٥)</sup> كما قام بتحصين ميناء جدة. وإلى جانب ذلك تمكن أهالي عدن من الصمود أمام هجمات البرتغاليين مما أفشل محاولاتهم، كما فشلت محاولات البرتغاليين في التحالف مع الأحباش نتيجة لاختلاف مذهبيهما الديني وتباين وجهة نظر كل منهما.

وقد ترتب على معركة ديو البحرية آثار بعيدة المدى على التجارة العربية يمكن إجمالها فيما يلي:-

(١) حول تفاصيل هذه المعركة أنظر زين العابدين: تحفة المجاهدين، ص ٤٦. علما بأن حسين الكردي لم يقع في قبضة أعدائه بل تمكن من الرجوع إلى مصر مع ثلث الأسطول المهزوم.  
(٢) Kammerer, A: La Mer Rouge, Tome, P. 155  
(٣) قطب الدين النهروالي: البرق اليمني في الفتح العثماني، ص ١٩.  
(٤) سر هنك: مرجع سابق، ج٢، ص ٣٦.  
(٥) ابن ياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ٢١٢.

- ١- تحويل حركة التجارة العالمية من البحر الأحمر والخليج العربي إلى رأس الرجاء الصالح<sup>(١)</sup>
- ٢- فقدان مصر لمكانتها التجارية، وانتقال هذه المكانة إلى لشبونة التي أصبحت هي القابضة على زمام التجارة الهندية، وتوطيد مركز البرتغاليين على الساحل الهندي، والقضاء على نفوذ التجار المسلمين هناك.
- ٣- تعرض سفن الحجاج المسلمين لمخاطر هجوم البرتغاليين عليها عند مداخل البحر الأحمر، والاستيلاء عليها ونهب ما فيها.
- ٤- انهيار تجارة البنادق، وتدهور مركزهم المالي بعد اغلاق البحر الأحمر والخليج العربي في وجههم ثم تهافتهم بعد ذلك على تأسيس محال تجارية لهم في لشبونة للتعامل مع أسواق البهار.
- ٥- عدم تمكن السفن الإسلامية من الإبحار إلا بجواز مرور من السلطات البرتغالية بعد فرض رسوم عليها، ومصادرة كل سفينة لا تحمل هذا التصريح.
- ٦- ممارسة السفن البرتغالية لأعمال القرصنة ضد السفن الإسلامية.
- ٧- مبالغة البرتغاليين في إيذاء المسلمين والاستهزاء بهم،<sup>(٢)</sup> ومحاولاتهم المستمرة اقتحام البحر الأحمر، وتهديد ثغر عدن، والاستيلاء على السفن اليمنية، والاقتراب من ميناء جدة بهدف الوصول إلى الأماكن المقدسة في الحجاز<sup>(٣)</sup> والعبث بمقدسات المسلمين في مهبط الوحي.
- ٨- انخفاض أسعار التوابل في أوروبا بشكل كبير بنسبة تصل إلى الستين في المائة بعد التخلص من السماسرة والوسطاء ورسوم الجمارك التي كانت تفرض عليها من قبل المماليك.

<sup>(١)</sup> أزين العابدين: تحفة المجاهدين، مرجع سبق ذكره.

<sup>(٢)</sup> Kammerer, A: Op. Cit , P.P 157-230

<sup>(٣)</sup> Serjeant, R.B: The Portuguese of the South Arabian Coast, P.P 30-31

٩ -- انهيار موارد الممتلكات المالية بعد خنق تجارتهم، مما أدى إلى أفول دولتهم، وتمكن العثمانيين من الاستيلاء على الوطن العربي، وتحملهم مسؤولية  
انمواجهة أمام البرتغاليين في المياه العربية الجنوبية<sup>(١)</sup> وإعادة التجارة  
الشرقية إلى سابق عهدها. بدأت بذلك صفحة جديدة من الصراع بين  
العثمانيين والأوروبيين الذين أخفقوا في الإحلال مكان العرب في السيادة  
الاقتصادية فانهارت أسواق الشرق العربي، وفقدت أهميتها في حركة  
التجارة العالمية التي انتقلت بالتالي إلى غرب أوروبا.<sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> سرهنگ: مرجع سابق، جـ ٢، ص ٣٧.  
<sup>(٢)</sup> نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص ١٨٧.





## الموضوع الخامس

### العثمانيون والعالم العربي

#### العثمانيون بين قوتين

في بدايات القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي تزعم العالم الإسلامي ثلاث قوى متميزة وهي: دولة المماليك في مصر والشام والحجاز واليمن ، والدولة الصفوية في فارس ، والدولة العثمانية في الأناضول والبلقان . وقد استطاعت أن تمتد سيطرتها إلى المجر .

ولما كانت كل قوة من هذه القوى تخشى على نفسها من تعاضد القوتين الآخرين فقد عمل كل طرف من هذه الأطراف على إيجاد عملية توازن مع الطرفين الآخرين حتى لا يشكل أحدهما خطراً عليه . وعلى الرغم من ذلك فإن الصدام بين هذه القوى كان متوقفاً ، وكان الحذر المشوب بالقلق يتنابح كلا منهم تجاه الآخر . وانتهى الأمر بتحول الجهاد الإسلامي ضد النصاري إلى حروب فيما بين المسلمين أنفسهم ، وفيما يلي نعرض لهذه الأطراف الثلاثة ، والصراع الذي حدث بينهم وانتهى بانتصار العثمانيين .

#### أولاً : الصفويون :

ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفى الدين اسحق الأربيلى<sup>(١)</sup> (٦٥٠-٧٣٥هـ) (١٢٥٢-١٣٣٤م) وقد بدأ نفوذهم يبرز في إيران خلال القرن التاسع الهجري وكتابوا يقولون بامتداد نسبهم إلى الحسين بن علي بن أبي طالب<sup>(٢)</sup> من جهة ، وإلى يزديجرد الساساني من جهة أخرى ، وقد أسس أحدهم وهو إسماعيل الصفوي دولتهم في أذربيجان عام ٩٦٠هـ/١٥٥٠م ثم بسط نفوذه في شروان والعراق والأوزبك وفارس واتخذ من تبريز<sup>(٣)</sup> عاصمة لدولته .

١- أربيل في أذربيجان .

٢- تخافيل ذلك انظر د. ربيع جمعة : الشاه إسماعيل الكبير ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٠ .

٣- تقع في الشمال الغربي من إيران بالقرب من الحدود التركية .

وما إن تم لإسماعيل الصفوي بسط نفوذه على إيران كلها حتى كشف عن عزمه على إعلاء شأن الشيعة<sup>(١)</sup> فأعلن أنه سليل الإمام السابع<sup>(٢)</sup> . كما أعلن أن المذهب الشيعي هو دين الدولة . ولكي يحقق أهدافه في تحويل إيران إلى المذهب الشيعي رأى أن القوة السياسية يجب أن تساندها قوة عسكرية مخلصه تربطها به وشائج عقائدية متينة تجعلها مستعدة للاستماتة في الدفاع عن معتقداتها ، ومن هنا اعتمد على القوى العشائرية المتعصبة للمذهب الشيعي حتى صارت دعامة قوية وسندا للأسرة الصفوية<sup>(٣)</sup> . وحارب إسماعيل الصفوي أهل السنة ، وكان أهل السنة أكثرية سكان البلاد في ذلك الوقت<sup>(٤)</sup> وراح يحملهم قسرا على الدخول في المذهب الشيعي ومن أجل ذلك لم يسترد في إقضاء مدن بأسرها والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحدا حين يرفضون الاستجابة لدعوته<sup>(٥)</sup> وفي هذا الوقت الذي ظهر فيه الصفويون كان البرتغاليون يلتفون حول أفريقية ويدخلون المحيط الهندي ، ولما اتصلوا بشيعة إيران لم يجدوا صعوبة في التعاون معهم من أجل القضاء على الأساطيل العربية ، واحتلال سواحل الخليج ، وتصفية الحكم العربي أينما وجد ، وغزو الجزيرة العربية<sup>(٦)</sup> في نظير مساعدة البرتغاليين للشاه في اخماد ثورة مكران<sup>(٧)</sup>

١- د. أحمد محمود السادتي : تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩ ص ١٥٢ .

٢- الإمام السابع عند الامامية الجعفرية هو موسى الكاظم .

٣- عبد العزيز نوار : الشعوب الإسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣ ص ٢٢٠-٢٢١ .

٤- أرنولد توينبي : تاريخ البشرية ج٢ ، ترجمة نقولا زيادة ، بيروت ، الأهلية للنشر ١٩٨٨ ص ١٨٨ وأيضاً د. عبد الله محمد غريب وجاء دور المجوس - الأجداد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية ، القاهرة ، دار الجيئيل للطباعة ١٩٨١ ص ٨٠ .

٥- السادتي : المرجع السابق ص ١٥٢ .

٦- كان من أهداف غزو الجزيرة العربية قيام البرتغاليين بالاعتداء على مكة والمدينة ولكن الله حمى بيته الحرام ومشوى رسوله الأمين .

للتفاصيل انظر ل. هـ. تويرير : الكويت في ذلك الخليج ، الكويت ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ١٩٨١ ص ١٠ .

٧- أمين سمود : الخليج العربي في تاريخه السومسي ونهضته الحديثة ، بيروت ، دار للكتب العربي ص ٢٩ .

ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السنّي فقد وجدوا في الدعوة الصفوية الشيعية تحدياً أساسياً لهم ، وخطراً على مستقبلهم وخصوصاً أن الشاه إسماعيل الصفوي بدأ يمد نفوذه على العراق وعلى مناطق الأوزبك<sup>(١)</sup> وشرق الأناضول ، ويرسل منات الدعاة لنشر المذهب الشيعي هناك<sup>(٢)</sup> حتى لقي هذا المذهب استجابة واسعة في هذه المناطق<sup>(٣)</sup> . ونتيجة لذلك غير السلطان سليم الأول - الذي تولى العرش بتأييد من الانتكشارية باعتباره منقذاً للإمبراطورية العثمانية من الخطر الشيعي - خطة أسلافه بالتوسع شطر شرق أوروبا إلى جنوبى الأناضول لمقاتلة الصفويين ووقف المد الشيعي تجاه بلاده ، فأعلن سليم الأول الحرب على الصفويين ، وزحف بجيوشه من مدينة أدرنة في ٢٢ من المحرم ٩٢٠ هـ ، الموافق ١٩ من مارس ١٥١٤م قاصداً مدينة تبريز ، ولكي تنهك قوات الشاه إسماعيل الصفوي قوى العثمانيين بدأت تتقهقر أمامهم في محاولة لاستدراجهم<sup>(٤)</sup> . واستمر الصفويون في تقهقرهم حتى دارت المعركة الحاسمة بين سليم الأول والشاه إسماعيل الصفوي في وادي شالدران (جبالديران) في ٦ من رجب ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م وانتهز الفرس وانتصرت الجيوش العثمانية<sup>(٥)</sup> ، بعد معركة فاصلة وصفها أحد المعاصرين بقوله كان بينهما هناك وقعة مهولة تشيب منها النواصي ، وتذهل العقول عند سماعها من كل دان وقاص ، فصيرت الرؤوس عن الأجساد طائرة ، وطفشت<sup>(٦)</sup> العساكر بالخيول الغائرة ، ووقع القتل بالسيف حتى أجرى الدماء منهم كالسيل .. فبها لها من ساعة مهولة ، لا ترضى الله ولا رسوله ، ف وقعت الكسرة على عساكر ابن عثمان أولا وقتل من عسكره ما لا يحصى عددهم ... فلما عاين ابن عثمان ما وقع له من هذه الكسرة .. قام على عسكره وحضهم على القتال .. فانكسر الصفوي وولى

- ١- كان الأوزبك يحكمون بلاد ما وراء النهر التي تضم التركستان وبخارى وسمرقند .
- ٢- أحمد عبد الرحيم مصطفي: في أصول التاريخ العثماني ، بيروت ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ص ٧٧ .
- ٣- عبد العزيز تشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها جـ١ ، القاهرة ، الأجلو المصرية ص ١٩ .
- ٤- محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية - تحقيق إحسان حقى ، بيروت ، دار التفات ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ص ١٩٠ .
- ٥- عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية مدحت باشا ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ص ٦ .
- ٦- كلمة علية بمعنى قرت .

مهزوما وقتل من عسكره أضعاف ما قتل من عساكر الروم<sup>(١)</sup>. وفر الشاه بعد أن أصابته بجروح ، ووقع كثير من قواده وجنده في الأسر وأسرت أيضا إحدى زوجاته ، وفتحت المدينة أبوابها ودخلها السلطان منصورا في ١٤ من رجب ٩٢٠ هـ واستولى على خزان الشاه وأرسلها إلى القسطنطينية<sup>(٢)</sup> وقطع رؤوس من قتل من أمراء أعدائه وأرسلها إلى بلاده فطافوا بها هناك<sup>(٣)</sup> ، ولكن سليما لم يشأ أن يتابع تقدمه إلى ما وراء تبريز نظرا لامتناع الانكشارية عن التقدم لاشتداد السبرد ، وصعوبة المسالك ، وقلة المؤونة اللازمة فقفل راجعا إلى بلاده مكثفيا بكبح جماح الفرس<sup>(٤)</sup> ، وخشية ثورة الانكشارية عليه .

ونتيجة لمعارك السلطان سليم مع الصفويين يتضح ما يلي :

- ١- نجاح العثمانيين في الحد من نشر المذهب الشيعي في الأناضول والبلاد العربية حيث منعوا زحف المذهب الشيعي على الشرق العربي الآسيوي ومصر ، واستأصلوا هذا المذهب من الأناضول<sup>(٥)</sup> .
- ٢- استثمار أوروبا لهذه الخلافات ومحاولتها التسلل إلى الشرق الإسلامي ، ومدها للفرس بالأسلحة الحديثة ليحاربوا بها العثمانيين بغية الحد من زحفهم المتواصل على أوروبا<sup>(٦)</sup> .
- ٣- استيلاء العثمانيين على ديار بكر ، ومد سلطانهم على الأجزاء الشمالية من العراق
- ٤- هز كيان الموالين لإيران وزعزعة نفوذهم<sup>(٧)</sup> .

١- محمد بن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج٤ ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ص ٤٠٢-٤٠٣ .

٢- محمد فريد : المرجع السابق ص ١٩٠ .

٣- ابن إياس : المصدر السابق ص ٤٠٣ .

٤- الشنقوي : المرجع السابق ج١ ص ٢٤ .

٥- السادتي : المرجع السابق ص ٢٥٢ .

٦- مجموعة الأساتذة : العراق في التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٣ ص ٥٦٨ .

#### ثانيا : الأتراك العثمانيون :-

ينتمي العثمانيون الأوائل إلى إحدى عشائر قبيلة الغز التركية ، والتي تعترف باسم قابي ، وقد هاجرت هذه القبيلة من المشرق إلى الأناضول في القرن الثالث عشر الميلادي هربا من جنكيزخان ووصلت إلى آسيا الصغرى وبعض شواطئ البحر الأسود وأرمينيا حيث التجأت إلى السلاجقة المسلمين قحموهم وأقطعوهم أراضي لمواشيهم . وكانوا يعتمدون في حل ما يواجههم من مشكلات على زعيمهم عثمان الذي ولد على حسب الروايات التاريخية في عام ١٢٥٨م ، ولما كانت الحروب الصليبية قد دارت رحاها في ذلك الوقت فقد تطوع عثمان مع بعض رجاله لنصرة بعض سلاطين السلاجقة ، وأظهر شجاعة وحسن دراية فاستدعى ذلك مكافأته وتقديره ، فعين حاكما على إحدى المقاطعات ، وبعد وفاة السلطان السلجوقي أعلن عثمان استقلاله<sup>(١)</sup> ، وبسقوط دولة السلاجقة على يد المغول الإيلخانيين تمكنت الإمارة من استقطاب عدد من الإمارات التركية المسلمة في الأناضول وهي الإمارات الناشئة على نقاض دولة السلاجقة واستأنفت توسعها غربا فأتجهت منذ سنة ١٣٤٥م إلى أوروبا الشرقية فاستولت على أجزاء كبيرة منها وتوجت أعمالها العسكرية في عهد محمد الفاتح بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م . وما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت الدولة العثمانية تشمل الأناضول واليونان وشبه جزيرة البلقان وجزائر بحر إيجه وجزيرة في جنوب إيطاليا<sup>(٢)</sup> . وفي عهد السلطان سليم الأول ١٥١٢-١٥٢٠م اتجهت الفتوحات نحو الشرق ، بعد تحديات الشاه إسماعيل الصفوي لأهل السنة والجماعة ، فدفع ذلك سليما إلى العمل على مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام . ولم يكن السلطان سليم يرى كبير فرق بين الشاه إسماعيل وجنده ، وبين أي من حكام أوروبا في عدائهم للإسلام ، خصوصا أن الشاه رسم سياسته التوسعية على أساس التحالف مع البرتغاليين . ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السني فقد اتخذت عملياتهم العسكرية ضد الصفويين شكل التدمير والقسوة البالغة<sup>(٣)</sup> ، وانتهت بانتصارهم في جالديران ودخول تبريز عاصمة الصفويين ،

١- ميخائيل مشاقفة : مشهد الميان بحوادث سوريا ولبنان ، القاهرة ، ١٩٠٨م ص١٩ .

٢- العراق في التاريخ ص٥٦٦-٥٦٧ .

٣- أكرم العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠٠-١٥٢٠م ، دمشق ، المتعددة للتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ص٣٦٨ .

وزعزعة النفوذ الإيراني في المنطقة ، وهز كيان المواليين لهم<sup>(١)</sup> . وبعد خروج الصفويين من حلبة الصراع بدأ السلطان سليم بوجه جهوده لاختضاع المماليك ، وإعداد العدة لتوحيد الجبهة الإسلامية .

ثالثاً : المماليك : -

جلب المماليك من مناطق عدة من أبرزها شبه جزيرة القرم وتركستان وبلاد القوقاز والقفقاز وآسيا الصغرى وفارس والبحر الأسود<sup>(٢)</sup> ، وكان ذلك بطريق الشراء من أسواق النخاسة<sup>(٣)</sup> .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب أول من اشترى المماليك بشكل مكثف واتخذ منهم جنداً بأعداد كثيفة ، وبعد وفاته أفلت زمام الأمور من الأيوبيين وتمكن المماليك من السيطرة على زمام الموقف والقضاء على توران شاه الوريث الشرعي للحكم . وقد حكم المماليك العديد من البلدان الإسلامية وبخاصة مصر والشام والحجاز ، واستطاعوا حماية ديار الإسلام من المغول الذين تمكنوا من القضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد في عام ٦٥٦ هـ ، كما تمكنوا من الثبات أمام قوى الصليبيين الذين حكموا العديد من بلاد الشام لفترة ثم أخرجوهم منها .

ونتيجة لحركة الكشوف الجغرافية وتحويل طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح بدأت أحوال المماليك في التدهور والضعف بشكل مكن البرتغاليين من هزيمتهم في موقعة ديو البحرية في عام ١٥٠٩م والاستيلاء على بعض المناطق الاستراتيجية في البحر الأحمر وتهديد الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز وفي خلال ذلك كانت العلاقات المملوكية مع العثمانيين جيدة ، لدرجة أن قام العثمانيون بمساعدة المماليك لتقوية أسطولهم البحري حتى يتمكن من مواجهة البرتغاليين ، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً فبعد انتصار السلطان سليم العثماني على الصفويين بدأ في التحرش بالمماليك حيث

١- العراق في التاريخ ص ٥٦٨ .

٢- للتفاصيل انظر أبو قمر بن القشندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج ٤ ، القاهرة ، ١٩٢٢ ص ٤٤٧ .

٣- كان بالقاهرة أسواق لهذا الرقيق تعقد في خان الخليلي ، وكان للسلطين عمال يختارون لهم ما يناسبهم من العنصر كما كان الأمراء والوزراء والقضاء يختارون من شاءوا منهم أنثا وذكر فيذهبون بالإنجاب منهم إلى المدارس يلتقونهم أصول الدين والعلم ثم يدرسونهم على فنون الحرب وقادة الجند .

دمر إمارة "البستان"<sup>(١)</sup> الواقعة تحت حمايتهم ، وحشد قواته في مواجهتهم وخاصة أنفسهم قاموا بإيواء النافرين عليه ومنهم الأمير جم ابن السلطان محمد الثاني الذي كان يرى نفسه أحق من السلطان سليم بالحكم ، ورفضوا تسليم اللاجئين إليهم .

وبعد أن أرسل السلطان سليم الأول في يونيو ١٥١٦م برسالة مهينة إلى السلطان قنصوة الغوري يطالبه فيها بأن يلاقيه عند مرج دابق ، أخذ الغوري في الاستعداد لملاقاة العثمانيين ، وطلب من مماليكه الاستعداد للمعركة ومن قوله في هذه الشأن "والذى منكم متزوج يطلق زوجته حتى لا يبقى وراءكم التفاتة إذا سافرت في التجريدة"<sup>(٢)</sup> كما طلب من الخليفة العباسي في مصر محمد المتوكل الاستعداد للسفر معه .

ومضى الغوري على رأس جيشه إلى بلاد الشام ، وأتاب عنه طومان باي في مصر ، ووصل الغوري إلى حلب في يوليو ١٥١٦م ، وحدث قتال شديد بين الطرفين انتهزم فيه العثمانيون في بداية الأمر لدرجة أن هم السلطان سليم بالهرب وخاصة بعد أن قتل من عساكره ما يزيد عن عشرة آلاف<sup>(٣)</sup> ولكن سرعان ما لعبت الخيانة دورها فقد أطلق "خاير بك" نائب حلب - الذي استطاع السلطان العثماني رشوته وضمه إلى صفوفه - بعض الشائعات بين صفوف الممالك بهدف إحداث الفرقة بينهم ومنها أن السلطان المملوكي أيعد مماليكه الجلبيان عن قلب المعركة ، وترك لجنود القرائصة وقودا للحرب ومنها أن السلطان الغوري قتل في أثناء المعركة فتبليت الأفكار ، وشاع الذعر في صفوف الممالك لدرجة أن اضطربت أحوالهم وأخذ بعضهم في الفرار ، ولم ينجح الغوري في السيطرة على الموقف وأقلت منه الزمام ونتيجة لعدم تحمله لصدمة الهزيمة انقلب من فوق جواده على الأرض فاقد الوعي<sup>(٤)</sup> وداسته سنايك خيول العثمانيين المندفعة وراء الممالك المتقهقرين ، فلما رأى ذلك أمراؤه القريبون منه خشوا أن يقع في أسر العثمانيين فيقتلوا رأسه عن جسده ، ويطوفوا بها في بلادهم فقرروا قتله بأنفسهم فقطعوا رأسه ورموها في جب وأخذوا جثته وألقوها في نهر قريب<sup>(٥)</sup> .

١- لهذه الإمارة أسماء أخرى منها ذو القادر .

٢- للتفاصيل انظر ابن ايس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج٣ ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق الطبعة الأولى ١٣١٢هـ ص ٥ .

٣- ابن ايس : المصدر السابق ج٣ ص ٤٧ .

٤- ابن زنيل : تاريخ السلطان سليم مع قنصوة الغوري ، جزءان ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨ .

٥- ابن زنيل : ص ٥٠ .



وانتهت معركة مرج دابق التي لم تستمر سوى يوم واحد وذهب ضحيتها الآلاف من الطرفين بتغيير الأوضاع في العالم الإسلامي فاستولى العثمانيون على بلاد الشام وبدأوا في التآهب للسيطرة على مصر .

ويرجع أسباب هذا الانتصار إلى عوامل عدة من أهمها :

١- تفوق القوات العثمانية في سلاح المدفعية الذي لا يمتلكه المماليك .

٢- خيانة خاير بك نائب السلطان الغوري في حلب .

٣- الوقعة بين المماليك الجلبان والقرائصة عند احتدام المعارك .

وقد دخل السلطان سليم حلب دون مقاومة ، فأمن أهلها على أرواحهم وأولادهم

وأموالهم<sup>(١)</sup> ، كما دخل دمشق وغيرها من المدن السورية .

وعادت قلوب الجيش المملوكي إلى مصر وهم في أسوأ حال فكاتبوا ممزقي الثياب ، تحيلى الأجسام . وبعد أن وصل نواب الهزيمة إلى القاهرة اجتمع المماليك لاختيار سلطان جديد يتولى أمور البلاد . واستقرت أمور البلاد في النهاية على اختيار "طومان باي" . ولما تردد طومان باي في الأمر خشية الغدر به قام الأمراء بالقسم على المصحف ألا يغدروا به أو يثيروا فتناً ضده<sup>(٢)</sup> .

وبعد أن علم "طومان باي" بزحف السلطان سليم على مصر ، ووصوله إلى غزة نادى المماليك بالخروج من غير تأخر ، فخرج العسكر مسرعين ، ووقعت معارك عنيفة انكسر فيها المماليك ثم أخذ طومان باي في إعادة تجميع صفوفه عند الريدانية (بالقرب من العباسية) . ولما أقبلت العساكر العثمانية التقى معها المماليك في معركة مهولة انتهت بهزيمتهم وانكسارهم<sup>(٣)</sup> .

ودخل العثمانيون القاهرة بالسيف عشوة في يوم الجمعة الموافق ٢٣ من يناير ١٥١٧م وخطب للسلطان سليم على منابرهما . مع ذلك لم يستسلم طومان باي فقد أخذ يعد العدة للمقاومة واشتبك مع العثمانيين في عدة معارك ولما لم يتمكن من الظفر بهم احتفى عند أحد مشايخ العربان ولكن الشيخ الذي احتفى عنده تنكر له وسلمه للسلطان سليم فأمر بإعدامه .

١- القرماني : أخبار الدول وآثار الدول ، القاهرة ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٢٦ ص ٩٩ .

٢- ابن أبيس : المصدر السابق ج ٣ ، ص ٦٩ .

٣- ابن أبيس : المصدر السابق ج ٣ ، ص ٩٧ .

ويذكر ابن إياس أن طومان باي طلب من الناس في أثناء ذهابه إلى المشتقة أن يقرأوا عليه "الفاتحة ثلاث مرات ثم يسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ثم قال للمشاعلي اعمل شغلك ... فلما شق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف<sup>(١)</sup> .

وبإعدام طومان باي انتهت سلطنة المماليك على مصر ، كما انتهت من قبيل على الشام بمقتل الغوري ، وخضعت البلاد حوالي أربعة قرون تحت السيادة العثمانية . أما عن الحجاز فقد خضعت سلما للعثمانيين . فقد أرسل الشريف بركات ابنه أبياتمي إلى السلطان سليم بالقاهرة ليهنئه بانتصاره على المماليك وحكم مصر وليعلن الولاء للعثمانيين فثبته السلطان سليم على شرافة مكة ، وجعله المتصرف في أمورها ، كما أضاف إليه أمور الحسية بمكة أيضا<sup>(٢)</sup> .

### نظام الحكم العثماني في العالم العربي

ارتكز نظام الحكم العثماني في العالم العربي على أربعة أمور أساسية هي :

- ١ - الإبقاء على أحوال العالم العربي الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والتركيبية السكانية كما هي قبل الفتح العثماني لها ، فلم تحاول الدولة العثمانية مثلاً صيغ أهل الولايات العربية التابعة لها بالصيغة العثمانية أو يربطهم برباط الحضارة العثمانية<sup>(٣)</sup> ، كما لم تحاول فرض اللغة التركية عليهم بدلاً من العربية .
- ٢ - عزل العالم العربي عزلاً يكاد يكون تاماً عن التيارات الاقتصادية والسياسية العالمية بحيث لا يتأثر بما يدور في العالم الخارجي .
- ٣ - كان المجتمع في نظر العثمانيين عبارة عن قسمين : الأتراك وهم الحكام الذين يتمتعون بكافة الامتيازات ، والرعية وهم المحكومون الذين يتخسّم عليهم خدمة الحكام والاستجابة لمطالبهم .

١- ابن إياس : المصدر السابق ص ١١٥ .

٢- ابن إياس : المصدر السابق ج ٣ ، ص ١٢٤-١٢٦ .

٣- محمد رفعت ومضيان : علي بك الكبير ، القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٠ ص ٦ .

وقد أدى انعزال الطبقة الحاكمة التركية عن الأهالي وتعالى أفرادها عليهم إلى ضائقة تأثير الحكم العثماني<sup>(١)</sup>.

٤- إن فكرة الحكم عند العثمانيين كانت تركز على أن للدولة وظائف محددة ، ومسئوليتها لا تخرج عن المحافظة على سيادتها ومصالحها في هذه الولايات أما عن الخدمات العامة مثل التعليم والصحة فاتها لا تدخل ضمن مسئوليتها أو اختصاصاتها ، ومن هنا تحددت مهام الدولة العثمانية فيما يلي :

١- الدفاع عن الولايات التابعة للدولة وحفظ الأمن فيها .

٢- جمع الأموال وإنشاء إدارة مالية خاصة بذلك .

٣- إقامة نظام قضائي للفصل في المنازعات التي تحدث بين الأهالي .

وعلى هذا النحو ارتكزت فلسفة الحكم العثماني على عدة أنظمة كان أهمها :

الوالي - الديوان - الحامية العثمانية - العصبية المحلية<sup>(٢)</sup> ، وفيما يلي نعرض لذلك :

أولا : الوالي :

كان السلطان العثماني يعين الوالي بصفته نائباً له في الولاية التي يحكمها وكان يلقب بعدة ألقاب منها لقب الباشا وقد وكلت إليه السلطان المدنية والعسكرية ومسئولية جمع الضرائب ، فكان على رأس الجهاز الإداري وكان يقود الجيوش بنفسه<sup>(٣)</sup> ، ويبلغ الرعايا بأوامر السلطان ويقوم بإرسال المقررات المفروضة على ولايته إلى الخزائنة السلطانية ، ومع كل ذلك فإنه نظراً لشكوك السلاطين في ولايتهم وعدم الثقة فيهم وخشيتهم من الانفصال بولاياتهم عن الدولة العثمانية ، فقد أحباط السلاطين السيادة بجواسيسهم وعمالهم ، وأخذوا ينتزعون منهم العديد من اختصاصاتهم ، فتركزت النواحي المالية في يد الدفتردار الذي كان يعين رأساً من القسطنطينية ، وتركزت النواحي الإدارية في يد الكتخدا أو الكرخا الذي كان تعيينه يتم بالقسطنطينية ، وكانت السلطة القضائية ينفردها قاضي القضاة الحنفي الذي كانت ترسله القسطنطينية ، وإلى جانب

١- محمد أبيس : حضارة مصر الحديثة ص ١٤٤ .

٢- محمد عبد المتعم الرفاد: الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٦٨ ص ٢٦٨ .

٣- اميرة قنداح: العثمانيون والامام القاسم محمد في اليمن ، جدة ، مكتبة نهضة ١٩٨٢ ص ١٤٨ .

ذلك كانت الحاميات العثمانية (الأوجاقات) تخضع لسلطة الأغوات الذين لم يكن للوالى سلطات عليهم<sup>(١)</sup> ، وكثيرا ما حدثت النزاعات بينهما. يضاف إلى ذلك أن مدة حكم الولاية كانت تقتصر على عام واحد يتجدد في بعض الحالات ولا يستكمل في حالات أخرى . ونتيجة لذلك حرص الولاية على جمع كل ما يمكن جمعه من الأموال خلال فترة حكمهم ، ويشتمل الطرق + مشروعة وغير مشروعة ، ومحاولة ملء خزانهم خلال تلك الفترة القصيرة التي يقضونها في ولاياتهم وخاصة أنهم كانوا يشترون مناصبهم قبل توليتهم إياها . هذا بالإضافة إلى إهمالهم للمشروعات العمرانية والإصلاحية مثل: حفر السترع أو إقامة السدود أو غيرها<sup>(٢)</sup> .

#### ثانيا : الديوان : -

الديوان كلمة فارسية بمعنى الدفتر أو السجل ، وقد أطلق على المكان أو الدائرة التي تحفظ فيها السجلات من باب المجاز<sup>(٣)</sup> ، ثم شمل بعد ذلك المكان الذي يحفظ فيه كل ما يتعلق بحقوق السلطنة العثمانية من الأموال والأعمال ومن يقوم بها من العمال والجيش وكان الديوان ينقسم إلى قسمين : الديوان الكبير وهو الذي يقصل في الموضوعات المهمة ، ولا يجتمع إلا بأمر الباشا ، والديوان الصغير وكان يتألف من الكتخدا والدفتردار وهو الذي ينظر في شئون البلاد العامة ، وينفذ الباشا قراراته<sup>(٤)</sup> . ويتكون الديوان الكبير من كبار ضباط الحامية وعلى رأسهم أغا الإنكشارية والدفتردار والعلماء وكبار المسئولين ، وكانت العضوية في الديوان غسيرة ثابتة ، وكان الباشا في معظم الأحيان هو الذي يختار أعضاؤه . وكان للديوان تأثير كبير في إدارة الولايات<sup>(٥)</sup> فكان بمثابة مجلس وزراء موسع

- ١- محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٤٤ .
- ٢- لتفاسيل انظر محمد كرد علي : خطط الشام ج ٢ ، بيروت ، النهضة العربية ١٩٧٢ ص ٢٢٥ .
- ٣- صبحي الصالح : القلم الإسلامية ج ٢ ، بيروت ، دار العلم ، الطبعة الأولى ١٩٩٦ هـ ص ٣١٢ .
- ٤- محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهر محمد علي ، القاهرة ، مطبعة المعارف ١٩٦٣ ص ١١-١٠ .
- ٥- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين ومخير العليكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٩ ص ٤٧٧ .

مهمته الرئيسية مراقبة قرارات الوالى والنظر فى الشئون الاقتصادية والادارية ، وتنظيم شئون القوات العسكرية .  
ونتيجة لخشية الدولة العثمانية من تمرد ولايتها عليها والاستقلال بولاياتهم جعلت من أعضاء الديوان عيوناً لها على الولاة يبلغونها بتصرفاتهم لمنع الولاة من إساءة استعمال سلطاتهم .

#### ثالثاً : الحامية العثمانية : -

هى قوة عسكرية عثمانية كانت ترابط فى الولايات وقد أسست هذه الحاميات فى أعقاب الفتوحات العثمانية للوطن العربى ، فبعد أن فتح السلطان سليم الأول مصر ترك بها حامية تتألف من حوالى اثنى عشر ألف جندي يتكون منها ستة أوجاقات على رأس كل منها آغا ، وكانت هذه الحامية تتكون من أخلاط مختلفة من العسكر<sup>(١)</sup> .  
وكانت مهمة الحاميات : حفظ النظام والدفاع عن الولايات ضد أى خطر خارجي، وقمع العربان . كما كان لها اختصاصات سياسية وادارية ؛ فكان رؤساؤها يشاركون الوالى فى الحكم كما كانوا يحضرون اجتماعات الديوان ، وكانت لهم الكلمة المسموعة . وإلى جانب ذلك كانوا يقومون بتوصيل الخراج إلى الآستانة وكثيراً ما حدثت الخلافات بينهم وبين الوالى ، وكان التفوق فى الفترة الأولى من الحكم العثماني للوالى ، ثم استطاع رجال الحامية بعد ذلك أن يسيطروا على زمام الأمور .  
وعندما دب الضعف فى الدولة العثمانية ضعفت الحاميات فى الولايات وفسد أمرها ، ولم تعد صالحة لاستتباب الأمن ، بل تحول أفرادها إلى السلب والنهب والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أن الحامية فى بلاد الشام كانت من أهم أدوات التخريب ، فقد خرج جنودها عن اختصاصاتهم وكثر اعتداؤهم على الأهالى وتطاولوا على أموالهم وأعراضهم وكثرت شرورهم<sup>(٢)</sup> .  
وفى عدن ثار الأهالى ضد تسلط الحامية العثمانية وغدروا بأميرهم عامر الطاهري ، فاضطرت الآستانة إلى أن ترسل أسطولاً بحرياً لم يتمكن من السيطرة على الموقف إلا بصعوبة<sup>(٣)</sup> .

١- للتفاصيل انظر الرائد : المرجع السابق ص ٢٧٦-٢٧٧ .

٢- محمد كرد على : المرجع السابق ص ٢٢٥ .

٣- فاروق أيلانقة : الحكم العثماني فى اليمن ، بيروت ، دار العودة ١٩٧٩ ص ٢٠ .

وفى تونس أعلن الجنود عصيانهم ، وهددوا النظام باعتدائهم على الأرواح والممتلكات .  
وفى مصر ركنت الحامية العثمانية إلى حياة الاستقرار واندمجت فى الشعب المصوى ، وتركت حياتها العسكرية لدرجة أن الحملة الفرنسية حينما هاجمت مصر فى أواخر القرون الثامن عشر لم تجد من يتصدى لها سوى المماليك وجموع الشعب المصرى<sup>(١)</sup> .

#### رابعاً : العصبية المحلية : -

كان هدف العثمانيين من إشراك العصبية المحلية فى الحكم هو الاستفادة منهم فى إدارة الولايات التى يحكمونها وحتى يظلوا على ولايتهم للدولة العثمانية ولا يقوموا بالتمرد عليها . ونتيجة لذلك شارك المماليك فى تولي مقاليد بعض الأمور فى مصر ، كما شاركت بعض العشائر العربية فى الشرقية والبحيرة فى حكم المناطق التى تقطنها ، واعترف السلطان العثمانى بالعصبية الكردية وأبقى حكم كردستان للبيوتات الكردية الحاكمة فى شمال العراق ، كما ترك لمشايخ العراق سلطة إدارة عشائرهم ، ومن أهم هذه المشيخات مشيخات الخزاعل والعبيد وشمرو والمنطق<sup>(٢)</sup> .

والسؤال المطروح هو هل ظلت هذه العصبية على ولايتها للدولة العثمانية أو تحينت الفرص للتخلص من الحكم العثمانى واستقلالها عنه ؟

الواقع أن هذه العصبية كانت غالباً ما تتطلع إلى استرجاع نفوذها القديم ، ومن هنا أخذت فى استغلال فرص الشغل الدولة العثمانية بمشكلاتها الخارجية والداخلية ؛ وفى مصر استطاع على بك الكبير المملوكى القيام بثورة ضد الدولة العثمانية فى عام ١٧٧١م والاتصال عنها ، ولم يستطع العثمانيون السيطرة على زمام الموقف إلا بعد الواقعة التى دبروها بين على بك وقائده محمد أبو الذهب .

وفى اليمن استطاعت العصبية المحلية القيام بثورات متعددة ضد الحكم العثمانى ، تمكنت خلالها من تهالك جيوش الدولة العثمانية حتى اضطرتها إلى الجلاء عن اليمن لفترة<sup>(٣)</sup> .

١- الراشد : المرجع السابق ص ٢٧٨-٢٨٠ .

٢- عبد العزيز نوار : دود باشا والسى بغداد ، القاهرة ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦١ ، ص ١٩ .

٣- للتفاصيل انظر : فاروق أباطة : المرجع السابق ص ٤١٥ .

وفي وسط الجزيرة العربية قامت الدعوة السلفية التي دعت إلى العودة بالإسلام إلى مبادئه الأولى وألقت بتهمة نشر البدع والخرافات في العالم الإسلامي على العثمانيين. وفي العراق قامت العصبيات المحلية بالعديد من الثورات ضد الحكم العثماني مثل ثورة آل مهنا في جنوب العراق وآل شعيب في البصرة ، والعشائر الكردية في كردستان<sup>(١)</sup>. وفي الشام قامت أسرة آل العظم ، وظاهر العمر بمحاولات للاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية في استنبول .

ومع كل ذلك فإن خروج هذه العصبيات المخفية على السلطنة لم تقلق الدولة العثمانية كثيراً وخاصة أنها كانت تستطيع الانتظار حتى تحين الفرصة المناسبة فتستعيد نفوذها وعلى سبيل المثال نذكر على بك الكبير وظاهر العمر اللذين استغلا فرصة التثفل «تمتانيين في حروبهم مع روسيا ونجحا في الانفصال عن الدولة ورفع راية العصيان ضدها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ثم ما لبثت الدولة أن استرجعت نفوذها على المناطق التي كانوا يحكمونها بعد انتهائها من الحرب .

### أحوال العالم العربي في ظل الحكم العثماني

بعد أن سيطرت الدولة العثمانية على العالم العربي في معظمه ، وصارت الدولة الإسلامية الوحيدة في المنطقة تقريبا ، تحول العالم العربي إلى منعطف جديد في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفيما يلي نعرض لذلك .

١- نوار : المرجع السابق ص ٦٨-٦٩ .

#### أولاً : الأحوال السياسية :

##### ١ - انتقال مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة :

بعد هزيمة المماليك أمام العثمانيين انتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة<sup>(١)</sup>، واتخذ السلطان سليم الأول لقب الخليفة ليضمن ولاء العرب والمسلمين له على اعتبار أن الخليفة هو في الواقع خليفة رسول الله وأنه يجب على المسلمين طاعته .

##### ٢ - العثمانيون والأماكن المقدسة :

أضفت الدولة العثمانية حمايتها على الأماكن المقدسة لما لها من أهمية دينية ، وحمل السلطان العثماني ألقاب حامى حرمين الشريفين ، وخادم الحرمين الشريفين، وهو لقب يكسب من يحمله احترام المسلمين وتقديرهم<sup>(٢)</sup> . وكان السلطان سليم الأول قد اتخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة ليلبغ السلطان العثماني ولاءه واعترافه بالسيادة العثمانية على الحجاز ، وتمسك السلاطين العثمانيون منذ ذلك الوقت بهذا اللقب الديني<sup>(٣)</sup> . ولحماية الأماكن الإسلامية المقدسة من أخطار البرتغاليين الذين حاولوا أكثر من مرة النيل منها أغلق العثمانيون البحر الأحمر ، وحولوه إلى بحيرة إسلامية<sup>(٤)</sup> .

##### ٣ - عدم إشراك العناصر العربية في حكم بلادها :

ركزت الدولة العثمانية سياستها على أن يبقى العالم العربي في حوزتها أطول مدة ممكنة ، ولذلك لم يسمحوا للعناصر العربية في حكم بلادها ، بل قاموا بنشر عوامل الصواع بينها حتى تتشغل عن التفكير في السلطة يضاف إلى ذلك أن الحكم العثماني كان مركزياً ، فكان السلطان هو السلطة العليا المسيطرة على كافة الأجهزة السياسية والإدارية والعسكرية ، وكان السلاطين يرون أن الولايات العربية وما عليها هي من أملاكهم الخاصة ، ولهم حق التصرف فيها على أية صورة ، ولم يكن يهم الدولة سوى جمع الأموال والحاصلات التي صارت نهياً لها ولأتباعها<sup>(٥)</sup> .

١- الراقد : المرجع السابق ص ٢١٦-٢١٤ .

٢- الراقد : المرجع السابق ص ٢٢٨-٢٢٩ .

٣- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها ج ١ ص ٦٦ .

٤- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٥ ص ١٤٤ .

٥- الراقد : المرجع السابق ص ٢٦١-٢٦٥ .



٤ = عدم إشراك العرب في الدفاع عن بلادهم :  
بعد الفتح العثماني للعالم العربي صار الدفاع عن الولايات العربية ضد أية اعتداءات خارجية من اختصاص القوات العثمانية فأفقد ذلك المواطنين العرب الإحساس بقدرتهم على حماية بلادهم<sup>(١)</sup>.

ثانيا : الأحوال الاقتصادية :  
أبقى العثمانيون النظم الاقتصادية القائمة على النظام الإقطاعي قبل حكمهم الولايات العربية كما هي .

وقد عنى السلطان سليم الأول بمسح الأراضي في مصر والشام ، وخصص مقداراً منها للأجناد ومقداراً للنفقات الوالي ومقداراً للسناجق وما عدا ذلك سمي بالأراضي الديوانية أي التابعة للديوان الأعظم بالأسنانية . وقد عد السلطان العثماني نفسه مالكا لكل الأراضي الزراعية ، ورأى أن أصحاب الأراضي لا يملكونها بل لهم حق الانتفاع بها فقط ، ونتيجة لذلك أصبحت الأراضي تزول عند موت صاحبها إلى الدولة ، إلا أن ورثته يستطيعون ردها إلى حوزتهم إذا دفعوا مبلغاً من المال للدولة . غير أن ذلك الوضع أخذ يتبدل بمرور الزمن وبخاصة بعد ازدياد نفوذ بكوات المماليك ، وتمكنهم من تقسيم معظم الأراضي في مصر بينهم فألت إليهم ملكية ثلث ما يزرع من الأرض ، ووزع الباقي بين الفلاحين والمسلمين والأوقاف<sup>(٢)</sup>.

وقد قام العثمانيون باتباع طريقة المماليك في تحصيل الأموال على الأراضي ، باتباع نظام الالتزام بالمزايدة ، وذلك بأن يتعهد الملتزم بدفع مقدار محدد من المال كل عام عن مساحة محددة من الأرض على أن يحصل من الفلاحين العاملين في هذه الأرض كل ما يستطيع من أموال ، وإذا هرب الفلاح وقت تحصيل الضرائب تصدر ضده عقوبات صارمة . وقد استخدم الولاة سلطاتهم لجمع كل ما يمكن جمعه من الأموال دون الاهتمام بأي إصلاح اقتصادي ، فادى ذلك إلى تدهور الزراعة والتجارة والصناعة وزاد الطين بلة تحول طرق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح .

١- أنيس : المرجع السابق ص ١٤٥ .

٢- عمر عبد العزيز : دراسات في تاريخ مصر الحديث ، الاسكندرية ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ص ١٥٤ .

### ثالثا : الأحوال الاجتماعية :

نظر العثمانيون إلى المجتمع على أنه ينقسم إلى قسمين : الحكام وهم الأتراك ، والمحكومين وهم الرعية ، وواجب القسم الثاني أن يعمل في خدمة القسم الأول لإمداده بما يحتاج إليه ، وبعبارة أخرى كان الأتراك يكونون داخل المجتمعات العربية طبقة أرستقراطية عزلت نفسها عن بقية أجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها وإحساسها بذاتيتها، فكان الحكم العثماني عديم التأثير في حياة الأهالي<sup>(١)</sup> ، وخاصة أن العثمانيين لم يشاركوا العرب في حياتهم الاجتماعية العامة ، ولم يهتموا باللغة العربية وبالعاش آدابها وعلومها ، كما لم يهتموا بعثمة البلاد فاحتفظ العالم العربي ببنائه الاجتماعي الذي كان سائدا فيه قبل الحكم العثماني ، فاحتفظت الطوائف الدينية الإسلامية باحترامها ، بصفتهم حماة الشريعة ، وقد نجحت هذه الطبقة في رد المظالم ، وكانت بمثابة حلقة الوصل بين الطبقة الحاكمة والمحكومة ، كما احتفظت الطبقات المنتجة من التجار والفلاحين وأصحاب الحرف بسماتها السابقة ، فكان لكل طائفة شيخ تخضع لسلطته ويتوب عنها لدى السلطات الحكومية ويتولى شئونتها ويدافع عنها ويقوم بحل المنازعات بين أفرادها ، ويعاقب كل من يخالف منهم عرف وتقاليدها عقوبات صارمة ، وكان منصب الشيخ وراثيا وكان لمشايخ الطوائف وكلاء يعرفون بأسم الثقباء<sup>(٢)</sup> . أما في الريف فكان شيخ القرية يقوم مقام شيخ الطائفة وكان الابن يرث أباه في مهنته سواء كان الأب فلاحا أو تاجرا أو صائغا ، أما البنات فتتزوج زميل والدها في الحرفة وقد أدى ذلك إلى تقوية الرابطة الاجتماعية وتوثيقها<sup>(٣)</sup> .

أما أهل الذمة فقد ظلوا على هامش الحياة الفكرية والسياسية في داخل المجتمع العربي وإن كانت لهم مشاركات في الحياة الاقتصادية بطريقة فعالة .

وعند تقييمنا للحكم العثماني في الوطن العربي يتضح ما يلي :

١ - أن الحكم العثماني كان ضعيفا في تأثيره على العالم العربي على الرغم من طول مدته التي تجاوزت أربعة قرون ، فلم ينجح العثمانيون في عثمة مصر ، بل ما حدث هو أن تمصر العثمانيون وأصبحوا جزءا من الحياة المصرية<sup>(٤)</sup> .

١- محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٤٩ .

٢- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ١٥٦ .

٣- أنيس : المرجع السابق ص ١٤٩-١٥٠ .

٤- نفسه ص ١٤٤ .

٢ - أن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ظلت جامدة وتدهورت الزراعة نتيجة لعدم الاهتمام بمراقبتها ، وتدهورت الصناعة واتحصرت في بعض صناعات بدائية ، كما تدهورت التجارة بسبب اضطراب الأمن ، وسوء طرق النقل ، وضعف القوة الشرائية<sup>(١)</sup>.

٣ - أن الحكم العثماني كان يستند في المقام الأول على رجال الدين الذين وقفوا بجانب الدولة العثمانية للاحتفاظ بنفوذها في الولايات العربية حيث كانوا يصرون على ضرورة الولاء العام للسلطان باعتباره حامى حسمى الإسلام .

٤ - ظهور المحلية : أى إن الأفراد كانوا يقومون بتنظيم أمور حياتهم بعيدا عن تدخل الدولة أو إشرافها ففي المدن كان الناس ينقسمون إلى طوائف حسب مهنتهم ووظائفهم الاجتماعية ، فالطائفة كانت تضم أصحاب المهنة الواحدة وعلى رأسها شيخ يتولى تنظيم شئونها والفصل في الخصومات بينها وبين الحكومة ، وفي الريف كانت كل قرية تمثل مجتمعا قائما بذاته يكاد يكون معزولا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للقرى الأخرى وبعبارة أخرى إن نظام الحكم العثماني تميز بضعف التدخل الحكومي ، وترك الأهالي وشأنهم في كل ما يتعلق بأمورهم<sup>(٢)</sup> ، وقد أدى ذلك في نهاية الأمر إلى عدم ولاء الفرد للدولة<sup>(٣)</sup>.

٥ - نجحت الدولة العثمانية في وقف الأطماع الأوربية في البلدان العربية لفترة من الوقت ، فقد أوقفت الخطر البرتغالي على البلدان العربية ، وامتدت فرنسا القديسس يوحنا وتمكنت من طردهم من ليبيا ، كما كسرت شوكة الإنجليز في غرب حوض البحر المتوسط .

٦ - اعتاد العثمانيون الأخذ ولم يعتادوا العطاء . فلم يهتموا بتحسين أحوال الولايات ، لذلك كان ينذر أن يصل من الاستانة رجل صالح في أخلاقه معروف باستقامته وسعة معرفته يحسن إدارة الأمور ، ويوقف الظالم عن ظلمه<sup>(٤)</sup>.

١- د. حسن خلافت: التجديد في الاقتصاد المصري الحديث ، القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ص ٧ .

٢- محمد شفيق غريال : محمد علي الكبير ص ٢٣ .

٣- محمد أنيس : المرجع السابق ص ٥ .

٤- محمد كرد علي : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٢٦٧ .

## الموضوع السادس

### الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية

- أ - في مصر : حركة علي بك الكبير  
ب - في بلاد الشام : ١ - حركة ظاهر العمر  
٢ - حركة أحمد باشا الجزار

إن نظرة متفحصة لأحوال الدولة العثمانية في منتصف القرن الثامن عشر وبخاصة في الفترة التي قامت فيها حركة علي بك الكبير تبين لنا مدى الضعف الذي لحق بالدولة العثمانية من جراء الضربات التي انهالت عليها من الدول الأوربية وبخاصة روسيا ، فأوهم ذلك قبضتها على ممتلكاتها وأوجد العديد من الحركات الانفصالية المشابهة لحركة علي بك الكبير والتي من أهمها حركة ظاهر العمر في فلسطين ، وحركة الأكراد في شمال العراق والشام ، والثورات في البوسنة والهرسك والجبل الأسود والافلاق والبغدان<sup>(١)</sup> ، والتزاع بين الأشراف على إمارة مكة . ونتيجة لذلك أخذ يكسوت المماليك في مصر بالاستئثار بالنفوذ والسلطة حتى صار نفوذهم يفوق سلطة الباشا العثماني ، وأصبح نزعيمهم الذي كان يعرف بشيخ البلد الكلمة المسموعة في البلاد ، وفي النهاية استغل أحدهم وهو علي بك الكبير الفرصة وتمكن من الانفرد بالسلطة في مصر في عام ١٧٦٦ .

- ١ - حركة علي بك الكبير :  
وقبل أن نتناول حركة علي بك الكبير بالدراسة لابد لنا من وقفة نعرض فيها لنشأته وكيفية وصوله إلى حكم مصر .  
الاسم الحقيقي لهذا المملوك هو يوسف بن داود وقد ولد في عام ١٧٢٨ في بلده

١ - محمد رفعت رمضان: علي بك الكبير، القاهرة ، دار الفكر العربي، ١٩٤٠ ص ٥ .

أبازة من أعمال القوقاز العثماني ، وكان والده واحدا من قساوسة الكنيسة اليونانية ، ويرغب في أن يكون ابنه مثله قسيسا ، ولكن القدر لم يمكنه من ذلك وخاصة بعد أن اختلطت عصابة من قطاع الطرق هذا الابن في أثناء رحلة صيد كان يقوم بها ففى إحدى الغابات وباعوه لأحد تجار الرقيق فصار به حتى وصل إلى الاسكندرية وباعه هناك بثمن بخس لمدير جمرك الاسكندرية ، وقد قام مدير الجمرك باهدائه إلى ابراهيم بك أحد زعماء المماليك في مصر<sup>(١)</sup> وقد اعتنق يوسف الإسلام ، وتسمى باسم على ، وقد أظهر هذا المملوك من ضروب الشجاعة في ركوب الخيل والتدريبات ما ساعده على الترقى فاكسب لقب "جن على" ولما بلغ الثامنة عشرة أعتقه أسناده وولاه سنجقا ، ثم زادت شهرته بعد نجاحه في الضرب على أيدي البدو الذين كانوا يغربون على القاهرة لئلا ، فقربه سيده وجعله كاشفا<sup>(٢)</sup> وواصل على بك الترقى حتى وصل إلى منصب شيخ البلد ، وخلال ذلك أخذ على بك في التودد إلى العثمانيين حتى اكتسب ثقتهم وفي الوقت نفسه نشط في وضع أتباعه في المناصب الهامة<sup>(٣)</sup> ، كما نجح في تقليص نفوذ كل من الحامية والديوان عن طريق توريثهم في المشاركة في الحروب الداخلية ، وتأخير رواتبهم بحجة قلة المال . كما نجح على بك الكبير في تركيز السلطتين الحربية والإدارية في يده وبخاصة بعد نجاحه في كسر شوكة العربان في الوجهين البحري والقبلي فصار صاحب النفوذ المطلق على جميع أنحاء مصر واستقامت له الأمور حتى خافه الناس وهاه الأمرأ وأخذ يدير دفة الأمور كما يشاء<sup>(٤)</sup> . وانتهاز على بك فرصة انشغال الدولة العثمانية بحروبها في الروسيا<sup>(٥)</sup> ، فاستصدر من الديوان أمرا بعزل الوالي ثم تولى الحكم مكانه وأبطل ورود الولاية العثمانيين إلى مصر<sup>(٦)</sup> ، وامتنع عن دفع الأموال إلى الخزانة السلطانية ، وفي عام ١٧٦٨ أحدث تغييرا في شكل العملة فجعل على أحد وجهيها اسم السلطان ، وعلى الوجه الآخر اسمه .

وعلى الرغم من كل ذلك فمن الصعب القول إن على بك الكبير كان يرغب في الانفصال عن الدولة العثمانية نهائيا ، بل كان كل هدفه هو الاستيلاء على السلطة في ظل

١- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص ١٨-١٩ .

٢- محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، القاهرة ، دار المعارف ص ١٦ .

٣- لاجيرتى : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ١ ، القاهرة ، المطبعة العاصرة الشرقية ص ٣٨٤ .

٤- ميخائيل شاروويم : الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث ص ١٥١ .

٥- محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٢٠ .

٥- لاجيرتى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٨٤ .

السيادة العثمانية وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تمثل درعا تحمي الولايات الإسلامية من الأطماع الأوربية ويؤكد ذلك ما أورده الجبرتي بقوله "اتفق أن على بك صلى الجمعة ففى أوائل شهر رمضان بجامع الداودية فخطب الشيخ عيد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك ، فلما انقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البلبه والصلاخ فقال له : من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقبل لك أنسى سلطان ؟ فقال : نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر الفيسظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألما من الضرب ، وركب حمارا وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ ، ثم أن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم دراهم وكسوة واستسمحه<sup>(١)</sup> .

وقد استطاع على بك الكبير خلال حكمه لمصر أن يخرج البلاد من الدائرة الضيقة التى فرضتها عليه المنازعات وحكم الحكام فبدأ يهتم بإقرار الأمن فى البلاد وتنظيم الإدارة، كما أخذ يتطلع إلى ما وراء حدود مصر فتحالف مع ظاهر العمر حاكم عكا ، كما عقد اتصالات سياسية مع روسيا واتصل بقائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط وطلب منه امداده بالذخائر الحربية والأسلحة . فاستجاب القائد الروسى لطلبه بغية إنهاء الدولة العثمانية فى حروب داخلية ، واضعاف قدرتها العسكرية ضد الروس<sup>(٢)</sup> ، وعلى الرغم من ازدياد نفوذ على بك ، وافتتاحه على حقوق العثمانيين فإن انشغال السلطان العثمانى بأمور الدولة الخارجية قد أضعف جهوده الرامية إلى التخلص من على بك<sup>(٣)</sup> ، ونتيجة لذلك بدأ على بك الكبير يتطلع إلى ما وراء حدود مصر .

ونتيجة لاختلال أحوال الحجاز فى تلك الفترة تحول انتباه على بك نحو بلاد العرب حتى تتمكن مصر من السيطرة على تجارة البحر الأحمر وشواطئ الهند<sup>(٤)</sup> ، وليجعل من ميناء جدة مقرا لهذه التجارة ، هذا بالإضافة إلى إحرازه للمجد والشهرة بالاستيلاء على الحجاز أرض الحرمين الشريفين<sup>(٥)</sup> .

وقد استطاع على بك الكبير الاستيلاء على بلاد الحجاز بعد أن أرسل قواته بقيادة

١- الجبرتي : المصدر السابق جـ ٢ ، تحت عنوان "حوادث عام ثلاث وثمانين ومائة وألف" .

٢- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٥٩ .

٣- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص ٦٤ .

٤- Irwin, Eyles : Series of Adventures in the course of Avoyage up the Red Sea Dublin 1780 vol 1 p. 159 .

٥- شكرى : المرجع السابق ص ٢١-٢٢ .

محمد بك أبو الذهب<sup>(١)</sup> إلى مكة ، وتمكن من الاستيلاء عليها في عام ١٧٦٩ . وفي أعقاب ذلك منح شريف مكة علي بك الكبير لقب سلطان مصر وخاقان البحرين<sup>(٢)</sup> فزاد ذلك من شهرته ، وقوة شوكلته . وقد شجعت هذه الانتصارات علي بك الكبير علي المضى في مشروعاته التوسعية ، فرأى ضرورة إخضاع بلاد الشام لسلطته ، وقد شجعه علي ذلك ما يلي :

- ١ - اضطراب الأحوال في سورية وثورة حليفه ظاهر العمر .
- ٢ - انشغال الدولة العثمانية في حروبها مع روسيا ، وعدم تمكنها من إرسال التجندات العاجلة إلى بلاد الشام .
- ٣ - علاقات علي بك بالقيصرة كاترين الثانية قيصرة روسيا واستعدادها لمعاونته ضد السلطان العثماني ، وظهور الأسطول الروسي في البحر المتوسط .
- ٤ - تذمر أهل الشام من العثمانيين نتيجة لفساد الحكم والتفريق بين الأجناس المختلفة .

ونتيجة لذلك أمر علي بك الكبير قائده محمد بك أبو الذهب بالزحف علي بلاد الشام . وقد أحرز الجيش المملوكي عدة انتصارات متوالية ، فدخل أبو الذهب غزة في مارس ١٧٧١ ثم استولى علي الرملة وحاصر نابلس ثم تقدم صوب بيت المقدس حتى سلمت له ووصل إلى يافا وعكا حيث قوبل بكل حفاوة ، وبدأت بلاد الشام كلها تحت رحمته ، وخلال ذلك لقي أبو الذهب كل معاونة وتعضيد من الشيخ ظاهر العمر الذي ساعده بالنصح تارة وبالإمدادات تارة أخرى حتى اضطر العثمانيون إلى التقهقر ، واستطاع أبو الذهب الوصول إلى دمشق<sup>(٣)</sup> ودخلها في السادس من يونيو ١٧٧١ م ، وأنت إليه الوفود تهنئه وترقب إليه التهاني ، ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى القاهرة أقيمت الاحتفالات والزيارات ، غير أن هذه الفرحة لم تتم فلم يلبث أبو الذهب أن غير موقفه من سيده ، فأعلن العصيان عليه وأصدر أوامره إلى قواته بهدم خيامهم والاتسحاب من دمشق ، كما نادى أهالي الشام بالأمان<sup>(٤)</sup> وكسر عائدا إلى مصر ، وسحب في طريق

١- يرجع لطلاق اسم أبو الذهب علي هذا المملوك إلى أنه لما لبس القلعة بالقلعة ، صار يفرق القناشير ذهبا ، وفي حال ركوبه ومروره جعل ينثر الذهب علي القراء . الجبرتي : المصدر السابق ج١ ص ٤٢٢ .

٢- إبراهيم الطيب : مصباح الساري ونزهة القاري ص ٢٢ .

٣- شكرى : المرجع السابق ص ٢٤ .

٤- الجبرتي : المصدر السابق ج١ ص ٣٨٥ .

عودته جميع الحاميات التي كان قد أقامها في البلاد التي فتحها<sup>(١)</sup> . ويختلف المؤرخون في أسباب ذلك وفيما يلي نعرض لأرائهم :

١ - اجتماع القائد العثماني عثمان باشا بأبي الذهب في خيمته وإقناعه بأن ما قام به ضد السلطان العثماني يخالف الشرف والأمانة ، كما أن استيلاءه على دمشق عنوة يخالف الدين وخصوصا أن دمشق من أهم مراكز الحج الرئيسية إلى الحرمين ولا يصح انتهاكها .

٢ - إرسال عثمان باشا صرة ثقيلة من الدنانير إلى محمد أبي الذهب حتى يترك دمشق ويعود إلى مصر<sup>(٢)</sup> .

٣ - أن أبا الذهب حصل على وعد من السلطان العثماني بالعفو عنه ، وتوليته شيخا البلد بدلا من علي بك الكبير<sup>(٣)</sup> .

٤ - أن أبا الذهب كان يخشى من غضب الدولة العثمانية بعد أن تفرغ من حروبها مع الروس فتقوم بالانتقام منه ومن قواته في بلاد الشام .

٥ - أن العثمانيين نجحوا في إثارة النزعة الدينية عند أبي الذهب ، وأوهموه بأن من يعصى السلطان كأنه يعصى الله ورسوله ، كما أثبتوا له أن اتصال علي بك الكبير بالروس أعداء الإسلام وتسياقه وراء أفكار كاترين امبراطورة روسيا كل ذلك يعد خيانة للإسلام والمسلمين .

ولما وصلت أنباء انقلاب أبي الذهب على سيده إلى القاهرة لم يكن هناك متسع من الوقت لتجهيز الجيوش لملاقاته ، ومع ذلك فقد أرسل علي بك جيشا لمقاتلته بقيادة إسماعيل بك غير أن هذا الجيش انضم إلى أبي الذهب ، وعندئذ لم يجد علي بك مناصا من الانسحاب والالتجاء إلى حليفة ظاهر العمر في عكا ، ومشاركته في مواجهة العثمانيين في بلاد الشام .

وفي بلاد الشام أعد علي بك العدة للعودة إلى مصر ، فجمع حوالى خمسة آلاف جندي تقدم بهم لملاقاة أبي الذهب الذي أرسل جيشا لملاقاته يصل تعداده إلى حوالى اثني عشر ألفا<sup>(٤)</sup> . وفي الصالحية دارت المعركة الفاصلة وانتصر أتباع علي بك في بداية الأمر ، وانفتح الطريق أمامهم إلى القاهرة ، ولكن أبا الذهب لم يلبث أن أثار الحماس في أتباعه متهما علي بك بالكفر والاحاد ، كما رماه بالتحالف مع الكفار لاختضاع البلاد حتى

١- محمد رفعت رمان : المرجع السابق ص ١٦٩ .

٢- شكرى : المرجع السابق ص ٢٧ .

٣- تاريخ جونت ج ١ ص ٣٤٩-٣٤٧ .

٤- شكرى : المرجع السابق ص ٢٨-٢٩ .



بقضى على الدين الإسلامى ويرغم الأهالى على اعتناق المسيحية ، ونتيجة لذلك ازداد حماس أتباع أبى الذهب وتمكنوا من إحراز النصر على قوات على بك الذى ظل يقاتل حتى أصيب بجرح فى وجهه وسقط من على جواده وأخذ أسيرا ، وبقي فى الأسر سبعة أيام حتى مات فى الخامس عشر من صفر ١١٨٧ هـ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣ م ، وقصد شكك الجبرتى فى طريقة موته ، فقال : "فأقام سبعة أيام ومات والله أعلم بكيفية موته"<sup>(١)</sup> .

وبوفاة على بك الكبير أسدل الستار على أكبر محاولة عرفتها مصر للتخلص من السيادة العثمانية وإعلان استقلالها واستأثر محمد أبو الذهب بالنفوذ والسلطة بمساندة العثمانيين ، ومعاضدة الباب العالي له حيث أرسل الدولة العثمانية وأظهر لهم الطاعة<sup>(٢)</sup> واعترف بسيادتهم على مصر ، ولكن حكمه لم يستمر طويلا حيث وافته المنية فى الثامن من يونيو ١٧٧٥ م أثناء محاربته لقوات ظاهر العنبر فغير ذلك موازين الأمور داخل مصر .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول وفاة أبى الذهب فمنهم من ذهب إلى أنه مات بساء السكتة القلبية ، ومنهم من قال إنه مات بمرض الحمى ، ومنهم من ذكر أنه أصيب بمرض خبيث توفى على أثره نتيجة لآته هدم دبرا لثريهان وقتل من فيه<sup>(٣)</sup> . وعلى كل حال فبعد وفاة أبى الذهب وقعت البلاد فى حالة من الفوضى فقد شرع كبار أمراء المماليك فى التنارع على السلطة وانقسموا إلى شيع طوائف ، ولم تهدأ لهم ثائرة حتى تمكن مراد بك وإبراهيم بك من الاستئثار بالحكم واقتسام منبجة البلد وإمارة الحج فيما بينهما ، وفى عهدهما ازدادت أحوال مصر سوءا فقد شاعت فيها الفوضى والعلم الأمن ، وانفلت زمام الأمور من يد العثمانيين<sup>(٤)</sup> . ولما خرجت الأمور عن حدودها وتجاوزت الأحوال لدرجة أن أصبح الأجانب فى مصر رهينة تصرفات مراد بك وإبراهيم بك ، أخذوا فى استئثار قناصل الدول الأوروبية وتهديدهم بتخريب كنائس الاسكندرية إذا لم يدفعوا لهما الأموال التى يطلبانها ، تقدمت الدول الأوروبية بشكاواها إلى الباب العالي فى عام ١٧٨٦ ، فأرسلت الدولة العثمانية أسطولا بقيادة حسن قبطان باشا فتمكن من السيطرة على زمام الأمور<sup>(٥)</sup> ، والدخول إلى القاهرة فى أغسطس ١٧٨٦ م والحد من سيطرة هذين المملوكين إلى درجة كبيرة ، وظل الحال على هذه المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر فى يوليو من عام ١٧٩٨ م .

١- الجبرتى : المرجع السابق ج١ ص ٣٨٥ . وانظر أيضا قواد شكرى : المرجع السابق ص ٣٠ .

٢- الجبرتى : المصدر السابق ج١ ص ٤٢٢ .

٣- تاريخ الأمير حيدر : نزهة الزمان فى تاريخ جبل لبنان ، القاهرة ، مطبعة السلام ١٩٠٠ م ص ٨٢٤ .

٤- Charles Roux : L'Angleterre de Suez, et l'Egypte PP. 20-21

٥- IBid : P. 195

ثانيا : الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية في بلاد الشام :

قسمت بلاد الشام بعد سقوطها في يد العثمانيين في أعقاب معركة مرج دابق ١٥١٦م إلى ثلاث إيلات هي :

- ١ - حلب وتشمل بلاد الشام الشمالية .
- ٢ - طرابلس وتشمل وسط الشام .
- ٣ - دمشق وتشمل معظم البلاد الجنوبية وفلسطين .

واستمر هذا التقسيم سائدا حتى عام ١٦٦٠م إذ استحدثت إيالة جديدة وهي صيدا لتشمل مدن الساحل وضواحيها وبلاد صفد حتى تتمكن الدولة من تقوية قبضتها على هذه المناطق<sup>(١)</sup> وفيما يلي نعرض لأهم الحركات الانفصالية في هذه المناطق :

١ - حركة ظاهر العمر الزيداني :

بعد أن اختار أهل طبرية وصفد ظاهر العمر حاكما عليهم في عام ١٧٣٣م ، أخذ في تنظيم أموره استعدادا للانفصال عن الدولة العثمانية . وقد استطاع ظاهر العمر أن يضم في فترة قصيرة صيدا ويافا وحيفا وتابلس والرملة إلى حكمه ، ولما حاول باشوات الشام الوقوف في وجهه أخفقوا في مساعدهم فأدى ذلك إلى ازدياد نفوذه<sup>(٢)</sup> ورغبته في التوسع . وخلال ذلك تمكن ظاهر العمر من الحصول على فرمان من السلطان العثماني بحكمه لصيدا ، كما تمكن من الاستيلاء على عكا وبنى بها قلعة وسكن فيها وصارت له شهرة ذائعة وأخذت قوته في التزايد وبخاصة بعد تحالفه مع علي بك الكبير في مصر .

ونتيجة لانشغال الدولة العثمانية في حروبها مع روسيا استأثر ظاهر العمر بحكم عكا في الفترة ما بين ١٧٥٠-١٧٧٦م ولم تجرؤ الدولة على مناصبته العداء ، بل اضطرت إلى التساهل معه وأدى ذلك إلى تراخي نفوذها وتقوية مركزه ، فأخذ يبني القلاع حول عكا ، ويقوى من استحكاماتها ، ويتخذ الوسائل الكفيلة التي تدعم نفوذه في هذه المنطقة<sup>(٣)</sup> .

١- رأيت الشيخ : في تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار الثقافة ١٩٧٧م ص ١٣٥ .

٢- من أبرز الأمثلة على ذلك حملة سليمان باشا والي دمشق إلى طبرية في عام ١٧٣٣ .

انظر ميخائيل الدنشقي لخورى : تاريخ الشام ١٧٢٠-١٧٨٢ تحقيق أحمد غسان سبانو ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨٢ ص ٢٤ .

٣- فواد شكرى : المرجع السابق ص ٢١ .

ونتيجة لتحالف ظاهر العمر مع علي بك الكبير في مصر ، أبدى كل منهما استعداده لنجدة الآخر في حالة محاولة الدولة العثمانية الغدر بهما ، وقد أبدى علي بك استعداده لنجدة ظاهر العمر ومساعدته ضد عثمان باشا والي الشام ، وأرسل إليه جيشا مكونا من أربعة آلاف جندي لمعاونته .

وعندما أرسل علي بك جيشا بقيادة محمد بك أبي الذهب إلى الشام لمحاربة الدولة العثمانية أزره ظاهر العمر حتى تم له النصر ، ودخل دمشق إلا أن خيانة أبي الذهب لسيدته قلبت الأمور رأسا على عقب وجعلت علي بك يفر إلى فلسطين للاستنجاد بالشيخ السني .<sup>(١)</sup> هي محاولة لاستعادة مركزه في مصر ، وعلى الرغم من تقديم ظاهر العمر المساعدات لنجدته فقد اندحرت قواته للمرة الثانية على أيدي أبي الذهب ، فأخذت العواصف تهب بشدة على حليفه ، وانتهى الأمر بالتدخل العثماني المسلح والقضاء على ظاهر العمر في عام ١٧٧٥م ، وقتل معظم أبنائه وعودة النفوذ العثماني إلى هذه المنطقة ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فقد أدى انعدام السيطرة العثمانية على تلك المنطقة إلى ظهور أحمد باشا الجزار بحركة انفصالية أخرى في محاولة لملء الفراغ السياسي في تلك المنطقة في الفترة ما بين ١٧٧٦-١٨٠٤م .

## ٢ - حركة أحمد باشا الجزار<sup>(١)</sup> ١٧٥٠-١٨٠٤م :

بدأ نجم أحمد باشا الجزار في الظهور بعدما التحق بخدمة علي بك الكبير في مصر ، إلا أنه ما لبث أن فكر في الهرب من مصر خشية بطش سيده . ففكر فسي زى المغاربة ، وتوجه إلى دمشق حيث عمل في خدمة واليها فترة ، ثم اتجه إلى لبنان واتصل بالأمير يوسف الشهابي الذي أعجب بذكائه وقوة عزمته وطموحه فأسند إليه ولاية بيروت التي كانت مهددة في ذلك الوقت من قبل الأسطول الروسي<sup>(٢)</sup> ، وقد تمكن الجزار من السيطرة على زمام الموقف في بيروت لفترة ، إلا أن الأسطول الروسي سرعان ما

١- اسمه الحقيقي أحمد البوشناق ، وأطلق عليه لقب الجزار لشدة وصرامته وإسرافه في القتل وسفك الدماء من أجل الوصول إلى الحكم والسيطرة والولاية .

للإفصاح عن نظر الأمير أحمد حيدر الشهابي : لبنان في عهد الشهابيين - تحقيق أحمد رستم وفؤاد البستاني ، تقسيم الأول ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣ ص ٩٦ .

٢- محمد جميل بيهم : الحلقة المفقودة في تساريخ العرب ، القاهرة ، مطبعة الميمنية للطباعة ، المطبعة الأولى ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م ص ٥٦ .

هزم قواته هناك مما اضطره للرحيل إلى استنبول ، وهناك استطاع أن يظهر بلقى الوزارة والباشوية ، ويمتصب ولاية صيدا وأن يبدأ مرحلة جديدة فى حياته كوال تابع للدولة العثمانية مباشرة . وبعد أن برزت قدرة الجزائر فى السيطرة على زمام الموقف ، والقضاء على بقية الزيدانيين من أتباع ظاهر العمر ، منحت الدولة العثمانية عكا بالإضافة إلى صيدا ، فقام بتحسينها ، كما عمل على زيادة ممالিকে وأنصاره . وخلال ذلك سعى للقبض على أسرى آل العظم والشهابيين<sup>(١)</sup> ، كما بلغ نفوذه شأوا عظيما لدرجة أن أصبح بمثابة الحاكم الفعلى لبلاد الشام .

وبعد أن سمع الجزائر بتحريك قوات الحملة الفرنسية من مصر استعدادا للهجوم على الشام ، بدأ فى زيادة استحكاماته فى عكا ، وتجهيز مدافعه تحت إشراف عدد من الخبراء الأوربيين ، كما أوجد فيها حاميات عديدة تستمد مساعدتها بحرا من الأسطول الإنجليزي بقيادة "سيدنى سميث" مما جعل عكا صعبة المنال أمام بونابرت وقواته وجعل رجالات الدولة العثمانية ينظرون إلى الجزائر على أنه مطمئح آمالهم فى النصر . ونتيجة لاستيصال الجزائر وقواته فى الدفاع عن عكا ، وتفشى مرض الطاعون بين القوات الفرنسية اضطر نابليون إلى الانسحاب من أمام أسوار عكا والعودة إلى مصر مما زاد من هيبة الجزائر وعزز من مكانته أمام الناس ، وجعله يظهر بمظهر الحاكم المطلق فى بلاد الشام ، ولما خشيت الدولة العثمانية من ازدياد نفوذه أخذت تدبر له المكائد للقضاء عليه فتحالفت مع الأمير بشير الشهابى ضده ولكن الجزائر فوت هذه الفرصة على أعدائه، وحاول أن تظل علاقاته وطيدة مع العثمانيين وكان مستعدا لإعلان ولايته للسلطان ، وظلت الأمور على حالها حتى توفي الجزائر فى ١٢١٩هـ/ أبريل ١٨٠٤م وهو فى ذروة قوته وسلطانه .

١- للتفاصيل انظر للشهابى : المصدر السابق ص ١٦٠-١٦٥ .

\_\_\_\_\_

.

.

.

.

.

.

.

---

## الموضوع السابع

معركة نفارين *NAVARINE* البحرية  
٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ ( ١٢٤٣ هـ )  
دراسة في وثائق المعية السنية

\_\_\_\_\_

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

كتابة التاريخ من واقع مصادره الأصلية تتيح للمؤرخ الإمام الدقيق بحقائق العصر الذي يدرسه، وتجعل أمامه صورة الأحداث واضحة وتضيف دلالات جديدة وموضوعية لبحثه، وتجعله يتبع نهج الأسلوب العلمي الذي يحتم عليه ألا يعتمد على النقل عن الغير وإنما يستقى التاريخ من أوثق المصادر والأصول التي تجعله يقف على حقائق الأمور بلا أدنى شك أو موارد، فالوثائق هي المادة الخام التي تجعل روح العصر الذي كتبت فيه، والتي تعطى الفهم الصحيح له وتفسر أحداثه.

وديوان المعية السنية<sup>(١)</sup> بقسميه العربي والتركي والذي اعتمدنا عليه في كتابة هذه الدراسة يتميز عن غيره من الدواوين بأهميته التاريخية خاصة وأنه الديوان الذي ينشر أولاً وثانياً، ويقصص مختلف أعمال الدولة، ويفصل في القضايا التي تقدمها إليه الدواوين الأخرى، وكانت بواسطته يتم الاتصال مع الدول الأخرى.

وهذا الديوان عبارة عن وحدة أثرية متكاملة منظمه تشمل العديد من الدفاتر والمحافظ ويتكون القسم العربي منه من ٥٠٤ مجلد أقدمها المسجل رقم (١) بتاريخ سنه ١٢٤٥هـ (١٨٢٩م) وأحدثها بتاريخ ١٢٩٧ هـ (١٨٧٩م) وهذه السجلات تشمل العديد من الأوامر والشروح والخطابات والقرارات.

أما القسم التركي من دفاتر المعية والذي اعتمدنا عليه بصفه أساسيه في هذه الدراسة فمعظمه مترجم إلى العربية، وبداية كتابة أوامر والي وتعليماته فيه أقدم من سجلات القسم العربي فمن المعروف أن الأوامر الحكومية الرسمية كانت تكتب في بداية عصر محمد علي باللغة التركية، ثم كتبت بالتركية والعربية ثم رجعت إلى التركية فقط، وأن هذه الوثائق قد تم ترجمة معظمها إلى العربية في عصر الملك فؤاد الذي عمل على إمطية اللثام عما احتوته دار المحفوظات من وثائق بهدف الإشادة بأعمال جديه إبراهيم ومحمد علي ووالده إسماعيل وإبراز دورهم في تأسيس مصر الحديثه<sup>(٢)</sup>.

والوثائق التي تعرض لها تمثل صورته حيه بالأساتيد والأرقام الرسمية لحروب محمد علي في بلاد اليونان منذ أن طلب منه السلطان محمود الثاني مساعدته في إخماد الثورة اليونانية وحتى واقعة نغارين البحرية وما أعقبها من تطورات.

(١) أطلق على هذا الديوان مسميات عديدة منها ديوان والي، وديوان شوري المعارة، والديوان العالي وقد نشرت وزارة الثقافة والإرشاد القومي السجل الأول من القسم العربي من هذا الديوان والذي يشمل الفترة من ٨ يوليو ١٨٢٩ إلى ٢٣ ديسمبر ١٨٣٠ في يوليو ١٩٦٠.

(٢) ظلت التركية لغة الدواوين معظم عصر إسماعيل حتى ترجم عبد الله فكرى اللواتج إلى العربية. للتفاصيل انظر كتابنا اتجاهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، القاهرة، عين للدراسات والنشر ١٩٩٤ ص ٤٥ وما بعدها.



والجدير بالذكر أن لغة هذه الوثائق سواء العربية أو المترجمة من التركية في معظمها ركيكة لم يراع فيها قواعد النحو أو الهجاء إلى جانب امتزاجها في معظم الأحيان بكلمات تركية وفارسية وقد اضطررنا حفاظاً على الأمانة التاريخية إثبات هذه الوثائق بأسلوبها كما هي وعدم التدخل بالتصويب لأي خطأ يكون مصدر الوثيقة قد وقع فيه حفاظاً على أصالتها ، ومراعاة لأملوب العصر الذي كتبت فيه .

والجدير بالذكر أن التاريخ المتبع في تسجيل هذه الوثائق هو التاريخ الهجري ، ويذكر أحياناً بجانبه التاريخ القبطي خاصة في الوثائق المتعلقة بالزراعة ومواعيدها .

من المعروف أن بلاد اليونان كانت جزءاً من السلطنة العثمانية منذ أن دخلتها قوات محمد الفاتح في عام ١٤٥٣ م ، وأن السلطان العثماني كان يرسل إليها من يحكمها من ولاته حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر واستمرت الأمور على ذلك المتوال حتى أسس التجار اليونانيون جمعية أطلقوا عليها هيتريا أي جمعية الإخوان Hetairia Philike بهدف طرد الأتراك من أوروبا ، وتخليص اليونان من التبعية الإسلامية ، وإنقاذ الحضارة الإغريقية من سيطرة الأتراك تحقيقاً لوصية بطريرك الأكبر وكاترينيا .

وقد استندت هذه الجمعية على عدة ركائز منها :-

مبادئ الحرية والمساواة التي أطلقتها الثورة الفرنسية ، والمساندة المادية والمعنوية من العديد من الجمعيات الأهلية التي تشكلت في معظم بلدان أوروبا تحت اسم جمعيات محبي اليونان هذا بالإضافة إلى تشجيع بعض الدول الأوروبية خاصة روسيا على الثورة ضد العثمانيين ، واشتداد النعرة ضد مساوئ الحكم العثماني والمبالغة في وصف هذه المساوئ . ونتيجة لذلك اتخذ اليونانيون من المورة حصناً منذ عام ١٨٢١م وشكلوا حكومتهم ، واشتعلت نيران ثورتهم ، واستطاعوا أن يكيدوا العثمانيين خسائر فادحة حيث قاموا بتوجيه ضربات المفاجئة للحاميات العثمانية في العديد من المواقع ، كمال ضيقوا الخناق على الأسطول العثماني المرابط في المياه الألبانية ، وقطعوا الطريق عليه حتى أضحي كالأسير مما اضطر السلطان العثماني محمود خان<sup>(١)</sup> إلى طلب النجدة من محمد علي والي مصر لعله يستطيع بجيشه واسطوله انتقاذه من هذه الوريطة وإعادة الأمور إلى نصابها في نظير منحه لقب "حاكم كريت والمورة" ولقب "قائم دابر الكفرة والمشركين"<sup>(٢)</sup> .

وعلى الرغم من أن بلاد اليونان لم تكن مطمئناً لآمال محمد علي في أي وقت من الأوقات فقد أكدت الوثائق أن محمد علي لم يتردد لحظة في إجابة السلطان إلى طلبه<sup>(٣)</sup> بل حاول إقتناص الفرصة ليؤكد للسلطان مدى قدرته على مساندته في الظروف الصعبة ، وإظهار تمام رضوخه لما تأمره به الدولة فأرسل رسالة إلى السلطان يقول فيها "إني بصفة كوئي خادماً لولي نعمتي صاحب الشوكة السلطان المعظم فإنه يمكن للدولة العلية أن تطلب جميع ما تريد ، وإني مستعد للقيام به وقاء بحق الدين والملة ، وأن ذلك عندي من الأمور المعنى بها ، وإني

(١) السلطان محمود الثاني .

(٢) رينيه وجورج قبطاري : محمد علي وأوروبا - ترجمة الفريد بلوز - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٢ ، ص ٨١ - ٨٢ .

(٣) دفتر معية تركي بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٣٦ هـ وثيقة رقم ٢٩٢ .

لا تأخر عن بذل نفسه في سبيل تقوية شأنها وإعلاء كلمتها ورفع قدرها <sup>(١)</sup> . ونتيجة لذلك أمر محمد علي صهره أمير البحر محرم بك <sup>(٢)</sup> بتجهيز الأسطول والتحرك لمساندة الأسطول العثماني المحاصر ، وتعزيزه بالمهمات والذخائر <sup>(٣)</sup> . وقد أعد محرم بك أربع عشرة سفينة حربية بما يلزمها من الجنود ، وأقلع بها لمساندة الدولة العثمانية في محنتها وبعد أن وصل إلى مياه كريت إشتبك مع بعض السفن اليونانية التي كانت تهاجم سفينة تجارية عثمانية ، كما قام بمطاردة سفن القراصنة في بحر إيجه ، ونظراً للخسائر التي تعرض لها الأسطول المصري في هذه المناوشات عاد إلى الإسكندرية مضطراً في محاولة لإعادة تنظيم وتعويض ما فقده وإصلاح ما يحتاج من السفن إلى ترميم <sup>(٤)</sup> . وفي محاولة من محمد علي لتعزيز الموقف أعد أسطولاً آخر يتكون من ١٨ سفينة تحت قيادة " طيو زادة أوغلي قيوچي باشا محمد آغا " لمساندة الأسطول العثماني والعمل على تخليصه من الحصار <sup>(٥)</sup> .

كما أعد جيشاً برياً مكوناً من ١٧ ألف جندي من المشاة ، وأربعة بالوكات من المدفعية وسبعمائة وخمسين من الفرسان ، وأوكل قيادته لابنه إبراهيم ومساعدته الكولونيل سيف <sup>(٦)</sup> . وقد أفلحت هذه الحملة من الإسكندرية في ١٩ يوليو ١٨٢٤ والتفق على أن يتجمع الأسطولان التركي والمصري في جزيرة رودس ثم يتحركا في اتجاه الجزر اليونانية المنتشرة في بحر إيجه حيث كانت تمثل الممقل الرئيسي للشوار والقراصنة الذين هددوا المراكب العثمانية ويعدّها يتحركون نحو شبه جزيرة المورة المركز الرئيسي للثورة . وطبقاً لتعليمات الباب العالي فقد تولى القيادة البحرية العليا للأساطيل القبطان " خسرو باشا" <sup>(٧)</sup> ، بينما تولى " إبراهيم باشا " قيادة القوات البرية .

<sup>(١)</sup> انظر وثيقة رقم (١) تحت عنوان رسالة من محمد علي إلى السلطان محمود خان .  
<sup>(٢)</sup> أرسله من قواله ، وقد استخدمه محمد علي في كثير من المهمات ، ولقّبه به زوجه بكرمته تقيده هاتم ، وجعله محافظاً للأسكندرية ، كما أحال إليه إدارة أسطولته وإشتراك في حرب المورة ووقعة فاروس ثم عاد إلى الإسكندرية محافظاً .

<sup>(٣)</sup> انظر دار الوثائق : محافظ إيجات ، محفظة ١١٤ .

<sup>(٤)</sup> انظر وثيقة رقم (١) بتاريخ ١٠ شوال ١٢٣٦ هـ .  
ومن المعروف أن تكوين البحرية المصرية في العصر الحديث بدأ في عام ١٨١٠ منذ أن شرع محمد علي في خوض غمار الحرب مع الوهابيين في ترسانة بولاق أنشئت السفن التي استخدمتها مصر في البحر الأحمر خلال حروبها مع الوهابيين ، وفي ترسانة الإسكندرية أنشئت السفن التي كانت تمر عبر حباب البحر المتوسط حيث عهد محمد علي إلى شاكر أفندي الأسكندري وإلى الحاج عمر أحد مشاهير المعلمين في بناء السفن بالإسكندرية مهمة إنشاء وصيانة أسطولته ، كما أنشأ إدارة خاصة لهذا الأسطول جعل على رأسها صهره محرم بك .

<sup>(٥)</sup> قد الأسطول المصري في هذه المناوشات ثلاث سفن ، كما تعطل أربعة .  
انظر عبد الرحمن زكي : التاريخ الحربي لعصر محمد علي ، القاهرة دار المعارف ١٩٥٠ ص ١٧٩ .

<sup>(٦)</sup> انظر الوثيقة رقم (١) .  
<sup>(٧)</sup> دفتر ١٣ معية تركي بتاريخ غرة رجب ١٢٣٩ هـ (١٨٢٤م) ص ١٠٤ وللتفاصيل انظر عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي ، القاهرة ، النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ ص ٢١٦ ، وبيير كراييتس إبراهيم باشا - ترجمة محمد بدران - القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٢٧ ص ٧٠ .

<sup>(٨)</sup> أول والي عثماني لمصر بعد جلاء الفرنسيين عنها في عام ١٨٠١ ، وبعد أن تم إبعاده عن مصر بقفل دسائس محمد علي تولى الصدارة العظمى أكثر من مرة في الأستانة .  
انظر دار الوثائق : محافظ أبحاث محفظة ١١٤ موضوعات متنوعة .

ونتيجة لعدم توحيد أمر القيادة العليا في يد قائد واحد يستطيع إدارة دفعة القتال ، ونظراً للكراهية الشديدة التي كان يكنها خسرو باشا لمحمد علي وإبنه ، ولرغبته في إظهارهما أمام السلطان بمظهر غير المتعاون وغير المهتم بمصلحة السلطنة أخذ خسرو باشا في كتابة التقارير ضد إبراهيم وإرسالها إلى الأمستاتة ، كما إشتكى إبراهيم من " خسرو " لعدم إسعافه بالسفن اللازمة أثناء حصار ميسولونجي ونتيجة لذلك وحرصاً على حسن سير العمليات الحربية طالب محمد علي السلطان بأن يتولى ابنه إبراهيم القيادة العليا للأسطول بجانب قيادته للقوات البرية حتى يتمكن من إحراز النصر<sup>(١)</sup>

ومع أن السلطان قد وافق على عزل خسرو من القيادة البحرية فإن لم يعين إبراهيم مكانه بل عين عزت باشا قيودانا<sup>(٢)</sup> للأسطول كما أصدر السلطان فرماناً في ٦ مارس ١٨٢٤ بتعيين إبراهيم باشا والياً على جزيرة كريت ومورة ، ومنحه الحرية الكاملة لإعادة التنظيم الاستقرار إلى بلاد اليونان .

وسارت العمليات الحربية على قدم وساق ، وفي حين كانت القوات البرية بقيادة إبراهيم باشا تحقق الانتصار تلو الآخر كان الأسطول العثماني المصنوع<sup>(٣)</sup> يتلقى الضربات الموجهة في البحر ويحقق اليونانيون العديد من الانتصارات عليه وقد يرجع السبب في ذلك إلى مهارة اليونانيين البحرية ، وعدم وجود قواد بحريين أكفاء لدى العثمانيين أو محمد علي هذا بالإضافة إلى حداثة عهد المصريين بركوب البحار ، وقدره السفن اليونانية الصغيرة على المناورة وخفة الحركة أكثر من السفن العثمانية الضخمة ثقيلة الحركة .

وعلى أي حال فقد استغل إبراهيم باشا الخلاف الذي دبا في معسكر الأغريق ، وتآمر بعض بحارتهم وإضرابهم بسبب عدم دفع رواتبهم واستطاع أن يضرب الحصار على نفارين Navarine معقل بلاد اليونان وتمكن من إسقاطها في الثامن عشر من مايو ١٨٢٤ وكانت هذه المعركة فاتحة انتصاراته في حرب المورة ، كما استطاع احتلال تريبوليتزا Tripolizza يومئذ اليونان في الثالث والعشرين من يونيو ١٨٢٥ . وفي أعقاب ذلك أخذت قوات إبراهيم باشا تأهب للزحف نحو نوبليا Nampolia<sup>(٤)</sup> قريبة بلاد اليونان مما أدى إلى اقتراب الثورة اليونانية من نهايتها دون أن تحقق ميتهاتها في الاستقلال .

ونتيجة لذلك ارتفعت أوروبا خشية من عواقب انتصار القوات المصرية ، وعقدت نيته على ألا يستكين الحبيب للهلال<sup>(٥)</sup> فبدأت الحكومات الأوربية في الإساءة إلى سمعة إبراهيم باشا وتشويه صورته أمام الرأي العام الأوربي باتهامه بالبربرية لقيامه بسفك دماء الأسرى ، وخرق قوانين الحرب .

(١) أنظر وثيقة رقم ( ٧ ) تحت عنوان رغبة محمد علي في توحيد القيادة العليا للأسطول ووضعه في يد ابنه إبراهيم .

(٢) بمعنى قائد الأسطول .

(٣) كان الأسطول المصري مكوناً من ثماني عشرة سفينة حربية على حين كان الأسطول العثماني مكوناً من ست عشرة سفينة ، وأربع سفن تونسية وجزائرية ، وست حراقات ، وأربعين مركباً لنقل الجنود .

(٤) كانت حكومة الثورة قد اتخذت من هذه المدينة عاصمة ومقر لها .

(٥) نبيز كريش : إبراهيم باشا - ترجمة محمد ندران - القاهرة - لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧ ص ٧٧ .

وبيئما كان القائد المصري يصلي للشوار ناراً حامية ويتحقق له الفوز الساحق في المعارك التي خاضها والتي كان أبرزها سقوط (مسولنجي) Missolonghi في الثالث والعشرين من أبريل ١٨٢٦<sup>(١)</sup> مما جعل الطريق إلى أثينا مفتوحاً رأت الدول الأوروبية أنه لا مفر من التدخل القلبي لمساندة اليونانيين وتأييد جانيهم . وتحكى لنا الوثائق عن عقد إنجلترا وفرنسا وروسيا لمؤتمر في لندن في السادس من يوليو ١٨٢٧ بقصد إنهاء الأزمة اليونانية ، وإعادة حبل الأمن في البحر المتوسط<sup>(٢)</sup> واتفاقها على ضرورة على ضرورة قيام الباب العالي بمنح بلاد اليونان استقلالاً إدارياً في ظل السيادة العثمانية ، وعلى أساس دفع جزية سنوية ، وإذا لم يقبل الباب العالي هذه الوساطة في خلال شهر شهر من الزمان ، ويوافق على وقف القتال فإن الدول الثلاث تتفاوض فيما بينها " لتفرض الهدنة على الطرفين بمنعها من مواصلة القتال ، من غير أن تشترك هي مباشرة في الحرب "

وبيئما كانت المناورات السياسية مستمرة ، وجهود الدول الأوروبية لوقف القتال تتحرك في كافة الاتجاهات استولى إبراهيم باشا على أثينا ، وضرب الحصار على قلعة الأكروبولس Acropolis حتى سلمت في ٢٧ يونيو ١٨٢٧ مما شجع السلطان على رفض وساطة الدول الأوروبية بحجة أن معالجة أمر العصاة من حقوق الدولة العلية ، وأن الثورة اليونانية تعد مسألة داخلية بحتة ، وأن السلطان لن يقبل أي معنى في هذا السبيل لأن التدخل في مثل هذه الشؤون بالنسبة للعلاقات الدولية يعد أمراً في غير محله<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من اصرار السلطان العثماني على موقفه وتشدده في معالجة الأمور ، فقد كان لمحمد علي رأي آخر فرضه عليه تفكيره في عواقب الأمور إذا ما تدخلت أساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا في المعارك لصالح الثوار ونتيجة لذلك أرسل إلى المصدر الأعظم بالاستئذان بعرض حايه الحالة الحربية في بلاد المورة بشكل واضح والمأزق الذي يمكن أن تتعرض له القوات الإسلامية إذا لم يتم تسيئة الأمر سلمياً بقوله " إن عمل الدول في الوقت الذي لم يزل فيه بمثابة تهويش بل يلوح منه شبح الحرب ! .. نعم نحن قوم من أرباب الحرب والضرب إلا أننا ما زلنا في مستهل كتاب الحرب نقرأ في حرف الألف والباء أما الدول فقد أتموا كتب هذا ! لم قلو بادرناهم بالحرب فإني أرى بصفة محققة أن الأساطيل لاخير منها على الإطلاق ، وستهلك أرواح الثلاثين أو الأربعين ألفاً من الجنود الموجودة فيها <sup>(٤)</sup> "

وحفظاً لماء الوجه اقترح محمد علي توسط النمسا في الأمر حتى يمكن تسوية الموضوع بالشكل الذي يرضى السلطنة . ونظراً لرفض السلطان لأي معنى سلمى ، وتشدده في معاقبة الثوار رأت الدول الأوروبية أنه من الصعب حسم النزاع لصالح اليونانيين إلا بالالتجاء إلى القوة لصالحهم ، وأنه أصبح من واجب القوات البحرية المتحالفة أن تبدأ الاتصال بالثوار

(١) حول تفاصيل هذه المعركة انظر عبد الرحمن زكي : مرجع سابق ، ص ١٩٩-٢١١ .

(٢) محالط بحر برأ . محفظة رقم ١١ ترجمة القسم الخاص بالمورة من المكتبة رقم ٤٦ بتاريخ ١٢ رجب ١٢٤٢ هـ .

(٣) نفس الوثيقة .

(٤) انظر وثيقة رقم (١٢) تحت عنوان مقترحات محمد علي للسلطنة بشأن قبول وساطة الدول الكبرى وانهاء الأزمة اليونانية سلمياً .

إتصافاً ودياً ، وأن تصدر كل الإمدادات التي ترسلها الدولة العثمانية عن طريق البحر لمحاربيتهم .

- وإلى جانب ذلك حاصرت أساطيل الدول المتحالفة قوات إبراهيم باشا ، وكامت بتحذيره من التقدم بقواته أو خروج أسطوليه إلى عرض البحر حتى لا يتم استخدام القوة ضده . وكان رد إبراهيم باشا على هذا التحذير أن مهمته لا تشمل السياسة وأن التفاوض يكون مع محمد علي في مصر أو مع السلطان في الأستانة ، وحتى تصدر إليه التعليمات في هذا الشأن فإنه يتعهد بوقف جميع الأعمال الحربية التي تقوم بها قواته البرية والبحرية مؤقتاً بشرط توقف الثوار عن أعمالهم العدائية<sup>(١)</sup> .

وخلال ذلك بدأ اليونانيون يتحينون الفرصة للإيقاع بإبراهيم باشا واستغلال قواته خاصة بعد أن وصلتهم الإمدادات من أنحاء أوروبا فقاموا بحركات عدائية في خليج كورنثوس ، وحاصروا كريت وتجهوا في إيالة حامية عثمانية مما أدى إلى تخرج مركز القوات المصرية في باتراس patra ( شمالي مورة ) وجعل إبراهيم باشا يضطر إلى قطع حبل المهادنة ومطاردتهم ومن ثم أبحر إلى باتراس مع مجموعة من السفن الحربية مما عجل بوقوع الكارثة فقط أنه قاده الحلفاء بنقض الهدنة الملتقى عليها ، وأرسل " كوردنجتون " قائد الأسطول الإنجليزي سفنه لتعقب السفن المصرية ، وتهديدها بالحرب إذا لم ترجع من حيث أتت فاضطرت للعودة إلى نفارين . وعلى الرغم من ذلك فقد زحف إبراهيم باشا بقوة من جنده داخل المورة لإيجاد الحاميات المصرية التي تطاول عليها الثوار مما دفع قوات الأساطيل المتحالفة إلى اتهامه بنقض الهدنة واتخذت من ذلك ذريعة للتحرش بالبحرية المصرية العثمانية.

- وكانت السفن المصرية والعثمانية داخل الميناء في ثلاثة صفوف متوازية تقريباً كل في شكل نصف دائرة ، وكانت السفن الكبيرة والفرقاطات<sup>(٢)</sup> في الصف الأول ، يليها سفن القرويت<sup>(٣)</sup> ثم سفن الأبريق<sup>(٤)</sup> وغيرها بعدها في الصف الثالث . وكانت بنفارين استحكامات لتحمي مدخل الميناء كما وضعت بطاريات من المدافع في طرف جزيرة " أمفاختريا " مع مساعدة سفن خفيفة من الحراقات<sup>(٥)</sup> .

وخلال ذلك أرسل أمير البحر الفرنسي ( ريني ) إلى الضباط الفرنسيين العاملين في الأسطول المصري بترك أعمالهم والتخلي عن الخدمة في الأسطول المصري حتى لا يحاربوا فرنسيين مثلهم قابوا الدعوة<sup>(٦)</sup> .

(١) حول المكاتبات عن هذا الموضوع انظر . أمين سامي : تقييد النيل ج ٢ ص ٣٣٠ .

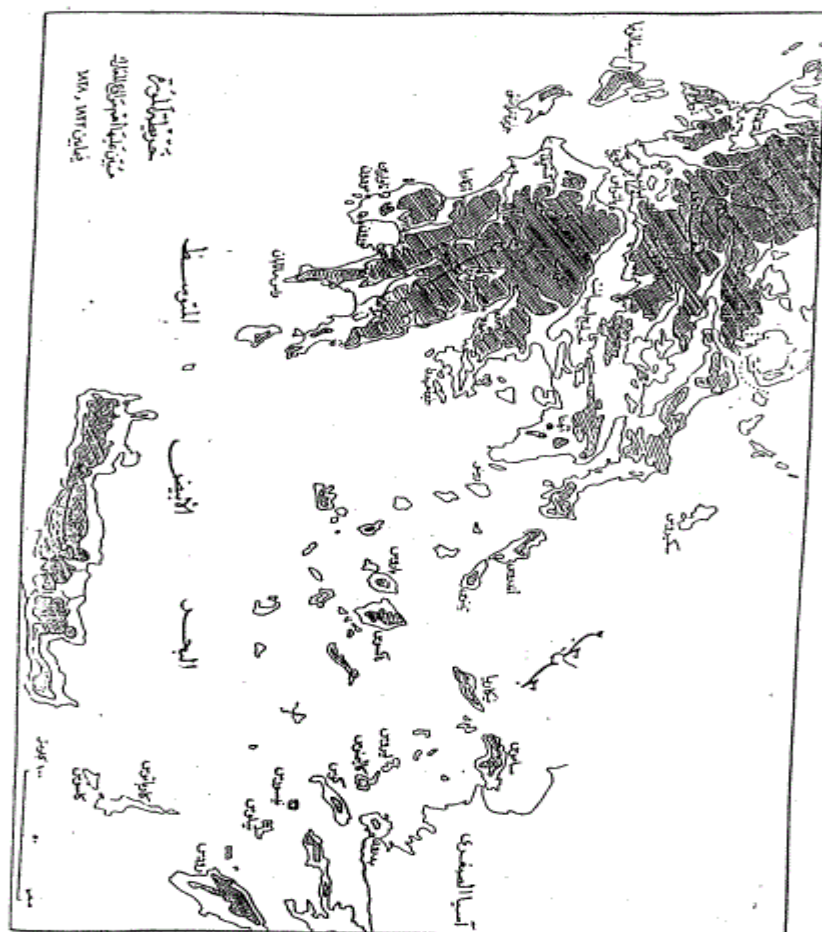
(٢) الفرقاطة كانت تحمل حوالي خمسمائة من الجنود ، و٦٤ مدفعاً كبيراً وصغيراً .

(٣) القرويت مركبة حربية يحمل حوالي مائتين من الجنود أو مائتين وثلاثين كما يحمل من اثنين وعشرين إلى خمسة وأربعين مدفعاً صغيراً وكبيراً .

(٤) الأبريق مركبة حربية له صاريان ويحمل من الجنود حوالي مائة كما يحمل مائتين ١٦ و ١٨ مدفعاً صغيراً انظر . عمر طلوسون : صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي ، الجيش المصري البري والبحري طبعة ١٩٤٠ ص ٢٠٩ .

(٥) الحراقات مركبة تشعل فيها النيران فتندفع وسط سنان الأعداء لتحرقها بذاتها ، وذلك عن طريق توجيهها بواسطة دفع الريح لشرائعها .

(٦) عبد الرحمن زكي : مرجع سابق ص ٢١٨ . - ٧٦ -





وفي منتصف الساعة الثانية من ظهر العشرين من أكتوبر ١٨٢٧ اقتحمت القوات المتحالفة اليوغا، واصطفت وفقاً لنظام حربي على شكل نصف دائرة تقريباً أمام الأسطول المصري<sup>(١)</sup> والعثماني واقتربت منه حتى أصبحها وجهاً لوجهاً. وخلال ذلك انطلقت رصاصات من سفينة مصرية على بحارة إحدى السفن الإنجليزية مما كان ذريعة لقيام سفن الحلفاء بإطلاق نيرانها في منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر العشرين من أكتوبر ١٨٢٧ على الأسطول التركي المصري، وتجاوبت المدافع، وعلا الدخان وتناثرت أشلاء القتلى في مشهد رهيب، وإستمر القتال حوالي ثلاث ساعات، وإنتهى بتدمير الأسطول المصري التركي في مذبحة مروعة، وفقدان حوالي ٣٠ ألف جندي.

وعلى الرغم مما حدث فقد رفضت الأستاتة أن تعترف بالهزيمة أو تدعن بأن تدمير أساطيلها يعني إنهاء القتال<sup>(٢)</sup> بل طالبت بإتخاذ التدابير اللازمة لإستمرار القتال في حين أخذ محمد علي - الذي تألم كثيراً عند سماعه خبر تدمير قوة مصر البحرية الوليدة<sup>(٣)</sup> - أخذ يبحث عن وسيلة للخروج من هذا المأزق الخطير خاصة وأنه أخذ يشعر بالمخاطر التي يمكن أن سببها له الدول الأوروبية، وكانت الوسيلة المثلى أمامه هي المفاوضات وعقد الصلح مع الحلفاء وقد تم ذلك في الثالث من أغسطس ١٨٢٨ والذي تم بمقتضاه جلاء قوات إبراهيم باشا عن شبه جزيرة المورة، والتعهد بإعادة الأسرى اليونانيين، وعدم إجبار اليونانيين المقيمين بمصر على مغادرتها في نظير إعادة جميع الأسرى المصريين والسفن المصرية التي إستولى عليها الحلفاء في الحرب<sup>(٤)</sup>.

ونتيجة لذلك صدرت الأوامر للقوات المصرية بإخلاء المدن اليونانية والإستعداد للرحيل إلى مصر دون إنتظار لأوامر السلطان مما أخرج مركز الباب العالي، واضطره في النهاية إلى الإعتراف بالإستقلال الذاتي لبلاد اليونان<sup>(٥)</sup>.

ومما مثير يتضح أنه على الرغم من خسارة مصر الفادحة في هذه الحرب بعد ضياع الأسطول الذي إستترى محمد علي وحداته من مختلف الممالك الأيوبية، فإن المكاسب السياسية كانت كبيرة فقد تفاوضت الدول الأوروبية ولأول مرة مع محمد علي دون وساطة الدولة العثمانية مما أكسب مصر منزلة سياسية أشبه ما يكون بالإستقلال الفعلي عن تركيا، وإلى

<sup>(١)</sup> كانت وحدات الأسطول المصري المتواجدة خلال المعركة إحدى وثلاثين قطعة تتألف من أربع فرقاطات، وعشر سفن من نوع القرويت، وست سفن من نوع الإبريق، وخمس من نوع القوالت، وست حراقات هذا بالإضافة إلى الثقافات الكبيرة.

محمد فؤاد شكرى وأخراش: بناء دولة مصر محمد علي - السياسة الداخلية، القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٤٨ ص ١٣٨.

<sup>(٢)</sup> أمين سامي: مرجع سابق ج ٢ ص ٢٣١.

<sup>(٣)</sup> سجل رقم ٣١ معية تركي - صورة ترجمة الكتاب رقم ١٨ بتاريخ ١٣ ربيع آخر ١٢٤٣ هـ من محمد علي إلى محرم بك.

<sup>(٤)</sup> عن نص شروط هذا الإتفاق أنظر:

Dodwell, H.L. The founder of Modern Egypt - A study of Muhammed Ali, Cambridge, 1931 p.22

وأيضاً إسماعيل سرهناك: حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤١.

<sup>(٥)</sup> عقدت الدول الأوروبية معاهدة في لندن عام ١٨٢٧ أجبرت فيها الباب العالي على الإعتراف بإستقلال اليونان الذاتي، وفي عام ١٨٣١ استلخ الشعب اليوناني لتتراجع إستقلاله التام ونجح في استخلاص حريته وأعطى بذلك مثلاً للشعوب التي كانت تهدف إلى تحرير نفسها.

جانب ذلك فإن هذه الحرب كانت أول معركة يخوضها الجيش المصري في أوروبا مما أقتسبه تدريباً عملياً على خوض المعارك الحديثة .

ومع ذلك فإن تورط محمد علي في شئون أوروبا السياسية قد أنهك موارده إلى حد كبير خاصة وأن ما أنفقته من الأموال الطائلة على بناء سفنه ، وفي شراء المسنن والذخائر التي تدفقت على المورة ، ثم إن ما جمعه من الرجال ودرّبه من الجنود ، وبعث به إلى ميادين القتال كل هذا قد ذهب أدراج الرياح بين عشية وضحاها بعد أن عاد جيئة من المورة وهو في حالة عجز وفقدان للثقة وبؤس شديد<sup>(١)</sup> .

وعلى أي حال فقد إشتد ضيق السلطان من محمد علي لتفاوضه مع الدول الأوربية دون إذنه ، وسحبته لتواته دون الرجوع إليه ، كما بدأ محمد علي يراجع خطته تجاه الباب العالي الذي لم يكافئه على خدماته رغم تحطيم إسطولهم مما جعله يفكر جدياً في توسيع رقعة أملاكه على حساب الدولة العثمانية وذلك بالإستيلاء على بلاد الشام .

(١) بعد عودة هؤلاء الجنود إلى مصر وهم في حالة سيئة وخسّر محمد علي لبعضهم بالإقامة في بلادهم سنة أو أكثر من أجل استعادة الثقة إلى نفوسهم ، ثم صدرت إليهم التعليمات بعد ذلك بالحضور إلى القاهرة وتزويج من يصلح منهم في أورطة جديدة .  
الوقائع المصرية العدد ١٩٦ في ١٨ ربيع الآخر ١٢٤٦ هـ (١٨٢٠) تحت عنوان حوادث الجهادية .



\_\_\_\_\_

.

.

.

.

.

.

## الموضوع الثامن

### محمد علي والخليج العربي

١٨٣٨ - ١٨٤٠

تتناول هذه الدراسة آمال محمد علي وتطلعاته في الوصول إلى منطقة الخليج إستكمالاً لتحقيق آماله في السيطرة على الجزيرة العربية كلها وموقف الحكومة البريطانية غير الودى من هذه الآمال والتطلعات.

فبعد وصول قوات خورشيد باشا - سر عسكر نجد والمفوض من قبل محمد علي - إلى الإحساء والقطيف بدأ والى مصر يتطلع إلى ضم البحرين وجعلها تابعة للسيادة المصرية خاصة وأن بها ميناءً صالحاً للملاحة على الخليج يمكن أن يساعد في تحرك قواته بالسرعة اللازمة في هذه المنطقة .

ونتيجة لذلك كلف محمد علي خورشيد باشا بالإعداد لذلك الأمر، وبعد أن درس خورشيد باشا الطرق المتعددة لتنفيذ أوامر سيده ، رأى أن الطريقة المثلى لذلك هى التفاوض مع شيخ البحرين عبد الله بن حمد آل خليفة ومن هنا شرع في تكليف معاونه محمد رفعت بك <sup>ك</sup>وكيلاً مفوضاً من طرفه لهذا الغرض (١). وتبعاً لذلك قام محمد رفعت بزيارة سريعة إلى البحرين في ١٥ فبراير ١٨٣٨ م (١٢٥٤ هـ) للوقوف على أمورها وكتابة تقرير عنها ، وفي هذا التقرير أوضح محمد رفعت الضرورة

الحيوية لضم البحرين إلى حكومة محمد علي<sup>(٢)</sup> خاصة لما تتمتع به من رواج إقتصادي يتوقف عليه إستقرار الأمور في الإحساء والقطيف<sup>(٣)</sup>.

وإلى جانب ذلك أرسل شيخ البحرين برسالة إلى خورشيد باشا يطلب منه المساعدة ضد أبناء أسرته الثائرين عليه ، وقد رد عليه خورشيد بأن دخوله في طاعة محمد علي سيساعده على إزالة الخطر الذي يهدده ، وأن هدفه ليس جمع المال منه بل أن كل ما يهمه هو تأمين الطرق والوقوف صفاً واحداً معه ضد القرس والإنجليز الطامعين في بلاده ، كما ذكر له أنه سيرسل إليه محمد رفعت كوكيل عنه للإتفاق معه على ما يمكن التوصل إليه من أمور<sup>(٤)</sup>.

وبعد أن وصل محمد رفعت إلى البحرين ، ووض مع شيخها وجد أن أفكاره قد تغيرت تجاه تعاونه معه نظراً لمعارضة حكومة بغداد والإنجليز لأى إتفاق يعقده شيخ البحرين مع مندوبى محمد علي .

وبعد جهود مضيئة نجح محمد رفعت إقناع شيخ البحرين بتوقيع إتفاق في مايو ١٨٣٩م (١٢٥٥هـ) يقضى بأن يكون شيخ البحرين حليفاً لمحمد علي يقدم له كافة المساعدات التي يطلبها كلما لزم الأمر ، وأن يقوم دفع مبلغ ٢٢٠٠ ريال فراتسه<sup>(٥)</sup> كزكاة سنوياً<sup>(٦)</sup> في نظير أن تتعهد الحكومة المصرية بتأمينه على إمارته وأمواله وأملاكه ومساعدته ضد أعدائه<sup>(٧)</sup>.

ومن الملاحظ أن إستخدام كلمة زكاة لوصف المبلغ الذى تقرر أن تدفعه البحرين لمصر يختلف عن لفظ الجزية أو الضريبة فدفع الزكاة عادة لا يؤخذ إلا من بلاد إسلامية ، ولا تصرف أموالها إلا فى شئون الدولة الإسلامية مما يدل على أن العلاقة بينهما قامت على أساس الرضا المتبادل المنطلق أساساً من روح الإسلام وتعاليمه أكثر من كونها تبعية سياسية أو فرض هيمنه (٨) وإلى جانب ذلك فإن المبلغ الذى أتفق عليه مع مندوب محمد على كان يقل كثيراً عما تفرضه الدول الأخرى التى تريد فرض هيمنتها على البحرين مثل فارس مما يعنى ان الهدف من هذه المعاهدة كان لتبادل المصالح المشتركة أكثر من كونه معاهدة حماية .

وعلى الرغم من كل ذلك فإن الوثائق توضح لنا أن هذه الإتفاقية لم تستمر طويلاً ولم تنفذ بنودها (٩) خاصة وأن الحكومة الإنجليزية كانت ترى فى التوسع المصرى على حساب المشيخات أو الإمارات الصغيرة فى الخليج يهدد مصالحها فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ومن هنا عملت بريطانيا على مواجهة مشروعات محمدعلى فى منطقة الخليج عن طريقين هما :

#### ١- التهديد والوعيد .

حيث أمرت الحكومة الإنجليزية القائد العام لأساطيل بريطانيا فى الشرق بالتوجه لمنطقة الخليج لإيقاف النفوذ المصرى هناك ،

وتركت له مطلق الحرية لتحديد الحالات التي يمكنه أن يستخدم فيها القوة ومن بينها حالة إنزال قوات مصرية إلى البحرين (١٠) وإلى جانب ذلك أرسلت إلى محمد علي تحذره بأنه في حالة محاولته السيطرة على البحرين أو مد سلطانه على الخليج فإن الحكومة البريطانية لن تقف مكتوفة الأيدي بل ستمنع هذه المحاولة بكل الوسائل.

#### ٢- الدبلوماسية.

حيث حاولت بريطانيا إقناع عبد الله بن أحمد آل خليفة بإلغاء هذا الاتفاق لأنها لا ترضى بأى حال من الأحوال حيث أنه يخالف ما بينهما من إرتباطات ، كما حرضته على عدم الإستسلام لطلبات مندوبى محمد علي ، ووعده بالحماية فى حالة العدوان عليه (١١) ، وبأنها لن تأخذ منه أموالاً ، ولا تفرض عليه جمارك لمدة ٢٥ سنة (١٢).

ولما كان شيخ البحرين يعنيه تأمين سسلته ضد منافسيه والطامعين فى إمارته قبل أى شىء آخر فقد تراجع عن إتفاقه مع حاكم مصر ، وفضل الإعتماد على الإنجليز ، مما أضعف موقف محمد على الذى كان يخشى غضب إنجلترا وتحذيراتهما له، وجعله يصدر أوامر إلى خورشيد باشا بالكف عن التدخل فى شئون البحرين .

وعلى الرغم من ذلك فإن الوثائق توضح لنا مدى القلق الذى كان ينتاب الحكومة الإنجليزية نتيجة محاولات محمد على

- الأخرى فى بسط نفوذه على الخليج بإدعائه فى أحقيته فى أن يرث النفوذ السعودى فى المناطق التى كان يمتد إليها هذا النفوذ قبل سقوط الدولة السعودية الأولى ، وفى إستخدامه للحكام المحليين من أبناء الأسرة السعودية خاصة بعد المحاولات التى قام بها خالد بن سعود الذى عينه محمد على أميراً على نجد ، والذى نجح فى التوغل تجاه البريمى وإمارات الساحل العماني وطالب أمام مسقط بالجزية التى كان يدفعها من قبل لآل سعود (١٣) هذا إلى جانب ترحيب بعض مشيخات وإمارات الخليج كالشارقة ورأس الخيمة وأبوظبى والكويت بمبعوثى محمد على إليهم بصفته حاكماً مسلماً أخذ بأساليب الحضارة الحديثة ، وبصفته أيضاً وريث الدولة السعودية (١٤).
- ونتيجة لذلك حاول الإنجليز إحتواء الموقف بعرقلة جهود محمد على فى منطقة الساحل العماني فأتصلوا بالقوة المحلية فى المنطقة لإقامة تحالف ضد تدخل خورشيد باتشا وطالبوهم بالمحافظة على إستقلالهم ووعدهم بالأسلحة والذخائر ، كما طالبوهم بعدم إقامة أى علاقات ودية مع مندوبى محمد على ورفض مطالبهم (١٥) وإلى جانب ذلك فقد طلب المقيم البريطانى فى الخليج المستر "هينل" HENNEL من سعد بن مطلق المطيرى مندوب محمد على فى هذه المنطقة ضرورة مغادرتها فوراً (١٦).
- ونتيجة للتهديدات البريطانية الواضحة لأى محاولة توسعية لمحمد على فى الخليج ، ونظراً لأن محمد على لم تكن لديه

إمكانيات الوقوف أمام هذا التحدي السافر خاصة وأنه لم يكن يمتلك القوى البحرية اللازمة والقادرة على مواجهة سيدة البحار في ذلك الوقت ، هذا بالإضافة إلى رغبته في إرضاء إنجلترا التي كان يحتاج إلى مؤازرتها خلال مشروعاته التوسعية في أملاك الدولة العثمانية بالشام كل ذلك أدى إلى توقف التفوذ المصري تجاه مياه الخليج العربي وإن بقيت تطلعات محمد على تجاه دجلة والفرات والكويت قائمة خاصة وأن خورشيد باشا كان قد أرسل مندوباً من طرفه للشيخ الكويت ، وأن شيخ الكويت أبدى إستعداده للتعاون مع هذا المندوب كما مد يد العون لخورشيد باشا(١٧) ولكن الإنجليز أفسدوا هذه المحاولة بالضغط على شيخ الكويت حتى تراجع عن موقفه الودى تجاه خطط محمد على . وبالنسبة لمحاولات محمد على غزو العراق لإبعاد التفوذ العثماني هناك فقد وقفت لها بريطانيا بالمرصه " نظراً لتأثيرها المباشر على مصالحها في الهند(١٨) حيث بدأت التحذيرات تتوالى على محمد على محذرة إياه بأنها لن تقف مكتوفة الأيدي إذا تجاوز حدوده وأقدم على غزو العراق كما أرسلت الحكومة البريطانية بعض قواتها إلى البصرة حتى يكون تواجدها في هذه المناطق عائقاً أمام تحركات محمد على . وهكذا نظرت إنجلترا إلى تحركات قوات محمد على في الخليج نظرة الشك والإرتياب ولم يتزعزع موقفها في إقامة العوائق أمام تحركاته خشية أن يأتي وقتاً يتحكم فيه محمد على

في الساحل العربى من الخليج فيضّر ذلك بمشروعاتها التى تخطط لها هناك ، ويسيادتها فى مياه ذلك الخليج . وإستمرت مخاوف الإنجليز تجاه أطماع محمد على فى الخليج قائمة حتى تطور الخلاف بين محمد على والسلطان إلى درجة الصدام وحدثت موقعة نزيب الذى إندحر فيها الجيش العثمانى أمام القوات المصرية وإنتهاء الأمر بسحب محمد على لقواته من الجزيرة العربية تنفيذا لمعاهدة لندن ١٨٤٠ .

وبذلك إنتهى الحكم المصرى فى الجزيرة العربية تماماً ، وتخلّى محمد على عن مشروعاته تجاه شرقى الجزيرة العربية .



---

•

•

•

•

•

•

•

## الموضوع التاسع

### القوى الأوروبية وحكم محمد على باشا

#### بلاد الشام

أدركت القوى الأوروبية عواقب الهزات التي أحدثها استيلاء محمد على على بلاد الشام، وأجمعت - باستثناء فرنسا - على إخراجها، خاصة وأنها كانت تنظر بعين القلق إلى تعاظم قوته، وإلى أطماعه التوسعية. هذا بالإضافة إلى أنها كانت ترى في بقاء كيان الدولة العثمانية عاملاً مهماً في حفظ توازن القوى في أوروبا وأن نجاح محمد على في اقتطاع أجزاء من أملاكها يتعارض مع مصالحها الحيوية. وقد تزعمت إنجلترا هذا الموقف خاصة وأنها كانت تخشى من مزاحمة محمد على لسيادتها على طريق الهند، فامتداد نفوذ مصر إلى بلاد الشام يجعل لها الإشراف على طريق الهند من ناحية الفرات والعراق فضلاً عن طريق البحر الأحمر وبرزخ السويس. يضاف إلى ذلك أنها كانت تخشى من استقلال روسيا للموقف بحجة مساعدة السلطان في أزمتها وهذا ما كانت تتجنبه أوروبا التي كانت ترى في أطماع روسيا في الوصول إلى المياه الدقيثة والسيطرة على الدرنيل والبسفور خطراً عليها.

ولما شعر محمد على أن أوروبا لا تنتظر بعين الارتياح إلى أطماعه التوسعية ، وإلى حرصها على إيجاد المصاعب أمامه لإجباره على الانسحاب من بلاد الشام ، حاول تجنب معاداتها خاصة وأنه كان يدرك عدم مقدرته على مقاومة هذه الدول . ونتيجة لذلك حاول محمد على خطب ود إنجلترا التي كانت تتزعم جانب المعارضة له ، ففاجئها في القوائد التي يمكن أن تجنيها من إقامة صداقة متينة معه ، كما أوضح لها أنه لا يهدف من حروبه في الشام سوى تجديد شباب السلطنة ، وأنه لا يبغي الجلوس على عرش آل عثمان كما كان يتردد ، ولكن إنجلترا رأت أن حكم محمد على لبلاد الشام يتعارض مع أهدافها ، وأن اجتماع عناصر السلطة في يده يمثل خطرا على مصالحها التجارية ، وأن تظاهره بالاستكانة لا يرجع إلى رغبته الحقيقية في صداقتها بقدر ما يرجع إلى مهادنتها حتى يتمكن من تثبيت مركزه ثم يقوم بإملاء شروطه . لذلك شجعت إنجلترا أهالي الشام على العصيان ، ومقاومة قوات محمد على ، وأمدتهم بالبارود والرصاص والطعام بهدف إيجاد العوائق والمصاعب أمام القوات المصرية واجباها على الانسحاب<sup>(١)</sup> .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد حاول محمد على تثبيت أقدامه ، وتحقيق أغراضه في بلاد الشام باستغلال ما بين الدول الأوروبية من خلافات ، خاصة وأنه كان بهل أن هذه الخلافات لا تشنى الدول الأوروبية عن الاتفاق ضده ، وأنها لا تنكره يستأثر بالإث وحده ، ويقوم بالسيطرة على مقاليد الأمور في السلطنة العثمانية<sup>(٢)</sup> . وكان أن استغل محمد على علاقته الودية مع فرنسا في مساومة إنجلترا وباقي الدول الأوروبية وفي الاستناد عليها ، ومعاونتها وتأييدها له خلال تلك الأزمة .

ولما فاتح محمد على الدول الأوروبية بشأن تطلعاته في تكوين دولة تمتد حدودها إلى أقصى بلاد الشام عارضته إنجلترا أشد المعارضة ، وحذرت من عواقب تلك الخطوة وهددته باستخدام القوة إذا تمسك برأيه<sup>(٣)</sup> . وعلى الرغم من ذلك طالب محمد على السلطان محمود الثاني بأن يكون حكم مصر والشام وراثيا في ذريته ، مما أغضب السلطان وجعله يسرع بإعلان الحرب عليه . فبعثت الدولة العثمانية إلى بلاد الشام جيشا كبيرا تحت قيادة حافظ باشا وذلك لمقاتلة القوات المصرية ، وطردها من هناك . ونتيجة لذلك زحف إبراهيم باشا بقواته حيث تجمع الجيشان بالقرب من سهل "نزيب" .

وهناك في الحادي عشر من ربيع الثاني ١٢٥٥ هـ الموافق الرابع والعشرين من يونيو ١٨٣٩ دارت معركة حامية انتهت بهزيمة القوات العثمانية<sup>(٤)</sup> ، وفتح أبواب عاصمة الخلافة على

مصراعيهها أمام القوات المصرية . هذا فى الوقت الذى تولى السلطان العثمانى محمود الثانى<sup>(٥)</sup> وخلفه السلطان الناصر عبد المجيد ، وفى الوقت الذى قام قائد الأسطول العثمانى بتسليم سفنه بكامل ذخائرها ومعداتنا إلى محمد على ، مما كان له أكبر الأثر فى إسراع الدول الأوربية بالتدخل لوقف تداعى أركان السلطنة ، خاصة بعد أن انتهزت روسيا الفرصة ، وحاولت بسط حمايتها الفعلية على تركيا ، بحجة منع امتداد نفوذ مصر إلى ضفاف الدردنيل والبسفور ، وتأسيس محمد على دولة قوية تقوم على أنقاض عرش آل عثمان ، فأعلنت عن استعدادها للدفاع عن عرش السلطنة مما قلقل التوازن الأوربى ، وفتح باب المسألة الشرقية على مصراعيه .

وكان أن جاهر ت إنجلترا بعدائها لمصر معلنة ضرورة المحافظة على كيان الدولة العثمانية ، وإخضاع محمد على بالقوة وإجباره على إعادة بلاد الشام للسلطان ، ورد الأسطول التركى إلى الدولة العثمانية .

هذا عن إنجلترا أما بالنسبة للنمسا فقد عارض وزير خارجيتها "مترنيخ" فكرة التساهل مع محمد على ، خاصة وأنه كان يرى فى وقوف محمد على ضد الدولة العثمانية ما يتناقض مع مواقفه وسياساته الخاصة بمقاومة الحركات الاستقلالية ، ورفضه فكرة الخروج على السلطة الرسمية . لذلك طالب أوربا باتخاذ قرار عاجل لوقف أطماع محمد على التوسعية<sup>(٦)</sup> . وبالنسبة لروسيا كانت سياستها المناقضة للسياسة الفرنسية تجعلها تقف فى الخط المناهض لمحمد على<sup>(٧)</sup> .

أما فرنسا فبالرغم من الصداقة بينها وبين محمد على ، فإنها وجدت أنه يصعب عليها معاداة أوربا من أجله ، وأنها على غير استعداد لخوض غمار الحرب ضد إنجلترا تأييدا لأطماعه<sup>(٨)</sup> لذلك حاولت ترجيح كفتها السياسية على الإنجليز والروس حتى يمكن أن يكون لها موطأ قدم فى بلاد الشام<sup>(٩)</sup> .

ونتيجة لذلك اتفق سفراء الدول الأوربية بما فيهم فرنسا على إرسال مذكرة للسلطان العثمانى عبد المجيد الذى كان قد بدأ اتصالاته مع محمد على من أجل الصلح ، يطالبونه ألا يبرم أمراً فى شأن المسألة المصرية قبل إطلاعهم عليه ، خاصة وأنهم بصدد إعداد مشروع لتسوية المسألة تسوية نهائية<sup>(١٠)</sup> .

والغريب هو أن تشترك فرنسا في هذه المذكرة ، فتناقض سياستها تجاه المسألة المصرية<sup>(١١)</sup> على الرغم من أن فرصتها في التدخل للوساطة بين الطرفين كانت سانحة ، وربما لو حدث ذلك لحصل محمد علي على شروط أفضل ، ولكن موقفه أقل إذلالا مما حدث . لقد جعلت فرنسا محمد علي يعتمد عليها ، ثم تركته وحيدا في الميدان بلا أي سند ، مما أتاح لآنجلترا فرصة الانفراد بالعمل ، وأدى إلى نجاحها في تأليب باقي الدول ضده . وانتهى الأمر بعقد معاهدة لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠ (١٢٥٧هـ) وهي التي ألزمت محمد علي بالتخلي عن بلاد الشام فيما عدا الجزء الجنوبي منه ، وإرجاع الجزيرة العربية إلى الدولة العثمانية والاكتفاء بمصر<sup>(١٢)</sup> كي يحكمها هو وأكبر أفراد أسرته من بعده ، بحيث تنتقل إلى الأرشد فالأرشد من ذريته عن طريق الوراثة ، ولايتى عكا وصيدا ليحكمها فترة حياته فقط ، وأن ينسحب من سوريا وكريت وبلاد العرب ، وغيرها من الجهات التي بها جنوده في مدة عشرة أيام . وإن رفض ذلك بعد انتهاء هذه المدة ، يسقط حقه في صيدا وعكا . وإن استمر رفضه في العشرة أيام التالية لرفضه الأول تقوم الدول الأوروبية بمساعدة الدولة العثمانية عسكريا ضده .

وقد رفض محمد علي شروط هذه المعاهدة وصمم على التمسك بالبلاد التي فتحها الجيوش المصرية ، وأخذ في الاستعداد للدفاع عنها ، خاصة وأن فرنسا حرضته على ذلك . وهكذا انتهت فرصة العشرة أيام الأولى بضياع عكا وبدأ العد التنازلي للأيام العشرة الثانية . ولإرهاب محمد علي بدأ الأسطول الانجليزي في ضرب بيروت والمدافع ، وفي إذكاء نار القنن في لبنان ضد الحكم المصري ، كما استطاع التحالف الأوروبي تأليب أهالي الشام ضد محمد علي ووجوده<sup>(١٣)</sup> فأمدوهم بالسلح لإعلان الثورة والنصيان عليه من الداخل . بينما قامت الأساطيل الأوربية بمحاصرة السواحل المصرية وضربها ، مما أدى إلى تخرج مركز الجيش المصري بعد أن صار هدفا لتارين : نار الثورة ، ونار أساطيل الحلفاء . وبعد أن تم للحلفاء احتلال الشغور السورية . وتمكنوا من قطع مواصلات الجيش المصري ، أبحرت بعض السفن الحربية إلى مياه الإسكندرية للقيام بمظاهرة بحرية<sup>(١٤)</sup> لإجبار محمد علي على الإذعان لمطالب الحلفاء . ولما شعر محمد علي بحرج موقفه ، خاصة بعد انسحاب فرنسا من الميدان ، ووجد نفسه محاصرا ومحاطا بالأعداء من كافة الجهات وأنه يقف بمفرده أمامهم ، اضطر إلى إصدار أوامره العاجلة إلى إبراهيم باشا بإخلاء بلاد الشام قورا ، فعاد إبراهيم مسرعا بطريق البر إلى مصر<sup>(١٥)</sup> كما رضخ محمد علي لفرمان ١٨٤١م الذي يقتضى بإخراجه من الجزيرة العربية .

• وبلاذ الشام ، وكريت ، وقصر نفوذ على ولاية مصر<sup>(١٦)</sup> بحيث تنقل بعد وفاته بالإرث لأولاده وأولاد أولاده الذكور ، بشرط أن يتولى الأكبر فالأكبر فيقلده الباب العالي منصب الولاية كلما خلا هذا المنصب من وال<sup>(١٧)</sup> وبذلك عادت مصر إلى حدودها القديمة ، كما تم تحديد قواتها المسلحة بحيث لا تزيد عن ١٨ ألف جندي ، وأن تدفع للدولة العثمانية ٣٢٠ ألف جنية سنويا .

وهكذا نجحت الدول الأوروبية في تحطيم آمال محمد علي وتطلعاته ، وفي تحجيم دوره في المنطقة العربية . ومع ذلك فإن ما حدث قد رفع مركز مصر من ولاية مثل غيرها من ولايات الدولة العثمانية إلى ولاية ذات امتيازات خاصة أو بمعنى آخر ولاية مستقلة استقلالاً مقيداً بقيود السيادة التركية .

---

•

•

•

•

•

•

## الملاحق

### وثيقة رقم (١)

موضوعها : مساندة بعض الأوروبيين للثوار ضد قوات محمد علي .

مصدرها : محافظ عابدين - محفظة ٢٥٩ - وثيقة رقم (١٧) .

صورة الإفادة الواردة من حضرة محافظ بيروت مكتوبة في ١٤ ربيع الثاني ١٢٥٦هـ إلى حضرة سليمان باشا .

أبلغت دولتكم في إفادتي المكتوبة في ٩ ربيع الثاني ١٢٥٦هـ أنني سأقوم بإجراء تحقيق فيمن يقوم بإعطاء بارود ورمصاص للعصاة وتحريضهم على العصيان هنا بناء على أمر دولتكم المرسل إلى مكتوب في ٧ منه في هذا الشأن ثم أبلغتكم في ١١ منه الاخبار التي استقيتها على قدر الإمكان في هذا الشأن فكتبتم لي في ١٢ منه أمركم الذي أنبأتموني به بأنكم ستأوونني بما يجب في هذا الشأن بعد ساعتين من تاريخ أمركم الأخير هذا رأيت أن أبلغكم ما وصلت إليه التحقيقات التي قمت بها في هذا الشأن وهو أنني قد علمت أن فرنسا يسمى انفروا ويكونت مابين عشرين وثلاثين سنة من العمر كان جنديا في الجيش الفرنسي مقيم بجهات الذوق هو الذي يد هؤلاء العصاة بالرمصاص والبارود ولما زاروه أخيرا وزع على كل منهم قرشين ونصف قرش ومائة درهم بارودا وكمية من الرصاص ومركوبا ووساما صليبيا يسمى قوقادور فوق الخلال بينهم لانتفاع فريق من هؤلاء بهذه العطايا مضاعفة حيث وزعت عليهم عشرين ولما انتشر هذا الخلال فيما بينهم قال لهم اذهبوا الى الحرش الكائن في طريق بيروت فها أنذا أيضا قادم إلى هناك من ورائكم فأرسلهم إلى هناك وقد بلغني أنه وصل اليوم إلى هناك مع أربعماية شخص ومعنى محاولاته هذه هو للاستيلاء على بيروت كما أن وكيل القاصد البابوي البولوني المقيم في ذوق لا ينفك عن معاونة هؤلاء العصاة ولا يزال يؤيدهم في عصيانهم هذا كما سمعتم به دولتكم وأن هذين الشخصين من طائفة الجيزويت أي ممن تبذتهم ملة النصرى لغلوهم في الزهد والريا فتمكننا من المقام بين هؤلاء العصاة ومن التأثير فيهم فشرعا في إحداث غائلة كهذه الغائلة ومعنى كلمة القاصد في الديانة المسيحية هو مطران فريق من النصرى الكاثوليك فمن المسلم به أن كافة القسس من هذا المذهب لن يخالفوا وكيل



قاصدهم هذا وسيببقوته حتما وأنه ورد إلى أخيرا كتاب من شخص فرنسي تسمى باسم عبد الله كان ضابطا برتبة الكباشي في آلاى المدرعين ثم استقال من الخدمة العسكرية الا لأنه شتمها وقد قال في الكتاب أنه سرد إلى أمر من حضرة الباشا السر عسكر خاص به فيطلب إرساله إليه ثم وصف العصيان القائم في الجبل . وقد كان امضاء الكتاب بعنوان «د . ميناق الذي في الاجازة» ولما كان بلغنى أن شخصا يلزم بالعربية الماما تاما يقيم مع الكونت الموما إليه كان قد سافر من طرابلس إلى بيروت ومنها إلى الجبل فلعل هذا الشخص هو عبد الله المذكور لانطباق هذه الأوصاف عليه ومن البدهى أن شخصا آخر ساردونيا عدا هؤلاء الأعوان يقوم بمعاونة أولئك العصاة . هذا وبينما كنت مشغولا بكتابة هذه الإفادة إذ بأمركم العاني الصادر في ١٣ ربيع الثاني ١٢٥٦ هـ . ورد الي فتلوته فياذ بدولتكم تشيرون إلى عدم ايتاني إياكم بأخبار منذ نحو يومين إلا التي ما قصرت في ابلاغكم ماحدث هنا منذ نحو يومين حيث اتنى أبلغتكم في افادتي المكتوبة في ١٢ ربيع الثاني ١٢٥٦ هـ وصول الأورط الى هنا وكيفية وقوع الحرب وهذا عدا ما كتبت في ١١ الجاري كما أبلغتكم بتاريخ افادتي هذه التي لاتعتبر الا افادة فاذن لست مقصرا في ابلاغكم الأخبار والأمر التي تحدث هنا بل مبادرا الى ابلاغكم اياها يوما فيوما وأنه لايزال الأوروبيون يخرجون كل يوم من بيروت يختلطون بالعصاة ثم يعودون الى بيروت ولما كان هذا مما يشير اشاعات خطرة بين الناس يجعلهم في حيرة من أمرهم عدا أنه يمكن كل شخص خبيت عن لا اخلاق له من ابداء اشاعات الخبيثة التي تخطر بباله في هذا الشأن بين الناس كيفما خطرت له مثلما حدث ذلك في ثورة جزيرة المورة فانتى قد رأيت من الصواب أن يتفضل دولتكم باصدار أمر إلى قناصل الدول ببيروت بمنع خروج وعاباهم من بيروت واختلاطهم بالعصاة منعا لوقوع هذه الاشاعات وظهور هذه الأخطار الخبيثة بين الناس وعلى كل حال .. فالرأى لدولتكم .

يستخلص من هذه الوثيقة مايلي :

- ١- الاستعلام عن طريقة إمداد العصاة بالبارود .
- ٢- التوصل الى أن أحد الفرنسيين قام بمد العصاة بالرصاص والبارود .
- ٣- قيام شخص سرديني بمعاونة العصاة .
- ٤- اختلاط بعض الأوروبيين بالعصاة واستنفارهم ضد قوات محمد علي .

**الموضوع العاشر**  
**موقف الدولة العثمانية من توسعات محمد علي**  
**في بلاد الشام**  
**(دراسة في وثائق عابدين)**

تعمد هذه الدراسة على مجموعة منتقاة من وثائق عابدين الخاصة ببلاد الشام والتي ترجمت من التركية إلى العربية تحت إشراف الحكومة المصرية في عهد الملك فؤاد بهدف إحياء ذكرى والده إسماعيل وجديه إبراهيم ومحمد علي. والواقع أن بلاد الشام كانت مطمح أنظار محمد علي منذ حروبه في الجزيرة العربية<sup>(١)</sup> فقد طلب من السلطان إضافة منصب إيالة الشام إلى منصب والي مصر مبررا ذلك بإمكانية جمع الجنود من هناك، وتكوين الجيوش لمحاربة رجالات الدعوة السلفية، ولكن طلبه كان مصيره الإهمال.

ولما قامت حرب المورة قرر محمد علي طلبه إلى السلطان بأن يضاف إليه حكم سورية بجانب حكمه لمصر تعويضا عما تكبده من خسائر في هذه الحرب، ونظرا لرفض السلطان لهذا الطلب للمرة الثانية حاول محمد علي ضم هذه البلاد بالقوة لاستغلال مواردها التي تفتقر إليها مصر، وحتى تكون حاجزا حصينا بين مصر والدولة العثمانية إذا ما فكرت الأخيرة في محاربته.<sup>(٢)</sup>

وعن التوقيت الذي اختاره محمد علي لمحاربة السلطان، ومحاولته اقتناص بلاد الشام منه فيمكن القول أنه اختار الوقت المناسب لذلك.

(١) أسد رستم: المخطوطات الملكية المصرية- بيان وثائق الشام- بيروت، ١٩٤٠، ص ١٢٣.  
(٢) عبد الرحمن الرفاعي: عصر محمد علي، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥١، ص ٢٤٤.

- وفي الوقت الذي كانت فيه الدول الأوروبية منهمكة في مسائلها الداخلية وتتنازع كل منها السيادة على أوروبا بعد تصفية الإمبراطورية النابليونية وفي الوقت الذي أصبحت فيه الدولة العثمانية تمثل رجل أوروبا المريض المنهك القوى نتيجة للثورات الداخلية التي لاحقتها في كل جانب ولحروبها المتعددة التي خرجت منها منهكة القوى .

وفي الوقت الذي قامت فيه الدولة العثمانية بتصفية الانكشارية الذين كانوا بمثابة العمود الفقري للجيش العثماني انتزع محمد علي حاكم مصر كل هذه الفرص لظهور قوته أمام السلطان محمود الثاني وبخاصة أن جيشه كان في حالة طيبة ، ولأنه كان قد اجتذب إليه الأمير بشير الشهابي كبير أمراء لبنان في ذلك الوقت (١) .

وقد تذرع محمد علي في ذلك بنزاعه مع عبد الله باشا أنجزار والي صيدا (٢) الذي كان قد شجع الآلاف من الفلاحين المصريين المزارعين من عسف جباة ضرائب السلطة في مصر بالجزء إلى ولايته ورفضه تسليمهم إليه (٣) فاتهمه بسوء نيته تجاهه ، وعدم وفائه بدين عليه وابتزازهم لأموال بعض التجار المصريين واستيلائه على تجارتهم في بلاد الشام مدعياً أنها لبعض التجار من أهل صيدا (٤) ومساعدته على تهريب بعض البضائع من الجمارك المصرية ؛ ومن هنا قرر إرسال

(١) نفسه ص ٢٤٨ .

(٢) ولاية صيدا كانت قاعدتها عكا ولذلك سميت أحيانا بولاية عكا .

(٣) Dodwell, H. : The Founder of Modern Egypt A. Study of Muhaammad Ali, Cambridge at the University Press 1931 p. 108.

ويذكر محمد كرد علي أن عدد هؤلاء كان ستة آلاف ، وأن عبد الله باشا امتنع عن تسليمهم لمحمد علي بحجة أن قطريهما يتبعان سلطان واحد .  
للتفاصيل انظر : خطط الشام ج ٣ ، بيروت - دار العلم للملايين ١٩٧٠ ص ٥١ .

(٤) أسد رستم : المصدر السابق ج ١ ص ١٢١ .

حملة لتأديبه ، وعين ابنه ابراهيم باشا قائدا لها وبالرغم من محاولات السلطان العثماني التدخل لاصلاح ذات البين ورغبته في اطفاء فتيل الحرب بينهما<sup>(٥)</sup> ، فان محمد علي كان مصرا على تأديب هذا الوالي ، فأرسل طلائع جيشه الى عكا في ١٤ اكتوبر ١٨٣١ غاستولت في طريقها على يافا وحيفا دون مقاومة تذكر<sup>(٦)</sup> ، وفي ٨ ديسمبر من نفس السنة ضربت الحملة المصرية حصارها حول عكا وأرسل ابراهيم باشا انذارا الى والي عكا يطالبه فيه بتسليم القلعة حقنا للدماء<sup>(٧)</sup> ونتيجة لرغص عبد الله باشا لهذا الانذار أمر ابراهيم باشا بضرب عكا بالقنابل من جميع الجهات<sup>(٨)</sup> .

وحرصا على عدم انفلات الأمر من الدولة العثمانية كرر السلطان محاولاته لرأب الصدع بين الجانبين المتحاربين ، فأرسل مندوبا الى محمد علي ينصحه بالعدول عن الحرب منعا لسفك دماء المسلمين ، وحرصا على عدم انقلاق الرعية مخذرا له من عراقب الاستمرار في الحرب ولما دارت المفاوضات بين المندوب السلطاني ومحمد علي تنظاهر الأخير بالاخلال للدولة العثمانية ، والملح أن الهدف من حربه هو المحافظة على شرف مصر الخالد واعادة مجدها في ظل الدولة العثمانية ، وانه في حربه يحارب حاكما - شبه مستقل - خارجا عن طاعة الدولة<sup>(٩)</sup> كما الملح

(٥) محافظ عابدين . محفظة رقم ١٤ ( بحبر ) ملخص الوثيقة رقم (٢١) بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٢٤٦ هـ .

(٦) أسد رستم : المصدر السابق ج ١ ، ص ١٢٨ الوثيقة رقم ٣٤٠ .

(٧) نفسه ص ١٣٩ . الوثيقة رقم ٢٣١ .

(٨) داود بركات : البطل الفاتح ابراهيم وفتح الشام ١٨٣٢ القاهرة : الطبعة الرحمانية . د.ت ص ٧ ، ص ٩ والجدير بالذكر أن القنابل وقتئذ لم تكن سوى كتل من الحديد والفولاذ المستدير التي تدك وتهدم ولا تنفجر .

(٩) عبد الرحمن الرافعي : المرجع السابق ص ٢٥٠ ، ص ٢٥٣ .

على لسان ابنه ابراهيم بأنه لا مانع من تسوية الموقف اذا قامت الدولة العثمانية بعزل عبد الله باشا والى عكا وتعيين والى آخر حائزا ثقة محمد علي .

ولما تعثرت المفاوضات نتيجة لعدم موافقة السلطان على مطالب محمد علي ، أمر الأخير ابنه ابراهيم بمواصلة الحرب وتشديد الحصار على عكا حتى يتم فتحها غير آبه بنصائح السلطان ولا بوعيده ، ومن هنا اتهمه السلطان ببذر بذور الفتنة والفساد بين الناس واستصدر فتوى بأن محمد علي وابنه ابراهيم قد خانوا الدولة ومرتقا عن دين الله وذلك لاستنفار الأهالي ضدهما ، كما أمر بعزل محمد علي عن منصبه ، مما أحدث ضجة عنيفة داخل الأوساط الدينية في مصر حول شرعية حكمه ، وقد واجه محمد علي هذه الضجة بالعنف فأعدم كل من وصل الي مسامعه أنه أثار هذه الضجة ، ومن بينهم بعض علماء الأزهر (١) .

ونظرا لفشل المحاولات السلمية مع محمد علي طلب السلطان من والى حلب اعداد العدة لمحاربته وتأديبه في نظير تنصيبه حاكما عاما على بلاد الشام ، وأن تكون له اليد الطولى في شؤنها (٢) .

ولكى يتفادى محمد علي المصاعب التي يمكن أن تواجه قواته أمام حصون عكا ، وتوفيرا لجهودها القتالية أوعز الى ابنه ابراهيم بمحاولة استمالة افرادها من جنود عبد الله باشا بالمال عن طريق دفع رواتبهم المتأخرة ووعدهم بالحماية والتأمينات الكافية ولكن ابنه لم يرحب بهذه الفكرة بل رأى أنه من العار فعل ذلك (٣) .

(١) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة رقم ( ٥٨ ) بتاريخ ١٣ رمضان ١٢٤٧ ( رسالة من ابراهيم باشا الى محمد علي ) .  
Dodwell : op. cit., p. 110. ( 2 )

(٢) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٤١ ترجمة الوثيقة رقم ٤٤ بتاريخ ٣ رجب ١٢٤٧ هـ ( مكاتبه من ابراهيم باشا الى محمد علي ) .

ونتيجة لذلك طلب ابراهيم من والده ضرورة الاهتمام بالأسطول المصرى وتجهيزه بالمدافع والأسلحة اللازمة بعد أن أثبت عدم كفاءته فى ذلك خصوصاً عكا ، وحتى يستطيع مناوأة الأسطول العثمانى وعرقلة جهوده فى مساعدة المدافعين عن عكا (١) .

وخلال تلك الفترة بدأت الدولة العثمانية استعداداتها للهجوم على القوات المصرية المحاصرة لمكا بهدف تطويقها وطردها من بلاد الشام مما أدى الى تخرج الموقف ، وجعل ابراهيم باشا يتحرك بجزء كبير من قواته لمواجهة الجيوش العثمانية قبل وصولها الى عكا (٢) تاركاً بعض القوات أمام عكا لتابعة حصارها .

وقد نجح ابراهيم باشا فى — خلال جروبه مع القوات العثمانية — انتزاع طرابلس منهم ، وتعقبهم فى حمص وهزيمتهم فى سهل الزرعة مما أوقع الاضطراب فى صفوفهم وأجأهم الى الفرار (٣) .

وخلال غياب ابراهيم باشا عن قواته المحاصرة لمكا انتهر عبد الله باشا الفرصة فأمر بخروج قواته من معانقها والهجوم على القوات المصرية ، وقد نجح فى تدمير بعض استحكامات هذه القوات وردّها الى الوراء ، مما جعل ابراهيم باشا يسرع فى العودة الى عكا ، ويعيد احكام حصارها برا وبحرا .

ولما طال أمد الحصار أرسل ابراهيم باشا رسولا الى والى عكا للتفاوض معه فى أمر الكف عن سفك الدماء ، وبأن يقوم بتسليم القلعة

( ١ ) محافظ عابدين : مخطوطة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة رقم ٥٨ بتاريخ ٢٣ رمضان ١٢٤٧ .

( ٢ ) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٥٤ .

( ٣ ) سليمان أبو عز الدين : المرجع السابق ص ٨٢ — ٨٣ .

في مقابل أعطائه الأمان ، لكن عيد الله باشا رفض هذه الفكرة ، وقام رجاله باطلاق نيران بنادقهم على هذا المندوب<sup>(٤)</sup> ، مما جعل ابراهيم باشا يقوم بالهجوم على القلعة في محاولة منه للضغط على رجالها ، وبالرغم من نجاح جيشه في الاستيلاء على السور الشرقي من قلعة عكا وتدمير المدافع الموجودة عليه<sup>(٥)</sup> فإنه لم يتمكن من احتلال المدينة بل تم تراجعهم لشدة استيسال المدافعين ، واصابة بعض ضباطه بجراح<sup>(٦)</sup> ، ولتخرج الموقف طلب ابراهيم باشا من الأمير بشير الشهابي القدوم اليه — ومعه بعض قواته — الى عكا للمساعدة ، ولما تباطأ الأمير بشير في الأمر شكاه ابراهيم الى والده ، فأرسل محمد علي الى الأمير بشير كتابا يلومه على تأخره ويذره بسوء العاقبة اذا خالف عهده معه ووعد له وتوعده بأنه اذا أججم عن الانضمام لابراهيم فإنه سيجرد عليه خمسا من الآلايات<sup>(٧)</sup> لتخريب مساكنه وزرع أرضها تينا ، وقيل وصول هذا الكتاب الى الأمير بشير كان قد تحرك على رأس مائه فارس الى عكا<sup>(٨)</sup> .

وبالرغم من ذلك فان محمد علي كان قلقا من جراء عدم سقوط القلعة<sup>(٩)</sup> وثبات المدافعين عنها مما جعله يستدعي من قواته الموجودة

- (١) . محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٨ بتاريخ ١٠ ذي الحجة ١٢٤٧ ( مكتبة من ابراهيم باشا يكن الى محمد علي ) .  
(٢) . أسد رستم وفؤاد اليستائي : المصدر السابق ص ٨٣٢ .  
(٣) . محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١٠ بتاريخ ١١ شوال ١٢٤٧ هـ .  
(٤) . أسد رستم : المصدر السابق ج ١ . الوثيقة رقم ٣٦٢ ص ١٣٥ .  
(٥) . داود بركت : المرجع السابق ص ١١ .  
(٦) . محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٥٤ .  
(٧) . بتاريخ ٢١ رمضان ١٢٤٧ هـ .

فى كريت للمساعدة ، كما فكر فى الحضور بنفسه الى عكا لمراقبة الموقف هناك (١) .

والسؤال المطروح هل ترجع الصعاب التى واجهها ابراهيم باشا وقواته الى مناعة أسوار عكا واستئصال جنودها فقد أم أن هناك أسبابا أخرى .

الواقع أن الخطة التى سلكها الباب العالى ضد محمد على بتجريد من منصبه وإباحة دمه ، قد أثارت الرأى العام الاسلامى ضده وشجعت المدافعين عن عكا على الصمود ، وجعلت بعض علماء المسلمين يصبون لعناتهم على محمد على ويتهمون به بالخروج عن طاعة السلطان مما زاد من اصرار والى عكا على المقاومة .

ونتيجة لطول أمد الحصار ، وعدم قدرة القوات المصرية على اقتحام عكا تزايدت الشائعات بين الناس داخل مصر حول مصير الحملة مما جعل محمد على يصدر فى ٨ مارس ١٨٣٢ أوامره المشددة بحرمات اذاعة أنباء حصار عكا داخل مصر ، وبضرب أعناق مروجى الشائعات ولما لم يرتدع بعض المرجفين لأوامره أمر بضرب أعناق أربعة منهم وزج بعشرين آخرين فى غيابات السجون ليكونوا عبرة لكل « الذين لا يستطيعون أن يمسكوا لسانهم » وقد عرضت الحكومة على الناس جثتين كتب عليهما العبارة الآتية : « هذا هو العقاب الذى يحل بمن يقولون السوء عن الحكومة خفية » (٢) .

وعن محاولات كل من محمد على وعبد الله باشا لرفع روح قواتهما الموجودة داخل أسوار عكا وخارجها فقد أرسل محمد على أمرا الى

(١) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٢٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٧ بتاريخ ١٦ ذى الحجة ١٢٤٧ (مكتبة من ابراهيم باشا الى محمد على) .  
(٢) بير كريبش : ابراهيم باشا — ترجمة محمد بدران . القاهرة — مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٣٧ من ١٥٩ .



قواته يبلغهم فيه تحياته وثقته فيهم وآماله الكبيرة التي ينتظرها منهم من حيث اظهار الشجاعة وبذل التضحية والثبات والغيرة والاجتهاد خلال الزحف على عكا مذكرا اياهم بالانتصارات التي حققتها في العديد من المعارك السابقة ، ومبشرا لهم بقرب سقوط عكا<sup>(١)</sup> .

أما عن عبد الله باشا ، فقد استصدر من علماء عكا ورجال الدين فيها فتوى تتضمن أن من يموت من عساكر محمد علي فمصيره الى النار<sup>(٢)</sup> ، ومن يموت من عساكره فمصيره الجنة وقد استند علماء عكا في اصدار هذه الفتوى على ما أصدرته الدولة العثمانية من أن محمد علي و ابراهيم باشا قد خانا الدولة ، ومرفقا عن دين الله .

ولما كان السيف وامتشاق الحسام هما الطريق الوحيد الموصل لتحقيق النصر ، فقد قام ابراهيم باشا بمعاينة الأعمال العسكرية التي كلف بها جنوده ، واتخذ التدابير اللازمة لسرعة نقل ذخائر جيشه ومهمات الى المواقع الجديدة كما حدد المتخاذلين من ضباطه بالعقاب الصارم<sup>(٣)</sup> . وطالبهم بأن يكونوا صناديد عندما يحمي ويطيس المعركة ، كما استدعى من الاسكندرية الكولونيل « روماي » الايطالي ، الذي كان قد علا نجمه خلال حصار قلعة موسولينى باليونان ، فوصل مع بعض زملائه الى معسكر عكا وبدأوا في تغيير شكل الحصار<sup>(٤)</sup> وبناء طوابق المدفعية المناسبة والاعتراب من سور المدينة حتى تصل قنابل المدفعية اليها بطريقة سليمة<sup>(٥)</sup> .

( ١ ) أسد رستم وفؤاد البستاني : المصدر السابق ج ٣ ص ٨٣٤ .  
( ٢ ) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٥ وثيقة رقم ١٤٠ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٤٨ هـ .  
( ٣ ) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٧ بتاريخ ١٦ ذي الحجة ١٢٤٧ هـ .  
( ٤ ) داود بركات : المرجع السابق ص ١٢ .  
( ٥ ) أسد رستم وفؤاد البستاني : المصدر السابق ص ٨٣٤ .

ونتيجة لتدهور الأحوال في عكا ، وتناقص أفراد حاميتها وقلة المواد الغذائية ، وتفشى الأمراض بين الناس راودت عبد الله باشا فكرة التفاوض مع ابراهيم باشا في أمر الصلح ، فرفع أعلاما بيض فوق أسوار عكا ، وقد وافق ابراهيم باشا على هذه المبادرة وأمر جنوده بإيقاف الضرب خصوصا بعد أن أرسل عبد الله باشا مندوباً عنه للتفاوض (١) ، ونظراً لتعثر المفاوضات عدل حاكم عكا عن فكرة الصلح وبخاصة بعد أن أبلغته الحكومة العثمانية بقدوم قوات جديدة من جيشها لمساندته (٢) ونتيجة لذلك أمر ابراهيم باشا جيوشه باستمرار إطلاق النار على عكا حتى يتم فتحها عنوة (٣) ، وقد أخذت هذه القوات تصلى عكا نارا حامية ليلاً ونهاراً لمدة ثلاثة أيام متتالية وبعدما قاد ابراهيم باشا الهجوم على عكا وبعد كروفر تمكنت القوات المهاجمة من الصعود الى القلعة عن طريق برج الباب وناحية الزاوية وأخذت في التشديد على المدافعين حتى ضعفت مقاومتهم (٤) وظهور الضجر والسآمة عندهم وسقط العلم من أيديهم وتم احتلال القلعة (٥) في ٢٧ مايو ١٨٣٣ ، وبذلك زالت أكبر العقبات أمام القوات المصرية الملاحقة على بلاد الشام بعد صمود دام أكثر من ستة شهور .

ونتيجة لدخول القوات المصرية مدينة عكا وصل وفد من أعيانها وعلمائها الى ابراهيم باشا طالباً الرحمة والعفو والأمان ، فوافق ابراهيم على طلبهم ، ووعدهم بتأمين الأهالي في أرواحهم وأموالهم (٥٦)

- (١) حيدر الشهابي : من تاريخ الأمير حيدر المسمى الروض النضير ج ٣ ، القاهرة . مطبعة السلام . ١٩٠١ م ١٠٢٢ .  
(٢) سليمان أبو عز الدين : المرجع السابق ص ٨٠ .  
(٣) حيدر الشهابي : المصدر السابق ص ١٠٢٥ .  
(٤) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الامادة رقم ١٣٠ بتاريخ الأحد ٢٧ ذي الحجة ١٢٤٧ هـ .  
(٥) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥١ بتاريخ ٣٠ ذي الحجة ١٢٤٧ هـ ( مكاتبة من ابراهيم باشا الى سالي بك ) .

\_\_\_\_\_

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

•

## الموضوع الحادي عشر

### السلطان عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة الإسلامية ١٨٧٦-١٩٠٩م

السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد هو السلطان الرابع والثلاثون والخليفة السادس والعشرون من خلفاء بني عثمان . ولد في عام ١٢٥٩هـ وبالتحديد في ٢١ سبتمبر من عام ١٨٤٣م ونشأ في حياة مليئة بالكبت والحذر خصوصا وأن والده كان يكرهه ويفضل إخوته عليه<sup>(١)</sup> ، كما أن والدته قد توفيت ، وكان لا يزال في الثامنة من عمره ، يضاف إلى ذلك أن خلع عمه عبد العزيز ثم اتحاره ثم خلع أخيه مراد الخامس قبل زاده من حذره وتخوفه ولو كان من أقرب المقربين إليه . ونتيجة لفقدان عبد الحميد لوالدته في الصغر عهد بحضنته إلى عجوز من نساء القصر ، ثم إلى إحدى زوجات والده واسمها "برستوخاتم" حيث لم تكن تنجب أولادا فتبنته ، وأخذت في تربيته . ونظرا لكل هذه الأمور مال عبد الحميد إلى العزلة والانفراد بنفسه ، وكان يتهرب دوما من إخوته ولا يشاركهم في ألعابهم ، وقضى أيام صباه بين الخصيان والعبيد والجواري<sup>(٢)</sup> ، وقد تولى عبد الحميد أمور السلطنة في ١٨ من شعبان ١٢٩٣هـ الموافق ٦ من سبتمبر ١٨٧٦م ، وكانت مدة حكمه اثنين وثلاثين (٣٢) عاما وخمسة أشهر وستة وعشرين يوما ، وهو من السلاطين العثمانيين القلائل الذين عمروا كثيرا وحكموا طويلا حيث مات عبد الحميد في العاشر من فبراير ١٩١٨م عن عمر يناهز الخامسة والسبعين عاما<sup>(٣)</sup> .

١- مؤلف تاريخي هام : عصر السلطان عبد الحميد ، وأثره في الأفكار العربية ، دمشق ، المكتبة الهاشمية ، الطبعة الثانية ، ج٣ ص ٦٥-٦٨ .

٢- الهلال : السنة السابعة عشرة من أكتوبر ١٩٠٨ إلى يوليو ١٩٠٩ ص ٥١٥-٥١٨ .

٣- مؤلف تاريخي هام : ص ٦٥ .

وقد واجهت السلطنة العثمانية في عصر عبد الحميد أزمت متعددة استغلتها الدول الأوروبية في إثارة القلاقل ضدها خصوصا في ولاياتها غير الإسلامية فحركات الفتن السياسية في كريت وصربيا وبلغاريا ، كما بدأت توجه التهديدات للسلطنة وتطالبها بالمشاركة في إجراء الإصلاحات يضاف إلى ذلك أن روسيا أخذت في إشهار الحرب على السلطنة لإجبارها على تعديل معاهدة باريس بغية الحصول على مكاسب إقليمية جديدة لها<sup>(١)</sup> ، ورغبة منها في تخليص نصارى البلقان من حكم المسلمين باعتبارها حامية الأرثوذكسية في ذلك الوقت يضاف إلى ذلك رغبتها في تحقيق حلمها التاريخي في الوصول إلى المياه الدافئة<sup>(٢)</sup> كل ذلك أدى إلى تكوين تكتل مسيحي من "الروسيا" ورومانيا والجبل الأسود والصرب ضد الدولة العثمانية ، واتخذ الصراع بين الجانبين شكل الصراع الصليبي بين المسيحية والإسلام حيث ركز النصارى اهتمامهم على تسف الأحياء الإسلامية في المناطق التي اقتحموها ، وعلى قتل سكانها وهتك أعراضهم ، وتخريب المساجد<sup>(٣)</sup> . ونتيجة لذلك رأى السلطان عبد الحميد أن الوسيلة المثلى لمواجهة هذه الهجمات الصليبية هي جذب عواطف المسلمين إليه<sup>(٤)</sup> ، والعمل على كسب ولائهم فبدأ في إحاطة نفسه بإطار من التقى والتشف ، كما بدأ يقرب إليه الفقهاء ورجال الدين الإسلامي<sup>(٥)</sup> . يضاف إلى ذلك أنه جنح إلى الاستفادة من منصبه كخليفة لتعزيز سلطته الدينية ، ودفع مؤامرات أوروبا عن بلاده ومن هنا بدأ في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وتقريب مجموعة من علماء العرب وأشراف مكة إليه<sup>(٦)</sup> ، كما اعتمد على الدعاية الإسلامية جمال الدين الأفغانى في الترويج لهذه الدعوة على مستوى العالمين العربى والإسلامى ، هذا إلى جانب قيام تامق كمال بتهيئة الأذهان في أوساط المتحدثين بالتركية .

- ١- محمد جميل بهيم: فلسفة الحكم العثمانى ج٢ ، بيروت ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م ص ١٦١ .
- ٢- محمود صالح منسى: حركة اليقظة العربية في الشرق الأوسط ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م ص ٧١ .
- ٣- عبد العزيز شندوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢ ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠م ص ١٠٧٤-١٠٧٥ .
- ٤- مذكرات السلطان عبد الحميد: ترجمة وتعليق محمد حرب، القاهرة ، دار الأنصار ١٩٧٨ ص ٧ .
- ٥- جورج انطونينوس: يقظة العرب، ترجمة أحمد حيدر الركابى ، دمشق، مطبعة الشرقى ص ٦٧ .
- ٦- بهيم : المرجع السابق ج٢ ، ص ١٧٨-١٧٩ .

وأخذ السلطان على عاتقه تنفيذ الفكرة عمليا ، وقيادتها بصفتها خليفة للمسلمين ، وعدها أعذب الآمال في إنقاذ الدولة وإحيائها من جديد ، وخير سلاح يحارب به النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف على العالم الإسلامي<sup>(١)</sup> .

وقد اتسعت دلالات معنى الجامعة الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لتشمل مفاهيم عدة ، فبعض المصلحين رأى فيها دعوة للرجوع بالدين إلى ما كان عليه السلف الصالح وآخرون فسروها على أنها دعوة لتحديث المفاهيم الإسلامية وتطويرها وتفسيرها بشكل يساير تطور الحياة الحديثة ، ويتمشى مع المفاهيم السوارة من مدنبة الغرب وثقافته وقسم ثالث رأى في حركة الجامعة الإسلامية دعوة إلى إحياء الخلافة القرشبة من جديد ، لكن من غير أن يكون لهذا الخليفة سلطة دنيوية بل يكون مجرد رمز ديني لوحد المسلمين<sup>(٢)</sup> ، ثم امتزجت هذه المفاهيم عندما دعا الأفغانى إلى جامعة إسلامية تقوم على دعائم أساسية تتركز فيما يلى :

١ - ضرورة التمسك بالخلافة كنظام ديني ، ونظام سياسى حتى يمكن مقاومة التيارات الأوربية التى اشدت ساعدها داخل بلاد المسلمين ، وتخليص العالم الإسلامى بعامه ، وأقاليم شمالي إفريقيا ، والشرقين الأدنى والأوسط بخاصة من السيطرة الأوربية المالية والسياسية والعسكرية<sup>(٣)</sup> .

٢ - إيجاد حد أدنى من التضامن السياسى بين المسلمين ، لاستعادة ما فقد من ديارهم والحفاظ على ما تبقى بأيديهم منها<sup>(٤)</sup> .

٣ - الحج إلى المسجد الحرام فى مكة المكرمة حيث الكعبة المشرفة لما فى ذلك من تربية دنيبة توصل العقيدة ، وتثبتها فى نفوس المسلمين فى كافة أنحاء المعمورة<sup>(٥)</sup> .  
وقد اتخذ الأفغانى فى سبيل نشر أفكاره وسائل عدة كالخطابة والكتابة ، ومقابلة الحكام ، وتكوين الجمعيات ، وعانى فى سبيل ذلك الكثير من مرارة النفى ومظاهر التضيق ، وظل مناديا بفكرة الجامعة الإسلامية برغم كل الصعاب . ودعا المسلمين إلى

١- الشناوى : المرجع السابق جـ ٣ ، ص ١١٩٩-١٢٠٠ .

٢- أحمد فهد الشوايكة : حركة الجامعة الإسلامية - الأردن - الزرقاء ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص ٥ .

٣- الشناوى : المرجع السابق جـ ٣ ، ١٩٨٣م ص ١١٩٥-١١٩٦ .

٤- الشوايكة : المرجع السابق ص ١٣٢ .

٥- الشناوى : المرجع السابق ص ١١٩٥-١١٩٦ .

الوحدة الصحيحة جاعلين أمامهم الأعظم في ذلك القرآن الكريم<sup>(١)</sup>. وفي الوقت الذي ظهرت فيه فكرة الجامعة الإسلامية ظهرت في أركان الدولة العثمانية حركات أخرى لمناهضة هذه الفكرة فظهرت حركة الجامعة الصفائية ، وحركة الجامعة الجرمانية ، ونتيجة لذلك عمل السلطان عبد الحميد على توحيد العناصر المتعددة في الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم بهدف تكوين جبهة واحدة تستطيع الصمود أمام الأطماع الأجنبية ، فأحاط نفسه بمجموعة من الأكراد والأرمن وعنى بتربية أبناء العشائر تربية إسلامية ، كما رأى ضرورة امتداد أواصر الأخوة الإسلامية إلى كل مسلمي آسيا وأفريقية سواء في الصين أم الهند أم أواسط أفريقيا أم غيرها<sup>(٢)</sup>. وعلى الرغم من أن هذه السياسة قد حققت بعض أهدافها واستطاعت أن تزج بعض الدول الأوروبية مثل بريطانيا وفرنسا ، وكلفتها جهدا كبيرا في سبيل مقاومتها ، وأدت إلى إحراج موقفيهما<sup>(٣)</sup> ، فإن نجاح حركة الجامعة الإسلامية ظل مرهونا بتواجد السلطان عبد الحميد على العرش . وحتى تزداد هيبة السلطان عبد الحميد الدينية بين المسلمين رأى ضرورة الاهتمام بتسيير أمور أداء فريضة الحج لهم عن طريق إنشاء خط حديدي بين دمشق والمدينة ، وقد قيل إن عزت باشا العابد - السوري الأصل والذي كان سكرتيرا ثانيا لسلطان عبد الحميد - هو الذي أدخل في روع السلطان إمكانية تقوية الخلافة بهذا المشروع الذي يمكن أن يشد من قبضة الدولة على الأماكن المقدسة ، ويعززها بإنكفاء شيوخ المسلمين في مختلف أرجاء العالم هذا بالإضافة إلى تسهيل سفر الحجاج وتذليل ما يواجههم من صعوبات في ذهابهم وإيابهم<sup>(٤)</sup>.

١- عبد الملحم الجمعي : عبد الله التديم ودوره في الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعي ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ص ٢٤٢ .

٢- مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٧ .

٣- بيهم : المرجع السابق ج ٢ ، ص ١٧٩-١٨١ .

٤- الشوايكة : المرجع السابق ص ١٨١-١٨٦ .

وقد ظلت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية تتأرجح صعوداً وهبوطاً وقوة وضعفاً حتى حدثت ثورة تركيا الفتاة في عام ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد فتنعت حركة الجامعة الإسلامية في مسيرتها<sup>(١)</sup> خصوصاً بعد تعصب جماعة الاتحاد والترقي للحركة الطورانية، واتساق الشريف حسين بن علي وراء وعود بريطانيا بإقامة خلافة عربية، وموقف المعارضة الشديدة الذي اتخذته النصاري في الولايات العربية ضد فكرة الجامعة الإسلامية<sup>(٢)</sup>

١- لوثرروب ستودارد : حاضن العالم الإسلامي ج ١ - ترجمة عجاج نويهض ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة

١٣٩٤هـ/١٩٧٣م ص ٣٠٥-٣٠٨ .

٢- القناري : المرجع السابق ص ١٢٩٧-١٢٩٩ .





## الحركات السياسية والفكرية فى العالم العربى بين فكرة الجامعة الاسلامية وحركة التنريك

- محاولات السلطان عبد الحميد استخدام الرابطه الدينية فى مواجهة اعدائه .
- سكة حديد الحجاز .
- فكرة الجامعة الاسلامية بين الأفغانى وعبد الحميد .
- الكواكيب والدعوة إلى انتقال الزعامة للعرب .
- الجمعيات السرية ودورها فى الدعوة للحركة العربية .
- الثورة العربية الكبرى وأحوال العرب السياسية خلالها .
- اتفاقية سايكس بيكو .
- تصريح بالفور .
- أحوال العالم العربى خلال الحرب العالمية الأولى وفى اعقابها .
- العرب ومؤتمر الصلح فى باريس .



## الموضوع الثاني عشر

بعد تفاقم الاعتداءات الأوربية على العالم العربي منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وتسابق الدول الاستعمارية في السيطرة عليه، شعر المسلمون بمدى الخطر الذي يحيق ببلادهم، ورأوا ضرورة جمع كلمتهم في شتى بقاع الأرض للوقوف في وجه أعداء الإسلام ومن ثم استيقظت لديهم فكرة احياء الوحدة الاسلامية الكبرى لتوحيد الجهود في مواجهة الاستعمار فتنشأت فكرة الجامعة الاسلامية.

لقد كان مبعث ولاء المسلمين للسلطنة العثمانية دينيا حيث كانوا مكلفين شرعا بطاعة السلطان العثماني باعتباره الخليفة والأب الروحي للمسلمين<sup>(١)</sup> خاصة وان الفكرة المتسلطة على العقول في ذلك الوقت كانت تقتضي ضرورة طاعة السلطان " حيث له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة والسلطان الشامل، وله حق القيام على دينهم، فيقيم فيهم حدوده وينفذ شرائعه، وله بالأولى حق القيام على شئون دنياهم أيضا " ولم يكن هناك ما يسمى جنسية عربية، فكلمة عثمانى كانت تنطق على كل من يقطن البلاد العثمانية ومنها البلاد العربية<sup>(٢)</sup>.

ونظرا لتأزم الأمور في العالم العربي رأى السلطان عبد الحميد أهمية استخدام الرابطة الدينية لمقاومة معارضيه في الداخل ومواجهة أعداء الإسلام في الخارج وذلك بإبراز السمات الدينية لمنصبه بصفته خليفة للمسلمين وبغرض تسخير قوة الدين لغاياته السياسية وحتى يضمن التفاف العالم العربي حوله، وجمع كافة الشعوب الاسلامية بما في ذلك الشعوب الخاضعة للاستعمار الأوربي وخاصة أهالي شمال افريقية الخاضعين لفرنسا، ومسلمي الهند الخاضعين لبريطانيا وغيرهم<sup>(٣)</sup> ونتيجة لذلك حاول السلطان عبد الحميد كسب ود القوميات المختلفة داخل السلطنة العثمانية وخاصة العرب فاغدى بالعديد من المناصب ومظاهر التكريم على بعض الشخصيات العربية، وانفق الأموال الطائلة على اصلاح وتزيين المساجد في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، ولكي يزيد من سيطرته على الأراضي المقدسة عين وال على الحجاز من قبله بقصد اخضاع هذه البلاد لحكمه المباشر، وممارع في الاعلان أن سلطته الزمنية تستند إلى سلطته الدينية فهو ظل الله في الأرض وأمير المؤمنين، وخادم الحرمين يضاف إلى ذلك أنه حاول اقناع الرأي العام الاسلامي أن الخلافة والسلطنة متكاملتان حتى إذا ما استعادت الخلافة مكانها اللائق بها عمد إلى تسخيرها لتكون قوة دافعة لتحقيق أغراضه السياسية .

ولكي يجذب السلطان عبد الحميد قلوب عامة المسلمين اليه لحاط حياته الخاصة بإطار من التقى والتشغف، كما لحاط نفسه برهط من الفقهاء ورجال الدين الذين يتمتعون بشهرة واسعة بين أبناء المسلمين كما أخذ في التقرب من العرب بشكل واضح فأدخل بعضهم في خدمته الخاصة، وشكل فرق مختارة منهم ضمها إلى حرسه الخاص كما وضع بعضهم في مراكز بارزة من السلطنة مثل عزت باشا العابد السورى الذى صار من سكرتارية السلطان<sup>(٤)</sup>، وأبى الهدى الصيادى الذى كان من اشد المقربين اليه والمؤوال المطروح هو: لماذا قرب السلطان عبد الحميد العرب بالذات اليه اثناء دعوته لفكرة الجامعة الاسلامية ؟

<sup>(١)</sup> عن انتقال الخلافة لآل عثمان انظر: محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى ص ١٢

<sup>(٢)</sup> عبد النعم الحميدى: عبد الله التديم ودوره في الحركة السياسية والاجتماعية، ١٩٨٠م ص ٢٣٦

<sup>(٣)</sup> Antonius, G: the Arab Awakening ١٩٢٨ P. ٧٥

<sup>(٤)</sup> أنيس: المرجع السابق ص ٧٤

الواقع ان السلطان عبد الحميد كان يعي قيمة العرب في مساندته لدعوتهم خصوصا وأن منهم رسول الله، وفيهم نزلت الرسالة وبلغت للناس أجمعين وإلى جانب ذلك فقد اهتم السلطان عبد الحميد بأمور الحج فدفع شريف مكة لتشر دعوته بين الحجاج كما اهتم بمشروع خط سكة حديد الحجاز الذي يمتد من دمشق إلى المدينة فمكة، وذلك بهدف تسهيل أمور الحجاج ظاهرا، ولرغبته في رفع مكانته كخليفة في العالم الاسلامي كله بينما كان السبب الحقيقي يتعلق بالعديد من العوامل السياسية والعسكرية خاصة وأنه يمكنه من نقل قواته إلى شبه الجزيرة العربية راسا مما يسهل له تقوية قبضته عليها وتثديد سيطرته خاصة على الحجاز واليمن .

ولأجل تنفيذ هذا المشروع عين السلطان لجنة برئاسة عزت باشا العابد، كما وجه نداء إلى العالم الاسلامي يوضح فيه فكرة مد هذا الخط الحديدي، ويطلب من المسلمين الاكتتاب لتغطية نفقاته . وقد جذب هذا المشروع انظار العرب، وأثار حماسا كبيرا في مختلف جهات العالم الاسلامي فانهالت التبرعات من كل مكان لانشاء هذا الخط حتى وصل ماقدمه ابناء العالم الاسلامي من هبات للمشروع ثلثه ملايين من الجنيهات التركية أي ما يوازي ثلث التكاليف . وقد قام المهندسون الألمان في عام ١٩٠١ ويتشجيع من السلطان ببناء هذا الخط الحديدي الممتد من دمشق، وقد انتهى العمل فيه في عام ١٩٠٨ عندما امتد إلى المدينة المنورة <sup>(١)</sup> ولكنه سرعان ما توقف نشاطه بسبب قيام الحرب العالمية الأولى ونسف الانجليز لجزء كبير منه .

ونتيجة للحماس الاسلامي لهذا المشروع وتأييد عامة المسلمين للخلافة شعر السلطان عبد الحميد بالارتياح وقد ظل معظم زعماء المسلمين على ولائهم للدولة العثمانية باعتبارها دولة الاسلام الكبرى التي تنقل المسلمين بظلالها، ولم يفكروا في الانفصال عنها، بل كان جل ما يسمعون اليه هو ادخال الاصلاحات السياسية والاقتصادية في نظام الدولة حتى تتمكن من النهوض والتقدم في مواجهة الاطماع الاستعمارية . والمسأل الذي يطرح نفسه هو: هل كان السلطان عبد الحميد قد انداعين إلى فكرة الجامعة الاسلامية؟ الواقع انه قيل اعتلاء عبد الحميد العرش بسنوات قام جمال الدين الأفغاني بالدعوة إلى الجامعة الاسلامية بهدف أن يرتفع بالشعوب الاسلامية إلى مستوى الأمم الحرة الناهضة وأن يعمل على تحرير الشرق من سيطرة الغرب الأوربي ونظرا لأهمية الدور الذي قام به في الدعوة إلى الجامعة الاسلامية فتتنا سنقوم بالتعريف به وبأهم اعماله .

تتناارب الروايات حول مولد جمال الدين فتمنها من قال أنه افغاني مولود في أفغانستان، ومنها من تتناارب الروايات حول مولد في همدان .

وقال انه فارسي مولود في همدان . والواقع أن كل من تقرب من جمال الدين عرف انه من أفغانستان، وأن مولده كان في أسد اباد عام ١٢٥٤ هـ الموافق ١٨٣٨ م <sup>(٢)</sup>، وأنه عندما شرع السلطان عبد الحميد في الدعوة إلى سياسته الاسلامية كان الافغاني في أوجه نشاطه ينتقل بين أوروبا وبارس وتركيا لدعوة المسلمين إلى التكاتف والتآزر في مواجهة اعداء الأمة الاسلامية .

وحركة الجامعة الاسلامية التي دعا اليها الافغاني هدفت إلى وقف الزحف الاستعماري عن طريق تنظيم الحكومات الاسلامية القائمة، وادخال الأفكار والنظم الغربية التي تساعد على التطور ثم توحيد

<sup>(١)</sup> توفيق بروج : المرجع السابق ص ٤٥ .

<sup>(٢)</sup> لورنوب سترغارد: حاضرم العالم الاسلامي، المجلد الأول النبعة الرابعة ١٩٧٣ م ص ٢٨٩ .

صفوف المسلمين لمواجهة التيار الاستعماري الزاحف وإلى جانب ذلك فقد نادى الأفغاني بتقوية الروابط بين البلدان الإسلامية، وإقامة العدل والثورى والتمسك بهدى القرآن، كما اقترح إنشاء حلف إسلامي تنزعه الدولة العثمانية، وكانت خطته تتضمن تحويل الامبراطورية العثمانية إلى مملكة الممالك بتنظيمها على أساس لامركزي، ومن أجل ذلك طالب الأفغاني السلطان عبد الحميد بتحويل الولايات العثمانية إلى خديويات كما كان متبعاً في مصر حتى تقوى الروابط فيما بينها، ويؤدي ذلك إلى التضمين بلدان مثل إيران وأفغانستان والامارات الإسلامية في الهند إلى الامبراطورية العثمانية في شكلها الجديد وبذلك يمكن حماية بلاد المسلمين من سيطرة الغرب المسيحي<sup>(١)</sup>.

ولترويج فكرة الجامعة الإسلامية انشأ الأفغاني في باريس جريدة العروة الوثقى في عام ١٨٨٤ وكتب فيها العديد من المقالات التي تدعو إلى اتحاد المسلمين، وضرورة جمع كلمتهم منها مقال عنوانه "الجنسية والديانة الإسلامية" الذي دعا فيه الأفغاني إلى ضرورة التأثير بحياة المسلمين الأوائل وسيرة السلف الصالح بقوله "هذا ما ارشدتنا إليه سيرة المسلمين من نشأة دينهم إلى الآن، لا يفتنون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين، لهذا ترى العربي لا ينفرد من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربي، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني، ولا اشمئزاز عند أحد منهم، ولا انقياض، وإن المسلم في تبذل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه في أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل مادام صاحب الحكم حافظاً بشأن الشريعة"<sup>(٢)</sup>.

وأوضح الأفغاني أن رابطة الدين هي الرابطة القومية التي يتمسك بها المسلمون فقال "علينا وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم" كما طالب المسلمين بالتمسك برابطة الدين بقوله "اعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها العربي بالتركي، والفارسي بالهندي، والمصري بالمغربي، وقامت لهم مقام الرابطة التيسية حتى أن الرجل منهم ليتألم لما يصيب أخاه من عدايات الدهر، وإن تناعت دياره وتقاصت أقطاره هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم، وفيها عزتكم ومتعتكم وسلطانكم وميادنتكم فلا توهونها"<sup>(٣)</sup>.

وعلى كل حال فإنه ما كاد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني يبدأ الدعوة إلى الجامعة الإسلامية حتى وجد التأييد والعون من الأفغاني الذي كان يرى ضرورة توحيد العالم الإسلامي تحت حكم خليفة واحد، ولايهتم بجنس ذلك الخليفة سواء أكان تركياً أم أفغانياً أم عربياً، ولكن ذلك العون لم يستمر طويلاً خاصة بعد أن اتضح أن الفكر كل منهما تسير في مسار يخالف مسار أفكار الآخر ففي حين كان الأفغاني يسعى إلى العثور على حاكم مسلم يستطيع عن طريقه تجديد العالم الإسلامي، وهذا ما جعله يتطلع إلى السلطان العثماني لمحاولة استخدام نفوذه في سبيل خدمة الإسلام كان السلطان عبد الحميد - على العكس - تراوده الآمال في استخدام الأفغاني وأفكاره عن الجامعة الإسلامية في جمع شتات المسلمين حول عرشه تحقيقاً لمصالحه وللمحافظة على سلطانه، وإلى جانب ذلك فإن الأفغاني في دفاعه عن الإسلام كان ينادي بجعل اللغة العربية هي اللغة الأولى في الدولة العثمانية، خاصة وأن اللسان العربي هو لسان الدين، ويدفعه ذلك إلى حد المطالبة بتعريب الدولة العثمانية لأنها لو تعربت وانتفى من بين الامتين التفرقة القومية، وزال داعي

<sup>(١)</sup> منسى: المرجع السابق ص ٧١-٧٢

<sup>(٢)</sup> جمال الدين الأفغاني وعبد عيه: العروة الوثقى وفكرة التحررية الفكرية، مقال بعنوان "الجنسية والديانة الإسلامية"

<sup>(٣)</sup> العروة الوثقى: مقال النعشب

التفوق والانقسام بين التركي والعربي، وصاروا أمة عربية بكل ما في اللسان من معنى ومافى الدين الاسلامي من عدل ومافى سيرة أفاضل العرب من اخلاق وفي مكارمهم من عادات لكان اعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورا

ونتيجة لذلك بدأ السلطان عبد الحميد يشك في نوايا الأفغانى ، ويخشى أن يكون هدفه العمل على استقلال البلاد العربية عن السلطنة العثمانية<sup>(١)</sup>

وعلى أى حال فقد كان السلطان عبد الحميد يشعر بالارتياح لأن أبناء العالم العربى فى ذلك الوقت كانوا يميلون إلى تأييد الخلافة على أساس أن فى ذلك تأييدا للإسلام، ووقفا فى وجه الأطماع الاستعمارية ولذلك فإن اليقظة العربية التى برزت فى ذلك الوقت كان هدفها الرغبة فى الإصلاح فى ظل الدولة العثمانية دون التفكير -آنذاك- فى إقامة دولة عربية مستقلة<sup>(٢)</sup> ولكن ذلك لم يستمر طويلا فسرعان ما ظهرت أفكار عبد الرحمن الكواكبي التى تدعو إلى إلغاء حق السلطان العثماني فى الخلافة وإلى المناداة بتخصيب خليفة ينتمى إلى قريش وأن يكون مركزه مكة (أم القرى) وطالب بجمع كلمة المسلمين فى ظل هذه الخلافة، كما تخيل الكواكبي فى كتابه "أم القرى" أن اثنين وعشرين شخصا يمثلون علماء وفقهاء المسامين فى اثنين وعشرين قطرا من الاقطار الاسلامية اجتمعوا فى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وبعد تبادل الآراء فيما بينهم فى أكثر من اثنتى عشر جلسة رسمية اتفقوا على تشكيل جمعية غايتها بعث الاسلام واعلاء كلمة الله. ثم أخذوا يرسمون خطط الإصلاح لاستعادة امجاد الأمة الاسلامية فى عصورها الزاهرة<sup>(٣)</sup> ورأوا إنشاء جمعية تحوز رضا الحكومات الاسلامية ويكون دورها النهوض "بالأمة من وهدة الجهالة والترقى بها فى مدارج المعارف"<sup>(٤)</sup>

وكان من الطبيعى أن تساعد الأفكار التى نادى بها الكواكبي على انتقال الزعامة إلى العرب فشكلت جمعيات عربية وضعت مناهج محددة هدفها حماية حقوق العرب، فشكل دجيب عازورى فى باريس عام ١٩٠٤ منظمة اطلق عليها رابطة الوطن العربى وكان هدف هذه المنظمة "تخليص بلاد الشام والعراق من السيطرة العثمانية بمساعدة فرنسا، وقد وضع عازورى افكاره فى كتاب اسماء "يقظة الأمة العربية" والمسؤال المطروح هو لماذا تزايدت فى هذا الوقت بالذات فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية، وبدأ صداها يتردد بسرعة بين أبناء الوطن العربى ؟

الواقع انه بعد نجاح جمعية الاتحاد والترقى فى السيطرة على زمام الأمور بالدولة العثمانية بدأ أفرادها فى تبني فكرة تمييز العنصر التركى على العنصر العربى، ومحاولاتهم القضاء على اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وإحلال اللغة التركية محلها، وإبعادهم عن مقوماتهم الثقافية وروحهم العربية، يضاف إلى ذلك ان حكومة الاتحاديين كانت ترى ان تكون السيادة للعناصر التركية على العرب<sup>(٥)</sup> وترويح المصلحة التركية على المصلحة العربية، وتمجيد العنصر التركى ورفع فوق العناصر الأخرى، مما أدى إلى ذعر العناصر العربية، ورفضها لفكرة الدعوة إلى الوحدة العثمانية التى طلب منها قبولها والاختلاص

<sup>(١)</sup> محمد صبرة: الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٧٦

<sup>(٢)</sup> منسى: المرجع السابق ص ٧٦

<sup>(٣)</sup> عبد الرحمن الكواكبي: أم القرى، وهو ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية للمعتمد فى مكة المكرمة ١٣١٦هـ بيروت، دار الرائد العربى ص ٧-٨.

<sup>(٤)</sup> نفسه ص ١٨

<sup>(٥)</sup> عمر عبد العزيز: تاريخ المشرق العربى ص ٤٢٧

لها، والاندفاع نحو الفكرة العربية<sup>(١)</sup> خاصة بعد أن اتضح للعرب أن استمرار التعاون مع الاتحاديين بات مستحيلا، وأنه يجب عليهم اتخاذ الخطوات اللازمة للدفاع عن حقوقهم والمحافظة على مصالحهم. ونتيجة لذلك تشكلت الجمعيات السرية التي أعلنت معادتها للدولة العثمانية، وللاتحاديين كما تشكلت بعض الجمعيات والنوادي العلنية ذات البرامج المعتدلة وكانت هذه الجمعيات في ظاهرها أدبية علمية، وفي باطنها سياسية تحريرية ومن أهم هذه الجمعيات نذكر :

#### ١- جمعية المتكدي الأدبي :

أسست في الآستانة في صيف عام ١٩٠٩ من بعض المؤلفين والمبعوثين والكتاب والطلاب وكثروا في معظمهم من السوريين وكانت مركزا يلتقي فيه العرب من زوار العاصمة والمقيمين فيها، وقد تمتعت هذه الجمعية بنفوذ سياسي كبير ، وانحصرت مساهمتها في تنمية الدعوة للحركة العربية وتوسيع مداها، كما كان لها فروعاً مختلفة في بلاد الشام والعراق هذا إلى جانب نشاطها في القاهرة. وظلت هذه الجمعية تزاول نشاطها حتى اغلقتها الحكومة التركية في عام ١٩١٥<sup>(٢)</sup>.

#### ٢- حزب اللامركزية الادارية العثمانية :

تأسس في عام ١٩١٢ بالقاهرة بهدف إقامة نظام لامركزي في الولايات العربية داخل اطار الدولة العثمانية وتعبئة الرأي العام العربي لتأييد هذا المطلب، وقد كان لهذا الحزب فروعاً في معظم بلاد الشام. ولم يمض عام على تأسيس هذا الحزب حتى أصبحت لجنته تنطق باسمان العرب وتعرب عن آمانيهم<sup>(٣)</sup>.

#### ٣- الجمعية القحطانية :

جمعية سرية انشئت في عام ١٩٠٩، واشترك في تأسيسها عزيز المصري، وبعض الضباط العرب، وكان هدف القائمين عليها تحويل الامبراطورية العثمانية إلى دولة ثنائية بحيث تتكون من الأقاليم العربية دولة واحدة لها برلمانها، وحكومتها المحلية، ولقبتها العربية يتولى حكمها السلطان العثماني إلى جانب حكمه للدولة التركية وظلت هذه الجمعية تزاول نشاطها السري حتى نشوب الحرب العالمية الأولى<sup>(٤)</sup>.

#### ٤- جمعية العربية الفتاة :

تأسست هذه الجمعية على أيدي الطلبة العرب في باريس عام ١٩١١ ثم انتقلت إلى بيروت في عام ١٩١٣ وبعد ذلك انتقلت إلى دمشق وبقيت بها حتى عام ١٩٢٠ تقريبا. وكان هدف هذه الجمعية في بداية الأمر التهوض بالوطن العربي، وتمتعه بالحكم الذاتي في ظل الدولة العثمانية ثم تغير هدفها بعد نشوب الحرب الأولى، وأصبح إنشاء دولة عربية ذات سيادة وبعيدة عن النفوذ التركي<sup>(٥)</sup>. وإلى جانب هذه الجمعيات وجدت جمعيات أخرى محدودة الأهمية أبرزها جمعية "الجامعة العربية" التي أنشأها محمد رشيد رضا صاحب المنار والذي كان يرى أهمية التعاون بين العرب والترك وجمعية

(١) تظونيرس: المراجع السابق ص ١١٤

(٢) أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى ص ٩

(٣) تظونيرس: المراجع السابق ص ١١٧-١١٨

(٤) توفيق علي برو : العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨-١٩١٤ ص ٣١٩-٣٢٢

(٥) أمين سعيد: المراجع السابق ص ٩



بيروت الإصلاحية التي تكونت في أواخر ١٩١٢ وكانت اللامركزية هي الأساس الذي ارتكزت عليه مطالبها كما كان من بين مطالبها أن يكون تعيين الموظفين من أهالي البلاد الذين يعرفون العربية وجمعية العهد التي اسمها مجموعة من الضباط العرب برئاسة عزيز المصري في عام ١٩١٣ والتي كانت تهدف إلى إقامة مملكة ثنائية بمعنى الحصول على الاستقلال الداخلي للبلاد العربية في ظل الخلافة العثمانية، ومع ذلك فإن هذه الجمعية لم تنجح في تحقيق أهدافها بسبب تعارض خطتها مع سياسة الاتحاديين الذين أسروا بالقبض على عزيز المصري ومحاكمته مما أدى إلى غليان الشعور العربي ضد العثمانيين حتى صدر العفو عنه.

هذه كانت أهم الجمعيات التي أُلغها الأحرار العرب بهدف إبراز الكيان العربي داخل الدولة العثمانية، ومن أجل توحيد الجهود بين هذه الجمعيات عقد المؤتمر العربي الأول في عام ١٩١٣ بباريس واشترك فيه مندوبون عن كافة الجمعيات الوطنية العربية. وقد جاء في الدعوة لعقد هذا المؤتمر أنه في مقدمة الأسباب التي دعت الحاجة إليه حالة الفوضى والاضطراب التي شملت البلدان العربية نتيجة لانكار مطالبها، وأعلن أن المسائل التي سيدور حولها البحث في المؤتمر هي :

- ١- حقوق العرب في الدولة العثمانية .
  - ٢- ضرورة الإصلاح على أساس اللامركزية .
  - ٣- الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال .
- وقد أكد المتحدثون رغبتهم في المحافظة على كيان الدولة العثمانية شريطة الاعتراف بحقوق العرب السياسية .
- ومع ذلك فإن الاتحاديين حاولوا منع إقامة هذا المؤتمر باقتناع الحكومة الفرنسية بعدم السماح بعقد في أراضيها ولما عجزوا عن ذلك حاولوا تهدئة مشاعر العرب النائرة بأعدائهم بعض الوعود حول استخدام اللغة العربية كأداة للتعليم في المدارس الابتدائية والثانوية ، وأما بعض الوظائف<sup>(١)</sup> أما بخصوص اللامركزية قد عارضتها حكومة الاتحاديين .
- هذه كانت أحوال العالم العربي قبل الحرب العالمية الأولى والتي اتسمت الحركة العربية خلالها بمحاولة التوفيق بين مطالبها وبين الولاء للدولة العثمانية ولكن سيطرة جمعية الاتحاد والترقي على زمام الأمور في تركيا بعد خلع السلطان عبد الحميد ومحاولات الاتحاديين تترك العرب واذابة قوميتهم داخل القومية التركية والقضاء على اللغة العربية، واعتبار الأتراك سادة العرب مسودين كل هذه الأمور دفعت العرب إلى التفكير في الانفصال عن الدولة العثمانية ومن هنا دخلت حركتهم في طور جديد، وساعدهم على ذلك قيام الحرب العالمية الأولى، وانضمام الدولة العثمانية بجانب اعداء بريطانيا .
- ونتيجة لذلك قام الأتراك بمحاولات عدة للقضاء على هذه الحركة، فساقوا زعمائها إلى مجالسهم العرفية في عالية لبنان، كما أصدروا حكم الاعدام على أكثرهم ونفذ الحكم في ساحتي دمشق وبيروت العموميتين، كما أرسلت الدولة العثمانية والي جمال باشا إلى بلاد الشام الذي نشر جواسيسه لتتبع أخبار رجال الحركة العربية مما كان له أكبر الأثر على زيادة الغليان ضد الحكم التركي وإصرار العرب على التخلص منه .

<sup>(١)</sup> أمين سعيد - المربع السابق ص ٣٨ - ٣٩ . - ١٢٠ -

### الثورة العربية الكبرى وأحوال العرب السياسية خلالها :

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤ اتضمت الدولة العثمانية إلى جانب دولتي الوسط (ألمانيا والنمسا) ضد دول الوفاق الثلاثي بريطانيا وفرنسا وروسيا ونتيجة لذلك رأت بريطانيا أن من مصلحتها الاستعانة بالعرب الساخطين على الحكم العثماني، وتشجيعهم على الثورة ضد الاتراك والانضمام إلى جانب بريطانيا وحلفائها في مقابل بعض الوعود البراقة خاصة وإن موقف العرب أصبح مهما لاستراتيجية بريطانيا لأن الاتراك كانوا في مركز يستطيعون به تهديد المصالح البريطانية في قناة السويس ومنطقة الخليج العربي ولاسيباب دينية وسياسية وإمترائية وقّع اختيار بريطانيا على الشريف حسين بن علي أمير مكة الذي كان يتطلع لإقامة دولة عربية بمساعدة بريطانيا<sup>(١)</sup> ولكي تحقق بريطانيا أهدافها دخلت عن طريق معتمدها البريطاني في القاهرة السير "هنري مكماهون" في مفاوضات سرية مع الشريف حسين الذي كانت تسيطر عليه فكرة إنشاء دولة عربية كبرى، والذي كان بينه وبين الاتراك جفاء كبير، وقد كان للشريف حسين ثلاثة أبناء هم علي وعبد الله وفخيل، وكان كل من هؤلاء الثلاثة ينشدون القضاء على نظام المركزية في الدولة العثمانية، وحصول الحجاز على استقلال ذاتي تحت إشراف والدهم ولما كان الأمير عبد الله تآتى اتجال الشريف حسين ثانياً عن مكة في مجلس المبعوثان العثماني، وعلى علاقات طيبة مع الخديو عباس الثاني<sup>(٢)</sup> فقد اعتاد أن يمر بالقاهرة في غدوه إلى استقبال ورواحه منها. وحدث في ربيع ١٩١٢ أن زار الأمير عبد الله القاهرة وحل ضيفاً على الخديو وخلال ذلك زار المعتمد البريطاني اللورد كتشتر الخديو وتم التعارف بينه وبين الأمير وبعد انتهاء المقابلة لحق كتشتر بالأمير ومعه السير "رونالد ستورز" السكترير الشرقي للتقصية البريطانية. وقد روى الأمير عبد الله ذلك في مذكراته بقوله "بعد وصولي إلى عابدين. جاءني للتشريفاتي على بك شاهين وقال اللورد كتشتر هنا وقد جاء لزيارتك، وكانت مباحثته خفت عاقبتها على سياسة والذي مع الاتراك وبالطبع لم استنع رفض زيارة تكريمية"<sup>(٣)</sup>.

وبعد أن استقبل الأمير عبد الله اللورد كتشتر، ودار بينهما الحديث اعرب له كتشتر عن ارتياح الحكومة البريطانية لحالة الأمن في الحجاز، وطلب منه إبلاغ والده بأن الحكومة البريطانية لا توافق على تغيير منصب إمارة مكة، ولما حاول الأمير عبد الله معرفة موقف الحكومة البريطانية في حالة وقوع صدام بين العرب والترك لم يجد رداً شافياً من كتشتر خاصة وأنه رفض التورط في خطة محددة لمساعدة الشريف حسين وبعد التصرف المندوب البريطاني حاول الخديو عباس الثاني إقناع الأمير عبد الله بضرورة رد الزيارة لكتشتر<sup>(٤)</sup> وعلى الرغم من رغبة الأمير عبد الله في رد الزيارة فقد استأنأ أولاً المندوب العثماني بالقاهرة حتى لا يكون هناك مجالاً للتناوب وبعد الموافقة زار الأمير عبد الله اللورد كتشتر في مقره بالوكالة البريطانية ودارت الأحاديث بينهما حول شئون الحجاز، والعلاقة بين العثمانيين

<sup>(١)</sup> محمود منسي: وعد بلفور، القاهرة، دار الفكر العربي ص ٦٨.

<sup>(٢)</sup> عقد الأمير عبد الله علاقات صداقة مع الخديو عباس الثاني منذ عام ١٩٠٩ عندما كان الخديو يؤدي فريضة الحج، فقد رافقه أثناء تواجده في مكة، وتوفدت الزيارات بينهما لدرجة أن الأمير كان يتزل ضيفاً على الخديو أثناء مروره بالقاهرة في طريقه إلى استنبول.

سليمان موسى: الحركة العربية-سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨-١٩٢٤ ص ٦٦.

<sup>(٣)</sup> مذكرات الملك عبد الله، عمان، منشورات مجلة التراث الطبعية الثانية ص ٩٩.

<sup>(٤)</sup> مذكرات الملك عبد الله ص ١٠٠.

وواتده، ومدى محاولات الاتراك التدخل في المسائل الدينية، وعلى الرغم من أن هذه الزيارات لم تسفر عن نتائج محددة إلا أنها أوضحت للانجليز مدى اتساع الخلاف بين العرب والترك<sup>(١)</sup>.

ولما قامت الحرب الأولى في أغسطس ١٩١٤ ترك ككتشنر منصبه بالقاهرة وشغل منصب وزير الحربية البريطانية ومع ذلك لم يقب الموقف في الشرق الأوسط عن خاطره، فابرق إلى "ستورز" للاتصال بالشريف حسين للتعرف على المعسكر الذي سينضم اليه العرب في حالة دخول تركيا الحرب بجانب الألمان ومن ثم بدأت سلسلة الاتصالات بين الطرفين والمؤال المطروح هو لماذا كانت انجلترا شديدة الرغبة في وقوف العرب بجانبها ؟

الواقع ان وقوف العرب بجانب بريطانيا ضد تركيا، يضطر الاتراك إلى حجز جزء من قواتهم العسكرية في البلاد العربية بعيدا عن جبهات القتال الرئيسية، وإلى جانب ذلك فإن قيام الثورة في الجزيرة العربية يمكنه ان يفصل بين القوات العثمانية الرئيسية في الشمال وبين القوات العثمانية في جنوب الجزيرة خاصة في اليمن وعسير يضاف إلى ذلك أن المسلمين في كافة أنحاء العالم كانوا يدينون بالولاء للخلافة في الدولة العثمانية، وأن مركز الشرافة الديني في مكة يمكن أن يحوّل ولاء مسلمي الهند وغيرهم من الخلافة العثمانية إلى الخلافة العربية، ومن الاستانة إلى مكة .

وعلى أي حال فقد أصبح مصير البلدان العربية بين شقّي الرعي فهل يستغل العرب فرصة الضغائن تركيا بالحرب ويثورون ضدها أم يقفون بجانبها ويحصلون على ثقتها الواقع ان الأمير فيصل كان من انصار الوقوف بجانب تركيا، وان السلامة كل السلامة في التعاون مع الاتحاديين خاصة وان الانضمام الفرنسية في سورية والانجليزية في جنوب العراق كانت بادية للعيان على حين كان الأمير عبد الله يرى في الثورة ضد الاتراك السبيل لتحقيق الأماني العربية، ومن هنا حاول اقتناع والده باستمرار المحادثات مع الانجليز، وخلال ذلك استقر رأي الشريف حسين على ضرورة كسب الوقت، ومحاولة استطلاع آراء زعماء العرب في شبه الجزيرة والشام للتعرف على مدى استعدادهم للثورة فجرت المحادثات بين الشريف حسين وبين جيرانه العرب فاتصل بالادارسة في عسير، وأل رشيد في حائل وآل سعود في الرياض والامام يحيى بن حميد الدين في اليمن، وخلال ذلك اكتشف ان الموقف في شبه الجزيرة يشجع على الثورة<sup>(٢)</sup> وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك تيارات في سوريا والعراق تدعو إلى الثورة ضد العثمانيين ونتيجة لذلك ارسل الشريف حسين ابنه فيصل لاجراءات الاتصالات مع الاحزاب العربية بالاضام خاصة حزب العربية الفتاة والوقوف على وضع السوريين وحالتهم النفسية وقد حل الأمير فيصل ضيفا في دمشق على "عصا الله باشا البكري: الذي عقد "حزب العربية الفتاة" أول اجتماع في بيته، وقد تأكد لفيصل في هذا الاجتماع استعداد البلدان السورية للقيام بالثورة ضد الاتراك<sup>(٣)</sup> كما اطلع اعضاء الحزب على نية الثورة عند الشريف حسين وكانت نتيجة هذا الاجتماع التمهيدى الاتفاق بين الفريقين على القيام بثورة عامة في وقت واحد تكون نتائجها إنشاء دولة عربية كبرى تشمل الحجاز والعراق وسورية تحت لواء الشريف حسين<sup>(٤)</sup> وإلى جانب ذلك فقد طلب زعماء جمعيتي العربية الفتاة والعهد من الأمير فيصل تسليم والده المخطط الذي يوضح

(١) سليمان موسى: مرجع سابق ص ٦٧.

(٢) من المعروف ان اليمن اعتلت ولائها للعثمانيين.

(٣) مذكرات الملك عبد الله ص ١٤١

(٤) فيصل بن الحسين في خطبه وقرائه ص ٣٩-٤٠

حدود البلدان العربية في آسيا والتي يجب أن يدور على أساسها الحوار مع الانجليز وقد عرفت هذه الافكار باسم "بروتوكول دمشق" وقد نص فيها على ان حدود البلاد العربية التي يجب أن تعترف بريطانيا باستقلال العرب فيها تتمثل فيما يلي :

في الشمال من خط مرسين أطلته إلى خط عرض ٣٧ شمالا، ومنه على طول الخط بيرجيك -أورفة - ماردين - مديات وجزيرة ابن عمر - عمادية حتى حدود فارس. وفي الشرق تتمثل في الحدود مع ايران حتى الخليج، وفي الجنوب المحيط الهندي باستثناء عدن، وفي الغرب البحرين الأحمر والمتوسط حتى مرسين، والقاء الامتيازات الأجنبية، وعقد تحالف دفاعي بين بريطانيا والدول العربية المستقلة ومنح بريطانيا الافضلية في الشئون الاقتصادية وقد حمل الأمير فيصل هذه الشروط الى والده في يونيو ١٩١٥، ولم تمر اسابيع قليلة حتى بدأت المراسلات المعروفة بمراسلات الحسين مكماهون، والتي هدف الانجليز من وراءها اشعال الثورة العربية ضد الاتراك وقد ارسل الشريف حسين مذكرته الى السير هنري مكماهون في ١٤ يوليو ١٩١٥ موضحا المقترحات العربية ودارت الاتصالات بينها وقد قطعت بريطانيا على نفسها من خلالها وعدا بالعمل على استقلال البلدان العربية إلا أنها أعربت عن بعض التحفظات على هذه الحدود خاصة بالتسمية لمرسين والاستندرونة واجزاء من بلاد الشام فذكرت أن لها مصالح في جنوب العراق لا ينبغي أهملها كما أن لفرنسا مصالح في بعض المناطق بسورية وفيما عدا ذلك فان بريطانيا على استعداد للاعتراف باستقلال العرب وتأييده وتقديم كافة المساعدات اللازمة لتحقيق ذلك .

وطالت المفاوضات بين الطرفين دون أن يتمكن الحسين من الحصول على ضمانات كافية من الانجليز . واستقر الامر على أن يقوم الشريف حسين بالثورة على الاتراك والانضمام إلى الانجليز وحلفائهم في نظر أن تتعهد بريطانيا بسيادته على البلدان العربية من جبال طوروس شمالا حتى المحيط الهندي جنوبا ، وألا تعقد بريطانيا صلحا مالم يشمل شروطا تتضمن ذلك . ونتيجة لذلك بدأ الحسين يهبط للثورة على العثمانيين فأرسل ابنه فيصل إلى دمشق لاثارة الأهالي واشعال نار الثورة ضد الاتراك وذلك بناء على إشارة منه بعد أن يهيئ الأمر لاعلان ثورته في الحجاز .

وقد حدد يوم السبت العاشر من يونيو ١٩١٦ موعدا لبدء الثورة في مكة ، فاطلق الشريف حسين بنفسه في ذلك اليوم الرصاصة الأولى على قلعة الاتراك في مكة ايثانا باعلان الثورة ، وتمكنت قواته في فترة وجيزة من تثبيت اقدامها في الحجاز ، واجبار القوات التركية الموجودة هناك على الاستسلام باستثناء المدينة المنورة التي ظلت بها الحامية التركية حتى أواخر الحرب تقريبا وعلى الرغم من محاولات الاتراك استرجاع مكة المكرمة فانهم فشلوا في ذلك .

وقد شرح الحسين موقفه في بيانه الأول الذي ناشد فيه المسلمين جموعا بالثورة على الاتراك مستندا في ذلك إلى العاملين القومي والديني فندد بارهاب الاتحاديين وتعليقهم المشاتي في بلاد الشام كما هاجمهم لخروجهم على الاسلام وبذلك عطل الدعوة إلى الجهاد التي اذاعها الاتراك في البلاد العربية ، كما ناشد الشريف حسين العرب بمساندة القوات البريطانية في مجهوداتها بحجة أنها تعمل على تحرير بلادهم من الحكم التركي <sup>(١)</sup> .

وبإيعاز من الشريف حسين نفسه نودي به ملكا على البلاد العربية في ٢ نوفمبر ١٩١٦ ، ولكن الحلفاء لم يعترفوا له بهذه الصفة ، بل اعترفوا به ملكا على الحجاز فقط حتى لا يتعرضوا لغضب أمراء

(١) انظر نيس : الربيع السابق من ٢٢٢ ، ٢٥١ . - ١٢٣ -

## العرب الآخرين .

- وعلى أي حال فقد نجح فيصل بن الحسين في اعداد قواته للقتال ، واجتذاب العديد من القبائل اليه مما مكّنه من نصف سكة حديد الحجاز بين معان والعقبة واحتلال ينبع والزحف شمالا والاستيلاء على العقبة ثم التقدم شمالا لمحاربة الاتراك في منطقة شرق الاردن وبذلك قدم للحلفاء مساعدات هامة . هذا في الوقت الذي تمكن فيه الانجليز من دخول العراق ، ونجاح اللورد اللتبي في احتلال القدس ثم دخول القوات العربية منتصرة إلى دمشق في أول أكتوبر ١٩١٨ ورفع اعلاصها فوق اسوار مبانيها الحكومية وذلك قبل دخول القوات البريطانية بقيادة اللتبي اليها ثم زحفها شمالا والاشتباك مع الاتراك ، ونجاحها في دخول حمص وحلب وحماه ، وتخليص كل البلاد السورية في الحكم العثماني .

## اتفاقية سايكس بيكو :-

- وفي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تفاوض العرب طالباة معونتهم لها في مقابل مساعدتها لهم في الحصول على استقلالهم كانت تتربع في ذلك الوقت سياسة ذات وجه آخر حيث كانت تخطط مع فرنسا وروسيا لاقتسام أسلاك الدولة العثمانية واستعمارها حيث أعد المفاوض البريطاني "مارك سايكس" Mark Sykes عضو مجلس العموم والذي اشتهر بتضلعه في شئون الشرق ورحلاته في معظم انحاء الدولة العثمانية - والمفاوض الفرنسي "جورج بيكو" - الذي كان قنصلا عاما لدولته في بيروت خلال الاعوام التي سبقت الحرب - مشروعا حددا فيه مصير الممتلكات العثمانية في آسيا والمناطق التي تعتبرها كل من الدولتين منطقة نفوذ لها . ولما كانت لهذه التسوية أهمية مباشرة لروسيا فقد انتقل سايكس وبيكو إلى بروجراد في مارس ١٩١٦ للحصول على موافقة الحكومة الروسية <sup>(١)</sup> .
- وقد انتهت هذه المباحثات بتلك الاتفاقية المعروفة باسم اتفاقية سايكس بيكو أو الاتفاقية السرية الانجليزية الفرنسية الروسية ، والتي تلص على تحديد المناطق العثمانية التي تعتبرها كل من هذه الدول الثلاث منطقة نفوذ خاصة بها وتضمنت مايلي :-

- ١- استعاده بريطانيا وفرنسا للاعتراف بدولة عربية مستقلة تشمل بعض مناطق العراق وشرق الاردن وقطاع دمشق أو اتحاد من الدول العربية يؤلف من الاراضي الداخلية بين العراق والشام بحيث يكون الأفضلية للدولة صاحبة العلاقة بها في التواحي الاقتصادية .
- ٢- تحصل فرنسا على القسطنطينية والأراضي الواقعة حول البسفور وجزء من شرق الأناضول بجوار الحدود الروسية .
- ٣- تحصل فرنسا على سورية ولبنان مع جزء كبير من جنوب الأناضول بما في ذلك ولاية "أطنه" ورمسين "والاسكندرونة" هذا بالإضافة إلى منطقة الموصل في شمال العراق .
- ٤- تحصل بريطانيا على المنطقة الممتدة من شرق الاردن حتى العراق حيث تدخل بغداد والبصرة ، وجميع البلاد الواقعة بين منطقة الخليج ضمن مناطق نفوذها كما تحصل على ميناءي حيفا وعكا في فلسطين .

## ٥- تنشأ إدارة دولية في فلسطين يحدد شكلها بالاتفاق مع ممثلي الحلفاء وممثلو شرق مكة <sup>(٢)</sup>

<sup>(٢)</sup> مصطفى ماهر وكمال رضوان : الدنيا والعالم العربي بيروت ١٩٧٤ .

<sup>(٣)</sup> منسى : حركة النهضة العربية في الشرق الأوسط ص ٣٥٠ - ١٢٤ -

ويمراجعة نصوص هذه الاتفاقية يتضح مايلي :-

١- أن اتفاق سايكس بيكو جاء مناقضا تماما لاتفاق الحسين مكماهون مما يؤكد ازدواجية السياسة البريطانية والتواطؤ.

٢- أن هذا الاتفاق كان بمثابة وثيقة ولادة للأطماع الاستعمارية في أبقع صورها ، كما أنه كان مثالا بارزا للمخاتلة ونكث العهود .

٣- أن هذا الاتفاق قسم منطقة الشرق العربي الآسيوي بطريقة تهدف إلى إقامة المعويات في طريق وحدته كما أنه وضع المناطق الأكثر رخاءا وتقدما في سورية والعراق تحت السيطرة الأجنبية ، بينما سمح للمناطق الداخلية فقط بأن يقام فيها دولة عربية تتمتع بقدر من الحكم الذاتي .

والغريب في الأمر أن العرب لم يعلموا بأمر هذه الاتفاقية عند توقيعها بل ظلت سرية حتى قامت الثورة البلشفية في روسيا ، ونشرت جريدتا الأوزفستيا والبرافدا نصوص هذه الاتفاقية في ٢٣ نوفمبر ١٩١٧ وقد بادرت تركيا إلى استغلال الفرصة فأرسلت نص الاتفاق إلى الشريف حسين بن علي ، وطلبت منه بالعودة إلى جانب العثمانيين بعد أن اكتشف غدر الإنجليز والفرنسيين للعرب ، وعقد صلح بين العرب والترك .

وبعد أن وصل نيا الاتفاق إلى الشريف حسين ظهر عليه الاضطراب والانعزال ، وطلب تفسيراً له من المندوب السامي البريطاني الذي عمد إلى التضليل فلم يؤكد صحة ما أذيع حول الاتفاق أو ينكره بل ألقع الشريف حسين بأن هذا الاجراء من جانب تركيا مثالا جديدا للدياس بينهما غاية اثاره التفور بين العرب والحلفاء<sup>(١)</sup> وأن كل ما في الامر ان " الوثائق التي وجدها البلاشفة في وزارة الخارجية في بتروجراد لاؤلف اتفاقية عقدت بالفعل ، ولكنها تسجل لرسائل ومحادثات مؤقتة تبودلت بين بريطانيا العظمى وفرنما وروسيا وانها اجريت في الأيام الأولى للحرب وقبل الثورة العربية<sup>(٢)</sup> .

ونتيجة لذلك استمر الحسين في تأييده لبريطانيا وحلفائها ضد الدولة العثمانية، معتقدا أن بريطانيا ستقف بجانبه إلا أن الامور قد اتضحت له بعد ذلك خاصة وان بوادر النصر بدأت تلوح في جانب الحلفاء وهكذا كانت اتفاقية سايكس بيكو طعنة أليمة وجهتها لبريطانيا إلى العرب الذين وقفوا بجانبها خلال محنتها.

تصريح بالفور :

لم تكن اتفاقية سايكس بيكو هي الطعنة الوحيدة التي وجهتها لبريطانيا للعرب، بل وجهت اليهم طعنة أخرى تمثلت في تصريح بالفور عام ١٩١٧ والذي وعد فيه اليهود بمساعدتهم على إقامة وطن قومي لهم في فلسطين العربية ونص هذا التصريح عبارة عن خطاب موجه من وزير الخارجية البريطاني آرثر جيمس بالفور إلى اللورد روتشيلد يقول فيه "إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أنه يفهم بوضوح انه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التي يتمتع بها الطوائف غير اليهودية

<sup>(١)</sup> انطونيوس : المرحع السابق ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

<sup>(٢)</sup> G. Antonius , The Arab Awakening p. ٢٥٧.



المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى<sup>(١)</sup> ويرجع إصدار هذا التصريح إلى الآتي :-

١- زيادة حدة التنافس بين بريطانيا وفرنسا من أجل السيطرة على فلسطين، وتحول اتجاه الحكومة البريطانية من مجرد الاهتمام الودي بالصهيونية والتشجيع شبه الرسمي إلى ما يقرب من التعهد والالتزام، ومن أجل ذلك ظهر وعد بلفور الذي مكن الطريق أمام بريطانيا بعد انتصارها في الحرب للمطالبة بأن تكون فلسطين من حصتها في الغنائم حتى تتمكن من تنفيذ ذلك الوعد وأدى إلى ترحيب الصهيونية بإقامة حكم بريطاني في فلسطين وتأييدهم الفعلي للإنجليز حتى يتمكنوا من تحقيقه .

٢- جهود حاييم وايزمان chaim weizman زعيم الصهيونية في بريطانيا واستاذ الكيمياء في جامعة مانشستر في الحصول على وعد من بريطانيا بتحقيق وطن قومي لليهود في فلسطين اعترافا من القادة الإنجليز له بخدماته العلمية في تحضير مادة الاستون التي تدخل في صناعة الذخائر والمتفجرات .

٣- رغبة الحلفاء في كسب ود اليهود الألمان إلى جانبهم حتى يحصلوا منهم على الاسرار الحربية لألمانيا، ويقومون بدور المخرب والمناوئء لاعداء بريطانيا.

٤- رغبة الإنجليز في توسيع حدة المشاكل بين العرب حتى لا يتمكنوا من التهور في أعقاب الحرب، مما أثار الحيرة والفرع في نفوس العرب الذين فسروا الوعد على انه بمثابة انكار لحرية العرب السياسية في فلسطين ونقضا للعهد التي قطعها الإنجليز لهم، كما رأوا في هذا التصريح اعتداء على جزء من اراضيهم وسلب حقوق أهلها وتسليمه للصهيانية .

كل ذلك أدى الى صدمة عنيفة وتزايد الشعور بالعداء للإنجليز .

أحوال العالم العربي السياسية أثناء الحرب وفي أعقابها :

حدثت الحرب العالمية الأولى في الوقت الذي كانت فيه معظم "دول العربية واقعة تحت الحكم الاستعماري فقد كانت بريطانيا تحتل عدن منذ عام ١٨٣٩ وتسيطر على "شبهات وامارات الخليج العربي هذا بالإضافة إلى قيامها باحتلال مصر في عام ١٨٨٢ وكانت فرنسا تحتل الجزائر منذ ١٨٣٠ وتونس منذ عام ١٨٨١ وماركش منذ عام ١٩١٢ وكانت إيطاليا تحتل ليبيا منذ عام ١٩١١ أما عن بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية فقد ظلت بعيدة حتى هذه الفترة عن الاستعمار الأوربي وإن كان أهلها ينتمون من نير الحكم التركي، ويعملون على التخلص منه، وتبل استقلالهم وبعد انتهاء الحرب وانتصار الحلفاء على ألمانيا وحلفائها خرج الأتراك من بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، وتأهبت قوات الثورة العربية للاستيلاء بزمم الأمور، فدخلت القوات العربية دمشق في ٣٠ سبتمبر ١٩١٨ وأعلنت فيها الحكومة العربية<sup>(٢)</sup> ولكن إنجلترا وفرنسا كلتا تبيتان للعالم العربي غير ماكان يتناه، ولما كان مصير البلاد العربية بعد الحرب لايمكن تقريره إلا في مؤتمر الصلح المنعقد في فرساي فقد وصل زعماء العرب ومنهم الأمير فيصل بن الحسين الى هناك وظل يعلق الاسال على تحقيق المطالب العربية في مؤتمر الصلح، والدفاع عن مصالح الأمة العربية

(١) منسى: تصريح بلفور ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) للتفاصيل انظر بحيرة قاسية : الحكومة العربية في دمشق ، بيروت ١٩٨٢، ص ٤٦ .

## العرب ومؤتمر الصلح :

وصل الأمير فيصل بن الحسين إلى باريس في يناير ١٩١٩ على رأس الوفد الحجازي في مؤتمر الصلح فوجد أن هناك ثلاث عقبات تعترض الأمنى العربية وهي:

- ١- اطماع بريطانيا في فلسطين والعراق
  - ٢- اطماع فرنسا في سورية
  - ٣- اطماع الصهيونية في فلسطين
- أما بالنسبة للجزيرة العربية فقد كانت تقريبا بمنأى عن هذه الأطماع اللهم حرص بريطانيا على الاحتفاظ بحمايتها في الخليج وإلى جانب هذه العقبات فقد كان الفرنسيون لا يريدون الاعتراف بالأمير فيصل بحجة أنهم لم يعترفوا بالحجاز كدولة مستقلة، كما أنهم يعترضون على تدخله في أمور البلاد السورية. ونظرا لتعدد الأمور سافر الأمير فيصل إلى لندن للبحث عن مخرج فاستقبل هناك بترحيب كبير، ولكنه فوجيء بأن اتفاق سايكس بيكو كان حقيقة وبأنه ليس في خيال الروس كما ردد الانجليز من قبل. وبعد مشاورات ومداولات سمح للأمير فيصل بدخول مؤتمر الصلح، وحجز مقعدين للحجاز فشارك بمذكرة وجهها إلى أعضاء المؤتمر طالب فيها الاعتراف باستقلال وسيادة الشعوب العربية القاطنة في آسيا واستند في ذلك إلى مبادئ الرئيس الأمريكي ولسون في حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها كما اعترض على مشروع تقسيم البلاد العربية ووصف الانتداب عليها بأنه مغل بالأمم العام في الشرق كله وطالب بتعيين لجنة أمريكية بريطانية فرنسية وعربية للنظر في المسائل المتعلقة بالجملاء، واستطلاع رأي الأهالي ورغباتهم حول تقرير مصيرهم<sup>(١)</sup>

وقد وافق المؤتمر على اقتراح فيصل بإرسال لجنة دولية إلى بلاد الشام، ونظرا لرفض فرنسا وبريطانيا الاشتراك في هذه اللجنة، وتحمس الرئيس الأمريكي "ولسن" لها أرسلت الحكومة الأمريكية لجنة "كنج كراين"<sup>(٢)</sup> للتعرف على رغبات العرب ومطالبهم. وقد بدأت اللجنة أعمالها فدخلت دمشق واجتمعت بذوى الشأن فيها، كما أخذت في استقصاء الامر، فوجدت أن هناك شيء اجماع على طلب الاستقلال. وخلال ذلك وتأكيدا للرغبة في استقلال بلاد الشام عن النفوذ الفرنسي والبريطاني تقدم بعض زعماء الشام باقتراح إلى الأمير فيصل مؤداة تشكيل مجلس وطني وإجراء انتخابات عامة حتى يثبت السوريون أمام اللجنة الأمريكية آمانيهم وآمالهم لتقدمها للجنة إلى مؤتمر السلام<sup>(٣)</sup>. ونتيجة لذلك اجتمع في دمشق في مارس ١٩٢٠ المجلس الوطني الذي أصبح يعرف بالمؤتمر السوري العام والذي أصدر عدة قرارات تتركز في :-

- ١- إعلان استقلال سوريا ولبنان والأردن كدولة واحدة على أن يكون نظام الحكم فيها ملكيا دستوريا، وتنصيب الأمير فيصل بن الحسين ملكا عليها.
- ٢- إعلان استقلال العراق والمهاداة بالأمير عبد الله بن الحسين ملكا عليها.
- ٣- رفض اتفاقية سايكس بيكو، ووعد بلفور وكل مشروع يهدف إلى تقسيم بلاد الشام وإنشاء دولة يهودية في فلسطين.

<sup>(١)</sup> فؤاد قرعوط : الشرق العربي في مواجهة الاستعمار قراءة في تاريخ سوريا المعاصر ص ٥٥.

<sup>(٢)</sup> نسبة إلى هنري كنج، وشارلس كراين.

<sup>(٣)</sup> كميل القزى : نهر الذهب في تاريخ حلب ج ٣ ص ٧٣ - ١٢٧ -



٤- رفض نظام الانتداب الذي يعطى لبريطانيا وفرنسا حق الوصاية السياسية على البلاد العربية .  
 ٥- مناقشة الرئيس الأمريكي ولسن بالوقوف في وجه الممارسات الاستعمارية ضد البلاد العربية .  
 وعلى الرغم من ذلك فإن هذه القرارات لم تأت بالتكاليح المرجوة خاصة وأن الجيوش الإنجليزية كانت تحتل العراق وفلسطين ، كما كانت تسيطر الجيوش الفرنسية على شواطئ الشام ، وإلى جانب ذلك فإن قرارات لجنة كنج كراين بعدالة الأماني القومية للعرب ، وتوصيتها بوحدة سورية تحت رئاسة الأمير فيصل قد ذهبت ادراج الرياح وأخذت كل من إنجلترا وفرنسا في تدبير المؤامرات لسلب العرب حقوقهم والمماومة على اقتسام سورية والعراق فيما بينهما<sup>(١)</sup> فابلغت الحكومة الإنجليزية الأمير فيصل باتفاقها مع فرنسا وطالبته بالسفر إلى باريس لمشاورة الحكومة الفرنسية في المطالب العربية ، وقد قابل الأمير فيصل الرئيس الفرنسي كليمنصو ، وعقد معه اتفاقاً عارضه أهالي الشام وواجهوه بثورة عارمة . ولما لم يجد الحلفاء بدا من كشف النقاب عن مؤامرتهم ومصارحة العرب بما يدور فيما بينهم اجتمع المجلس الأعلى للحلفاء في " سان ريمو " في ٢٥ ابريل ١٩٢٠ وقرر وضع العراق تحت الانتداب البريطاني ، بالإضافة إلى فلسطين مع تنفيذ وعد بلفور ، وكذلك وضع سورية ولبنان تحت النفوذ الفرنسي مما أدى إلى استياء الشعوب العربي ، وازدياد الكراهية للدول الأوروبية .

وهكذا أنشب الإنجليز والفرنسيين مخالفهم في العراق والشام هذا بالإضافة إلى نكث بريطانيا بوعودها للمصريين فتكررت عليهم حقهم في الحرية والاستقلال بعد أن اعترف مؤتمر الصلح بالحماية البريطانية على مصر . وبذلك دخل العرب مرحلة جديدة من تاريخهم تنسم بالفتح ضد الاستعمار الأوربي وأطماعه .

(١) نجيب الأرمنازي : سورية من الاحتلال حتى الخلاء ، بيروت ص ١١ .

## الموضوع الثالث عشر

### الدولة العثمانية خلال الحرب الأولى وظهور أتاتورك

دخلت الدولة العثمانية غمار الحرب الأولى في عام ١٩١٤م إلى جانب دول الوسط المكونة من ألمانيا والنمسا والمجر ضد دول الحلفاء المكونة من بريطانيا وفرنسا والروسيا وإيطاليا . ويرجع أسباب انضمام العثمانيين بجانب ألمانيا إلى ما يلي :

١ - إن صفحتهم كانت بيضاء مع العثمانيين بعكس بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا التي اقتلعت أجزاء من أراضي الدولة العثمانية ، ومزقت إمبراطوريتها<sup>(١)</sup> واستهدفت تمزيق أركانها ، وضرب الشعوب الإسلامية عقدياً واقتصادياً . فروسيا القيصرية كانت ترمى إلى تمزيق تركيا وتعمل على انتزاع مضيق الدردنيل الذي يربط البحر الأسود بالبحر المتوسط منها ، كما كانت تسعى للاستيلاء على استنبول . وبريطانيا كانت تعمل على انتزاع العراق وفلسطين من تركيا ، وتوطيد أقدامها في مصر<sup>(٢)</sup> وفرنسا كانت تريد بجانب استيلائها على الجزائر وتونس ومراكش الاستيلاء على الشام ، أما إيطاليا فيعد استيلائها على ليبيا فإن تطلعاتها تجاه ممتلكات الدولة العثمانية لم تتوقف .

٢ - تزايد المصالح الألمانية داخل الدولة العثمانية بشكل كبير خلال العقود القليلة التي سبقت وقوع الحرب فكانت هناك قروض ألمانية ، وسكة حديد برلين بغداد التي يتولى الألمان تنفيذها ، كما كان تحديث الجيش الألماني يتم على أيدي خبراء من الألمان

١- صر الذيراي : الحرب العالمية الأولى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ١٩٨٢م من ١٢٨ .

٢- هيئة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي : تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي (حزب البلشفيك) ، بيروت ، منشورات الفارابي ، ١٩٥٤م من ٢٣٢ .

- وبتسليم ألماني<sup>(١)</sup> مما هدد سيطرة إنجلترا على منطقة الشرق الأدنى .
- ٣ - عروض ألمانيا المتعددة لحل مشاكل الدولة العثمانية جعل العديد من أعضاء السوزارة العثمانية يميلون إليها ويرغبون في الوقوف بجانبها<sup>(٢)</sup> .
- ٤ - إقحام أعضاء الاتحاد والترقي للدولة العثمانية في حرب ليس لها فيها ناقة ولا جمل . ومع أن الحكومة الإنجليزية قد بذلت جهودها لضمان حياد تركيا خشية انضمامها إلى ألمانيا وذلك بتقديم التزامات تتضمن استقلالها وعدم تجزئتها<sup>(٣)</sup> ، فإن الحزب الحاكم في تركيا كان يريد الانضمام إلى جانب ألمانيا .
- ولكى تكسب الدولة العثمانية الوقت الذى يمكنها من الاستعداد لدخول الحرب بدأت في مفاصلة الحلفاء في الرد على مطالبهم بخصوص الوقوف على الحياد فى الحرب . وعرضت عليهم شروطها كى لا تنضم إلى الألمان ومنها :
- ١ - إلغاء الامتيازات الأجنبية فى أراضيها .
  - ٢ - إعادة جزر الأرخبيل إلى السلطة العثمانية .
  - ٣ - حل القضية المصرية .
  - ٤ - وقوف بريطانيا وفرنسا ضد أطماع روسيا فى الدولة العثمانية .
- وبعد ثلاثة أيام من تقديم هذه الشروط جاء رد الحلفاء كما يلى :
- ١ - يرى الحلفاء إمكانية إلغاء الامتيازات الأجنبية عدا الامتيازات القضائية التى يكون فى الغالبها أساس يحق للأجانب القاطنين فى ممتلكات الدولة العثمانية .
  - ٢ - يرى الحلفاء أن يترك طرح مناقشة قضية جزر الأرخبيل إلى وقت ملائم .
  - ٣ - ترك حل القضية المصرية إلى ما بعد الحرب ، حتى يمتن حلها بطريقة مرضية لجميع الأطراف .

١- عبد العزيز نوار وعبد المجيد نعمى : التاريخ المعاصر - أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٣ ، ص ٤٤٣ .

٢ - المجموعة التاريخية المصورة : تاريخ الحرب العظمى ١٩١٤-١٩١٨م ج٦ ، تصريح لطلعت باشا وزير الداخلية التركى تحت عنوان "موقف تركيا قبل إعلان الحرب" ص ٢٢ .

٣- وايم لانجر : موسوعة تاريخ العالم - ترجمة محمد مصطفى زيادة ج٧ ، القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٦٩ ص ٢٣٩٢-٢٣٩٣ .

#### ٤ - تعهد الحلفاء بتأمين سلامة الدولة العثمانية وتأييد استقلالها<sup>(١)</sup> .

وعلى كل حال فبعد أن بدأت الدولة العثمانية في استكمال استعداداتها حيث قامت بتعبئة نصف مليون جندي ، وتدريب حوالي ربع المليون<sup>(٢)</sup> ، أعلنت عن عزمها الاشتراك الفعلي في الحرب إلى جانب دول الوسط ، كما أعلن السلطان العثماني بصفته خليفة المسلمين الجهاد ضد الحلفاء في كافة البلدان الإسلامية التي يسيطرون عليها . وأصدر أوامره بمهاجمة الحلفاء في الجبهات التالية :

١ - الجبهة القوقازية الأناضولية .

٢ - الجبهة البلقانية .

٣ - جبهة الخليج العربي والعراق وفارس .

٤ - جبهة قناة السويس والشام .

٥ - جبهة اليمن<sup>(٣)</sup> .

وقد قام الأتراك في بداية الحرب بأعمال حربية باهرة بمساعدة الألمان<sup>(٤)</sup> فقام الأسطول التركي بضرب الموانئ الروسية على البحر الأسود ، كما بدأت القوات التركية في صد الزحف الروسي على القوقاز ، والتقدم نحو روسيا في محاولة لتطويق جيشها<sup>(٥)</sup> ، كما حاولت التقدم تجاه قناة السويس .

ثم تطورت الأمور في ربيع عام ١٩١٥ فتجمدت الجبهة الألمانية الفرنسية بعد أن توقفت ألمانيا عن محاولتها للاستيلاء على الأراضي الفرنسية نتيجة لعدم التمكن من تحقيق أي انتصار فعلي ، كما تعرض الروس لانكسار شديد ، يضاف إلى ذلك قيام الإنجليز بتركيز ضرباتهم على الجبهة التركية ومحاولتهم احتلال شواطئ الدردنيل<sup>(٦)</sup> ، واستمر القتال هناك عدة أشهر ولكي يتمكن الحلفاء من وقف الدعوة إلى الجهاد التسي أطلقها السلطان العثماني ، وتشبثت شمل الصف الإسلامي فقام الإنجليز بالاتصال

١- المجموعة التاريخية : المرجع السابق ج٥ تحت عنوان "الحلفاء يسترضون تركيا" ص ٢٠-٢١ .

٢- المجموعة التاريخية : المرجع السابق ج٥ مقال تحت عنوان "المعارك الحربية في القوقاز" .

٣- توار وتعنم : المرجع السابق ص ٤٤٨ .

٤- كارل بروكلمان : الإسلام في القرن التاسع عشر - ترجمة نبيه فارس ومثير بعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثامنة ١٩٧٩م ص ٦٠٣-٦٠٤ .

٥- المجموعة التاريخية : المرجع السابق ج٥ مقال تحت عنوان "المعارك الحربية في القوقاز" .

٦- أمين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ج١ ، القاهرة ، مطبعة الحلبي ١٣٥٩هـ/ ١٩٣٣م ص ٢١١ .

بالشريف حسين أمير مكة المكرمة ، وعرضوا عليه التعاون ضد الأتراك في نظير وعودهم له بتخليص العرب من نير الحكم التركي<sup>(١)</sup> ، ونتيجة لذلك دخل الشريف حسين الحرب ضد الأتراك واستطاع الاستيلاء على معظم مدن الحجاز ، كما استطاعت جيوش الثورة العربية إحباط حملة تركية ألمانية اتجهت إلى الجزيرة العربية ، وحالت بينها وبين السيطرة على عدن<sup>(٢)</sup> . أما عن جبهة العراق وفلسطين فقد كانت قدرات الأتراك على الصمود أمام الجيوش البريطانية محدودة ، خصوصا وأن الثورة العربية الكبرى كان لها أكبر الأثر في الحد من قدرتهم على المواجهة حيث فصلت القوات التركية المتمركزة في اليمن عن القوات الرئيسية في الحجاز والشام وسقطت العقبة في يد الإنجليز في ٦ من يوليو ١٩١٧ ، والقدس في ٩ من ديسمبر ١٩١٧م ثم تلى ذلك سقوط دمشق وبغداد<sup>(٣)</sup> .

وعن جبهة الدردنيل فقد ظلت الحرب مستعرة ، ولم تكمل الغلبة لواحد من الطرفين . وإن كان مصطفى كمال قد استطاع تملك زمام الموقف وتعبئة الروح المعنوية والقتالية لدى جنوده خصوصا بعد أن حل محل القائد الألماني "ساندروس"<sup>(٤)</sup> .

ونتيجة لخروج الدولة العثمانية من الحرب مكسورة الجناح ممزقة الأوصال فقد اتفق الحلفاء في مؤتمر سان ريمو في إبريل ١٩٢٠م على اقتسام البلدان العربية التابعة لتركيا فيما بينهم ، كما اتفقوا في معاهدة "سيفر" على تقسيم أملاك الدولة العثمانية الأوروبية فيما بينهم أيضا فأعطيت اليونان معظم أملاك الدولة العثمانية الأوروبية عدا القسطنطينية وبحر مرمرة ، وجعلت القسطنطينية تحت وصاية لجنة دولية ، وأجبر السلطان العثماني وحيد الدين على التوقيع على هذه المعاهدة<sup>(٥)</sup> التي لو لو نفذت بنحو ١٠ سنوات لتركيا أثرا بعد عين مما جعل الرأي العام التركي يثور على السلطان وأدى إلى إبراز دور كمال أتاتورك ورجاله الذين تمكنوا من دحر القوات اليونانية وتفريق شملها ، يضاف إلى ذلك أن الإنجليز الذين أرادوا أن يجعلوا من أتاتورك بطلا في نظر الشعب التركي حتى يتمكن من القبض على زمام الأمور في تركيا ويساعد على تحقيق مطالبهم انسحبوا فجأة وبطريقة مريبة من ساحل غاليبولي وتركت سفنهم الحربية مواقعها بسرعة

١- عبد العزيز نوار : تاريخ العرب المعاصر مصر والعراق ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٣ ص ٨٥ .

٢- إحياء قنطرة : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٥ ص ٢٥٢ .

٣- نوار ونعنعى : المرجع السابق ص ٤٦٩ .

٤- دراجيرت فون ميكوش : مصطفى كمال المثال الأعلى - ترجمة كسامل مسيحه - بيروت ، المكتبة الأدبية ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م ص ١٣٢-١٤٥ .

٥- نوار ونعنعى : المرجع السابق ص ٤٩٠ .

مذهلة<sup>(١)</sup> مما أدى إلى استرداد الأتراك للعديد من المواقع وانتصار قوات أتاتورك<sup>(٢)</sup>. ونتيجة لذلك بدأ نجم أتاتورك في الازدياد وبدأ الناس يتحدثون عن شجاعته وبطولته، وانتهى الأمر بعقد معاهدة لوزان ١٩٢٣م التي أقيمت لتركيا الأناضول وأدرنة والقسطنطينية وأخرجت ما بيدها من البلدان العربية<sup>(٣)</sup>.

وفي أعقاب ذلك أعلن مصطفى كمال فصل السلطنة عن الخلافة ثم قام بانقلاب ضد السلطان وحيد الدين، وعزله بالقوة وأحل محله خليفة عثماني آخر وهو السلطان عبد المجيد بن عبد العزيز في عام ١٣٤٠هـ الموافق ١٧ من نوفمبر ١٩٢٢م، وفي أعقاب ذلك بدأ التخطيط لإلغاء الخلافة وإعلان علمانية الدولة، فقرر مصطفى كمال إعلان الجمهورية، وتم اختياره رئيساً لها<sup>(٤)</sup>. وفي عام ١٣٤١هـ الموافق أول مارس ١٩٢٤م قام مصطفى كمال بدعوة المجلس الوطني، وتقرر فيه طرد الخليفة وإلغاء الخلافة، وفصل الدين عن الدولة، والأخذ بالقانون المدني السويسري ليكون بديلاً عن القانون الإسلامي في الأحكام الشرعية<sup>(٥)</sup>، ونقل عاصمة الدولة إلى أنقرة، ونتيجة لذلك غادر السلطان عبد المجيد آخر خليفة عثماني تركيا إلى سويسرا<sup>(٦)</sup>، كما ألغيت الوظائف الدينية والشرعية، وأصبحت الأوقاف ملكاً للدولة مما أثار موجة عنيفة من السخط والغضب في كافة الأوساط الإسلامية.

وهكذا زالت الدولة العثمانية من الوجود، وأصبحت أثراً بعد عين.

١- علي حسون: الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية، بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى.

٢- د. جويرت قون ميكونش: المرجع السابق ص ٦٣٧.

٣- لوثرروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي - ترجمة عجاج نويهض، بيروت، دار الفكر، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ ص ٣٢٦-٣٢٧.

٤- محمد محمد توفيق: كمال أتاتورك، القاهرة، دار الهلال، ١٩٣٦ ص ١٣٩.

٥- محمود شاكر: مواطن الشعوب الإسلامية في آسيا - تركيا، بيروت، مؤسسة الرسالة ص ٥٤.

٦- محمد توفيق: المرجع السابق ص ١٤٠.



## الموضوع الرابع عشر

### الدولة العثمانية ما لها وما عليها

من المعروف أن لكل دولة مزايا تذكر لها ، وماأخذ تسجل عليها وأن المؤرخ الصادق هو بمثابة القاضى الذى يحكم بالحجثيات وشهادة الشهود ، لذلك فليس من الموضوعية إغفال مزايا الدولة العثمانية والاقتصار على تسجيل عيوبها أو العكس بل يجب على المؤرخ أن يتعرض للجائين معا دون التحيز لهذا الجانب أو ذاك .  
ومن المعروف أن تاريخ آل عثمان بما فيه من حسنات وسينات هو فى الواقع يعد حلقة من تاريخ المسلمين ، كما يعد مرحلة طويلة من مراحل تاريخ العرب الحديث ولا سيما فى الشرق الأدنى<sup>(١)</sup> . فلم ينظر العرب إلى الدولة العثمانية على أنها دولة أجنبية أو مغتصبة أو مستعمرة لبلادهم إلا فى بداية القرن الحالى ، خصوصا وأن العثمانيين مسلمون ، والدين السائد فى البلاد العربية هو الإسلام ، كما أن الدولة العثمانية حملت لواء الخلافة الإسلامية بعد هزيمتها للمماليك فى موقعى مرج دابق والريدانية ، ونقل الخليفة المموكل على الله آخر الخلفاء العباسيين من مصر إلى استنبول<sup>(٢)</sup> .

وحتى نتضح الصورة حول إيجابيات وسلبيات الحكم العثمانى ينبغى أن نقسم أدوار هذا الحكم إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة القوة . وهى المرحلة التى شيد فيها العثمانيون دولتهم على أسس سليمة مكنتهم من فرض سيطرتهم على مناطق كبيرة فى آسيا وأوريسا وأفريقية . وكانت نظرة العثمانيين خلالها لا تخلو من الشعور بالقوة والتفوق على من عداهم من البشر ، وحيث كانوا يعتمدون فيها على موقف المؤمن من غير المؤمن المدعم بتفوق عسكري كاسح ، لذا فقد بنت الدولة العثمانية قواعدها على أنها دولة عسكرية وكل أفرادها - حتى ولو كانوا من العلماء والشيوخ - يعد محارباً عند الحاجة ، وهذه الفترة يمكن أن تتوقف عند موت السلطان سليمان القانونى ١٥٦٦م ومرحلة الضعف

١- محمد جميل بيهيم: فلسفة لتاريخ العثمانى ج٢ ، بيروت ، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م ص ٨ .

٢- للتفاصيل انظر محمد بن أحمد بن لياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج٣ ، القاهرة ، المطبعة الكبرى ببولاق ،

١٣١٢هـ - ص ١٢٠ ، ص ١٤٧ .



وهي التي تميزت بالهزائم العسكرية المتلاحقة التي برزت منذ هزيمة كارلوفيتز 1699-1702م حيث اتضح من خلالها مدى تخلف القوات العثمانية عن ركب الحضارة الحديثة وعجزها عن رد كيد أعداء المسلمين<sup>(١)</sup>. ويمكن القول بأن هذه المرحلة استمرت حتى سقوط الخلافة.

ومن خلال هاتين المرحلتين يتضح أن السلاطين الأوائل من آل عثمان كانت في الواقع لهم أياد بيضاء في رفع شأن الإسلام وما وصل إليه من عظمة وسؤدد وسيادة. كما تحمل الأواخر منهم مسؤولية المصير المؤلم الذي آلت إليه الدولة في عهدهم، وأدى في النهاية إلى انهيارها<sup>(٢)</sup>.

فمن المعروف أن العثمانيين في فتوحاتهم لأوروبا نظروا إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شيء، فكان ولاؤهم يتجه إلى الدين الإسلامي أولاً<sup>(٣)</sup> حيث كان الدين والدولة عندهم شيئاً واحداً، والقرآن والسنة هما المصدران الأصيلان في أي تحرك من شأنهم أو عليهم، ومن هنا فتحو للإسلام العديد من الأمصار التي لم يطمأ إليها قدم مسلم من قبل<sup>(٤)</sup>، مما كان له أثر طيب في نفوس المسلمين، ففي القاهرة ودمشق كانت تقام الأفراح والزيارات عقب كل انتصار يحرزه العثمانيون.

وقد اقترنت حركة الفتوحات العثمانية سواء في الأناضول أم في أوروبا باسم الإسلام ومن هنا نظر الأوروبيون إلى الفتوحات العثمانية على أنها فتوح إسلامية، فباسم الإسلام واصل عثمان مؤسس الدولة العثمانية جهوده في نشر الإسلام في مناطق الثغور، وواصل عمليات الجهاد الإسلامي المنظم ضد الكيانات المسيحية المجاورة به.

وباسم الإسلام تمكن مراد الأول ثالث أمراء آل عثمان ٧٦٢-٧٩٢هـ/١٣٦٠-١٣٨٩م من دخول البلقان وتحقيق العديد من الانتصارات التي توجت بفتح مدينة

١- تنازلت بعدها الدولة العثمانية عن المجر وترانسلفانيا وبعض المناطق الأخرى لروسيا والنمسا وبولندا.

٢- سود مصطفى: الإصلاح العثماني في القرن الثامن عشر - نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في السلطنة العثمانية ١٨٠٣م - تحقيق خالد زيادة، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٩٧٩م ص ١١.

٣- مجموعة من المؤلفين: عصر السلطان عبد الحميد الثاني وأثره في الأقطار العربية ١٨٧٦-١٩٠٩م، دمشق، المكتبة الحاشمية، الطبعة الثانية، ص ٩.

٤- عبد العزيز الشنوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفرقة عليها جسد، القاهرة، الأنجلو المصرية ١٩٨٠م ص ١٠.

٥- ول ديورانت: قصة الحضارة - ترجمة عبد الحميد يوسف، جسد من الجسد الماس، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص ١٠٩.

أدرنة" ١٣٦١م<sup>(١)</sup> وهزيمة القوى النصرانية ونقل العاصمة من يروسة إلى أدرنة التي  
عمرت بالمساجد والمدارس وأصبحت نقطة انطلاق لمواصلات الفتوحات الإسلامية في  
أوروبا<sup>(٢)</sup>.

وباسم الإسلام استولى الجيش العثماني على العديد من مدن شرق أوروبا ومن أبرزها  
صوفيا عاصمة بلغاريا التي تم الاستيلاء عليها في عام ٧٨٧هـ/١٣٨٥م<sup>(٣)</sup>.  
وباسم الإسلام استمرت الفتوحات العثمانية في البلقان وتساقطت مدنها أمام ضربات  
العثمانيين ، ووصل العثمانيون إلى المورة وأخضعوها لحكمهم وأصبحت معظم بلاد البلقان  
تحت الحكم العثماني<sup>(٤)</sup>.

وباسم الإسلام فتح محمد الثاني القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في عام  
٨٥٧هـ/١٤٥٣م مصداقا للحديث الشريف "تفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم  
الجيش ذلك الجيش"<sup>(٥)</sup> ذلك الفتح الذي يعد نقطة تحول فاصلة ليس فقط في تاريخ  
العثمانيين<sup>(٦)</sup> بل وفي تاريخ الصراع بين النصرانية والإسلام فبعد هذا الفتح المبين أمر  
محمد الفاتح أن يؤذن فيها ، واتجه إلى القبلة وصلى كما حول كاتدرائية آيا صوفيا إلى  
مسجد وأطلق على القسطنطينية اسما إسلاميا جديدا وهو إسلامبول<sup>(٧)</sup> بمعنى عاصمة  
الإسلام ، وبنى محمد الفاتح مسجدا كبيرا يحمل اسمه ، كما بنى عشرة مساجد أخرى<sup>(٨)</sup>  
ألحق بها مدارس للتعليم ومستشفيات للفقراء ولم تتوقف جهود الفاتح على ذلك بل  
استطاع القضاء على الإمارات المسيحية في الأناضول ، وتحويل أسيا الصغرى كلها

١- أرنولد توينبي: تاريخ البشرية ج٢ - ترجمة نقولا زينة ، بيروت ، الألفية للنشر ١٩٨٨م ص ١٨٧.

٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ، بيروت ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م  
ص ٤٨-٥٠.

٣- عبد الكريم رائق : العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ص ٣٤.

٤- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين  
١٩٨٤م ص ٤٢٧-٤٣٨.

٥- ورد في مسند أحمد ، وفي مسند مالك للحاكم (حديث صحيح) ونظر أيضا جلال الدين السيوطي: الجامع الصغير في  
أحاديث البشير النذير ، المجلد الثاني ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص ٤٠٣ رقم ٧٢٢٧.

٦- سيد مصطفى : المرجع السابق ص ٩.

٧- حملت القسطنطينية على مر تاريخها أسماء عديدة منها استانبول واستانبول ودار السعادة ودار الخلافة والأستانة .

٨- منها مسجد آيو أيوب الأنصاري "نظر دليل الأستانة" ص ٢.

إلى مناطق عثمانية .

وباسم الإسلام شرع هذا السلطان تنفيذ مشروعا خطيرا وهو الاستيلاء على روما مقر الباباوية مقسما أن يقدم الطعام بيده إلى حصاته وهو واقف على مذهب الكنيسة الباباوية في روما مما أزعج العالم المسيحي كله الذي لم يتنفس الصعداء إلا بعد وفاة هذا القائد المسلم في عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م .

وباسم الإسلام تعددت مظاهر الطابع الإسلامي في السياسة العامة للدولة العثمانية بدءا بالمراسيم التي كانت تتخذ عند تقليد السلاطين العثمانيين عرش السلطنة حيث كان السلطان الجديد يتسلم عرش السلطنة في موكب رسمي يتجسه إلى مسجد أبي أيوب الأنصاري ، ويتسلم في جو ديني سيف الجد الأكبر للسلاطين العثمانيين السلطان عثمان الأول<sup>(١)</sup> .

وباسم الإسلام تردد في القوانين العامة التي أصدرها السلاطين ، وفي مراسيم التنظيمات العثمانية ما يؤكد حرص الدولة على الظهور بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية والملتزم لأحكامها<sup>(٢)</sup> .

وباسم الإسلام استولى السلطان سليمان القانوني على بلجراد ورودس ويودابست ووصلت قواته إلى فينا آخر نقطة وصل إليها العثمانيون في فتوحاتهم بأوروبا<sup>(٣)</sup> .

وباسم الإسلام قدم السلطان العثماني أبو يزيد الثاني ١٤٨٠-١٥١١ المعاونة للسلطان المملوكي قانصوه الغوري بعد تحطيم أسطوله في معركة ديسو البحرية فأمدّه بالأسلحة والأخشاب اللازمة لبناء أسطول جديد . وتجهيز حملة أخرى لمواجهة البرتغاليين استنفاذا للأماكن الإسلامية المقدسة<sup>(٤)</sup> ، كما انضم إلى الأسطول المملوكي بعض البحارة والضباط من الأسطول العثماني للوقوف معا ضد البرتغاليين<sup>(٥)</sup> .

وباسم الإسلام أوقفت الدولة العثمانية المخطط الصليبي الذي كان يستهدف دخول البرتغاليين البحر الأحمر ، والاستيلاء على جدة والزحف على مكة المكرمة لهدم الكعبة

١- كارل بروكلمان : الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، بيروت ، ١٩٤٩ ص ٤٦ .

٢- أحمد فهد الشوايكة : حركة الجامعة الإسلامية ، الزرقاء ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ ص ١٤ .

٣- أحمد محمود السادات : تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩م ص ٢٥٥ .

٤- ابن أريس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جزء ٤ ص ٢٠١-٢٠٣ .

٥- محمد عبد المنعم الرافد : الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، القاهرة ، مؤسسة شباب الجامعة ص ١٢٣-١٢٥ .

المشرفة ، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة لنيل قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومواصلة الزحف إلى تبوك وصولاً إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، فقامت الدولة العثمانية بوضع خطة جديدة تمثلت في اتخاذ الموانئ اليمنية - خصوصاً عدن - خط دفاع لمهاجمة المراكز البرتغالية في الهند ، والدفاع عن سواحل البحر الأحمر ، كما استطاعت دحر الأسطول البرتغالي بالقرب من جدة عام ٩٢٣هـ ، وتحطيم كل المحاولات التي بذلها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية ، وذلك بالتحالف مع الأحباش ضد القوى الإسلامية في البحر الأحمر وشرقي أفريقيا<sup>(١)</sup> .

وباسم الإسلام قامت الدولة العثمانية بتوحيد أقطار العالم الإسلامي في إطار سياسي واحد ، وتآليف جبهة إسلامية واحدة بعد أن كانت كيانات متنافرة . وتكاد تكون متباعدة بين بعضها منذ أن تلاشت الوحدة الإسلامية نتيجة ضعف الخلافة وسقوطها في عام ٦٥٦هـ على يد المغول<sup>(٢)</sup> ، وأصبحت رابطة الدين هي الرابطة الأساسية بين البلاد العربية بعضها مع بعض وبين الدولة العثمانية .

وباسم الإسلام اهتمت الدولة العثمانية بأمور الحجاز - وكان من أبرز مظاهر ذلك هو اهتمامها بالآماكن الإسلامية المقدسة - حيث به قبلة المسلمين ، ومهبط الرسالة ، ومنزل الوحي ، وملتقى قلوب المسلمين فقد أمر السلطان سليم الأول بوضع ثلث ما كان يجبي من مصر للإتفاق على خدمة الحرمين الشريفين ، كما أضاف لهذه المهمة أيضاً خراج اليونان مما أضفى على البلاد الحجاز مركزاً دينياً مرموقاً ، كما أولت الدولة العثمانية قوافل الحج والإشراف عليها ، وتيسير الحج أمام الراغبين فيه اهتماماً خاصاً فاهتمت بالطرق ، وحفرت الآبار على طول طرق الحج ، وأقامت المخافر ، وكانت تشرف على قواعد الحج الرئيسية التي كانت تخرج من كافة أنحاء الدولة في مواعيد محددة<sup>(٣)</sup> .

وباسم الإسلام تدخلت الدولة العثمانية لنجدة أهالي الخليج العربي الذين طلبوا منها المعاونة في عام ٨٥٧هـ/ ١٥٥٠م لمواجهة الخطر البرتغالي على بلادهم ، فبعث السلطان سليمان القانوني بحملات منظمة من السويس إلى الخليج العربي لمعاونة إخوانه في الإسلام ، وسار على نهج بقية السلاطين من بنى عثمان حتى عام ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م .

١- الشناوي : المرجع السابق ج١ ص ٢١ .

٢- رأفت الشيش : تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ص ٣١ .

٣- مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية : قدسية الحرمين الشريفين - القاهرة ، حجر للطباعة والنشر ، مقال للدكتور مصطفى المرسى تحت عنوان قوافل الحج في الدولة العثمانية ص ٦٣-٦٤ .

واستطاعت هذه الحملات أن تنزل العديد من الهزائم بالبرتغاليين<sup>(١)</sup> . وباسم الإسلام وقفت الدولة العثمانية ضد الأطماع البرتغالية وحالت دون تحقيقها في أرض الإسلام وذلك بعد أن عجز الممالك وغيرهم من الوقوف أمام تهديدات البرتغاليين خصوصاً بعد معركة ديو البحرية ١٥٠٩م فقامت بإغلاق البحر الأحمر فسي وجه السفن النصرانية ، ولم يسمح لها بتسيير سفنها في القسم الشمالي من البحر الأحمر ، أو بالإبحار في هذا البحر فيما وراء ثغر المضايق الجنوبية الجديدة في اليمن ، وكانت ذريعتها في ذلك أن أهم الأماكن الإسلامية في العالم علي الإطلاق تقع في الحجاز ، ويطل ساحل هذا الإقليم على البحر الأحمر ، لذلك يجب ألا تبحر منه غير السفن الإسلامية<sup>(٢)</sup> ، وظلت الدولة العثمانية متمسكة بذلك الموقف حتى أواخر القرن الثامن عشر<sup>(٣)</sup> ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية قدمت أعظم خدمة للإسلام حيث وقفت في وجه الزحف الصليبي البرتغالي للبحر الأحمر والأماكن الإسلامية المقدسة ، وكانت الملجأ للعالم الإسلامي وقت الملهمات . وباسم الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة عرب شمال إفريقيا في الصراع الصليبي مع الأسبان والبرتغاليين الذين حاولوا احتلال هذه الأقاليم وتحويلها إلى المسيحية فأعلن السلطان سليم الدعوة إلى الجهاد في شمال إفريقيا وأمر بتكوين كتائب المجاهدين<sup>(٤)</sup> حتى استقرت الأمور للإسلام والمسلمين هناك . وباسم الإسلام ساندت الدولة العثمانية أهالي طرابلس في مقاومة الخطر الصليبي على بلادهم بعد أن أرسلوا إلى السلطان سليمان القانوني يلتمس منه التدخل لإنقاذهم لتحرير بلادهم من الأسبان الذين استولوا عليها<sup>(٥)</sup> وفرسان القديس يوحنا الذين استهدفوا تغيير الوجه الإسلامي لبلادهم . وقد أرسل السلطان سليمان قواته للمحافظة على هذه البلاد العربية الإسلامية<sup>(٦)</sup> حتى استقرت الأمور هناك .

١- نوال الصيرفي : التفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، الرياض ، دار الملك عبد العزيز ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٤٤-١٤٥ .

٢- الشناوي : المرجع السابق ج٢ ، ص٦٩٨-٦٩٩ .

٣- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة ، الأجلو المصرية ١٩٨٥ ص١٢٨ .

٤- عبد الكريم رفاق : المرجع السابق ص٧٦-٧٧ .

٥- الشناوي : المرجع السابق ج٢ ص٩٢٨-٩٢٩ .

٦- مجلة للتاريخية المصرية : المجلد الخامس والعشرون ١٩٧٨ مقال للدكتور ناصر سعودي تحت عنوان "طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر" ص١٤٩-١٥٠ .

وباسم الإسلام قام العثمانيون بملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردهم من رودس<sup>(١)</sup> ثم من ليبيا عام ١٥٥١م وكذلك قيامهم بكسر شوكة الأسبان في حوض البحر المتوسط الغربي<sup>(٢)</sup>

وباسم الإسلام وقفت الدولة العثمانية أمام زحف الصفويين الشيعة الذين تمكنوا من الاستيلاء على العراق ، ونشر المذهب الشيعي في الأناضول ، وراحوا يحملون الناس قسوا على الدخول في مذهبهم ، ولا يترددون في إلقاء مدن بأسرها ، والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحدانا حين يرفضون الاستجابة لدعوتهم ، ويتمسكون بالمذهب السني<sup>(٣)</sup>

وكان من نتيجة ذلك قيام السلطان العثماني سليم الأول بغزو فارس والانتقاء مع الصفويين بوادي جالديران<sup>(٤)</sup> في أواخر عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م في معركة رهيبة استطاع فيها العثمانيون هزيمة الصفويين في جالديران ودخول عاصمتهم تبريز<sup>(٥)</sup> في ١٤ من رجب ٩٢٠هـ وضم ولايتي ديار بكر وكرديستان إلى بلاده والاستيلاء على خزائن الشاه ، والقضاء على المد الشيعي في الأناضول<sup>(٦)</sup> والعمل على انحسار في العراق ، وبذلك استطاع العثمانيون حماية المذهب السني من خطر الزحف الشيعي الذي كان الشاه اسماعيل الصفوي يأمل في نشره في كافة أنحاء المشرق العربي والقضاء على المذهب السني . ولم يكتف العثمانيون بذلك بل خاضوا العديد من المعارك مع الفرس دفاعاً عن العراق الذي كان الفرس يتطلعون إليه دائماً . وبرغبون في صبغته بالصبغة الشيعية وتوسيعه بحد السيف<sup>(٧)</sup> . وبالرغم من أن ذلك كلفهم العديد من الرجال والعتاد<sup>(٨)</sup> فقد تمكنوا من حصر المذهب الشيعي في فارس ، ولم يسمحوا بتسربه إلى البلدان العربية الواقعة تحت

١- ول ديورانت : المرجع السابق ج ٤ المجلد السادس ص ١٢٧ .

٢- رافت التليخ : المرجع السابق ص ٣٢-٣٣ .

٣- أحمد الساداتي : المرجع السابق ص ١٥٢ .

٤- يقع بين بحيرة أرمية وكهریز بآذربيجان .

٥- الشنأوي : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٦٤ .

٦- مما يذكر أن السلطان سليم قتل نحو الأربعين ألفاً من الشيعة . انظر محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية -

تحقيق إحسان حقى ، بيروت ، دار الفانس ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ص ١٨٩ .

٧- عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية منجست باشا ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ص ٥ .

٨- الساداتي : المرجع السابق ص ٢٥٥ .

سيطرتهم<sup>(١)</sup> ، وبذلك ظهر سلاطين الدولة العثمانية أمام العالم الإسلامي بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية ، والحماة للتقليدين للمذهب السني .

وباسم الإسلام عد الأتراك أنفسهم حراسا لدولة الإسلام وقد دفعهم ذلك إلى الاحتفاظ بحاميات في الأقاليم العربية التابعة لهم ، وإذا كان الجندي العثماني لا يتميز بسرعة اندماجه مع الأهالي فإن طول مدة إقامة الحاميات العثمانية في عدد من الأقاليم البعيدة عن عاصمة الدولة ، وخاصة في شمالي إفريقية كان يسمح بنوع من الاندماج والمصاهرة<sup>(٢)</sup> .

وباسم الإسلام أصدرت الدولة العثمانية بعد فتحها لمصر فرماتا بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء على أساس أنها تضم الوادي المقدس طوى الذي كلم فيه الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام فقال تعالى: 'وكلم الله موسى تكليما'<sup>(٣)</sup> ، وقال : أيضا 'ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه'<sup>(٤)</sup> .

وسار سلاطين الدولة العثمانية على هذا المنوال حتى جاء الإنجليز وسيطروا على مصر في عام ١٨٨٢م فتغيرت الأوضاع<sup>(٥)</sup> هناك .

وباسم الإسلام استولى العثمانيون على قسم كبير من الحبشة (١٥٢٩-١٥٤٢) فسي المعركة التي دارت رحاها بينهم وبين القوات البرتغالية ، والتي قنبت فيها القوات العثمانية إلى جانب المسلمين ، بينما قاتل البرتغاليون إلى جانب الأحياء . ثم خرجت الحبشة من القتال وقد أصابها الدمار ونقص سكانها<sup>(٦)</sup> .

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثاني بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية خصوصا وأن مبعث ولاء المسلمين للدولة العثمانية كان دينيا ، حيث كانوا مكلفين شرعا بطاعة السلطان باعتباره الخليفة والأب الروحي للمسلمين ، وتائب رسول الله صلى الله

١- الشناوي : المرجع السابق ج٢ ص ٩٦٥ .

٢- جلال يحيى : المغرب الكبير ج٣ ، المصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٨١م ص ٧٠٠ .

٣- النساء : الآية ١٦٤ .

٤- الأعراف : الآية ١٤٣ .

٥- الشناوي : المرجع السابق ج٢ ص ٩٦٦ .

٦- توينبي : المرجع السابق ج٢ ص ١٨٩ .

عليه وسلم ، وعليهم أن يسمعوا له ويطيعوا<sup>(١)</sup> . ومن هنا رأى السلطان عبد الحميد الثاني استخدام هذا الولاء في حماية البلدان الإسلامية من الأخطار التي تحيط بها ، واتخاذها من حالة التفسخ والركود الذي تغفل بين أفرادها فدعا إلى جامعة إسلامية تجمع بين المسلمين مهما اختلفت لغاتهم وبلادهم .

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثاني بإنشاء سكة حديد الحجاز الذي يصل دمشق بالمدينة المنورة . وبذلك شهدت الأراضي الإسلامية المقدسة لأول مرة في التاريخ "خطا حديديا" يخدم حجيج بيت الله الحرام ، ويوفر لهم الأمن والسرعة والراحة بعد أن كانوا يستخدمون قوافل الجمال ويتعرضون للعديد من المخاطر ، فكان ذلك أعظم هدية قدمها السلطان عبد الحميد للمسلمين<sup>(٢)</sup> .

وباسم الإسلام وقف السلطان عبد الحميد الثاني ضد استيطان اليهود في فلسطين ، فعندما عرض عليه هرتزل حل أزمة المالية في نظير السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين<sup>(٣)</sup> رفض طلبه وحسم الموقف معه بقوله "إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي ، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض، ورواها بدمه ، فليحفظ اليهود بملايئنتهم"<sup>(٤)</sup> .

ولإحساس السلطان عبد الحميد بعدم توقف الضغوط اليهودية عليه بدأ يهتم بالأوضاع الإدارية في بيت المقدس فجعلها متصرفية تابعة للباب العالي مباشرة بعد أن كانت تابعة لباشا دمشق ، كما عين محمد شريف رءوف باشا المشهور بشيخته متصرفا على القدس<sup>(٥)</sup> . يضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية حافظت على تقاليد الخلافة السابقة قسي اعتمادها على القرآن كمصدر للتشريع وإن كانت تحيد عن بنوده في بعض الأحيان<sup>(٦)</sup> . كل ذلك جعل العالم الإسلامي ينظر إلى أعمال العثمانيين على أنها مخبرة للإسلام والمسلمين .

هذا عن مشارب الدولة العثمانية فماذا عن مثاليها .

١- محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ج١ ، القاهرة ، الطبعة المصرية ١٩٥٢م ص٢٠ .

٢- الشناوي : المرجع السابق ج٣ ص١٣٢٥-١٣٢٦ .

٣- الشناوي : المرجع السابق ج٤ ص٩٨٨ .

٤- عبد الحميد الثاني : مذكراتي السياسية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ ص٢٤ وما بعدها .

٥- سيد مصطفى : المصدر السابق ص١٠ .

٦- الشناوي : المرجع السابق ج٢ ص٩٧٥-٩٧٩ .



- الواقع أن هناك العديد من المآخذ التي أخذت على العثمانيين مثل عدم نجدتهم لأهل الأندلس خلال سقوط غرناطة . ونظام الحكم العثماني سواء في داخل مقر السلطنة أو في الولايات العربية ، وضعف اللغة العربية وضياع هبة العلماء ، والمآسى التي ارتكبت في أواخر الحكم العثماني ضد العرب خصوصا بعد ظهور الفترات القومية كالطورية أو غيرها وفيما يلي تعرض لذلك :

#### ١ - عدم نجدة أهل الأندلس خلال محنتهم :

تحمل الدولة العثمانية بصفحتها أكبر دولة إسلامية وقت سقوط الأندلس مسئولية عدم تقديم النجدة للغرناطين الذين ناشدوها مساعدتهم عسكريا في صراعهم من أجل البقاء، والمحافظة على الدين والملة ، فقد أرسل أهل غرناطة في منتصف عام ١٤٧٧م إلى السلطان محمد الفاتح يناشدونه التدخل لإنقاذهم ولكنه كان مشغولا عنهم<sup>(١)</sup> ، كما استجد الغرناطيون بالسلطان بيلازيد الثاني ١٤٨٠-١٥١١م ولكنه لم يقدم لهم النجدة<sup>(٢)</sup> .

#### ٢ - التنازع على وراثة العرش وتناثر الأسرة المالكة العثمانية :

إن نظام التوارث على العرش يكون له أثر كبير في استقرار أمور الدولة إذا بنى على أسس ثابتة ومعروفة ، أما في الدولة العثمانية فإن هذا النظام كان في حاجة إلى انتظام ففي الفترة الأولى من عصر السلاطين كان نظام الوراثة يقوم على أساس انتقال العرش من الابن البكر إلى الأكبر فالأصغر من الأبناء ، وهكذا فإن أخوة السلطان وأنساءهم الذين يخرجون من السلطة بمقتضى هذا النظام كانوا كثيرا ما يغتصبون الفرص للخروج على السلطان أملا في استخلاص العرش لأنفسهم ، يقابل ذلك أن السلطان القائم كان يفقد الثقة بأخوته ولا يتورع عن الفتك بهم ، ثم عدل نظام الإرث في عهد السلطان الرابع عشر أحمد الأول ١٦٠٣-١٦١٧م فأصبح العرش ينتقل من الأكبر فالأصغر من إخوة السلطان بدلا من انتقاله إلى الأكبر فالأصغر من بنيهِ<sup>(٣)</sup> ، ثم تغير هذا النظام بأن أصبح للسلطان الحاكم الحق في أن يختار من يخلفه من بين أبنائه أو من إخوته دون أن يتقيد باختيار الابن أو الأخ الأكبر من أدى إلى ظهور روح التناثر ، وقيام المؤامرات داخل القصور السلطانية لإبعاد أمير عن العرش أو تقريب أمير آخر منه ، وكانت هذه المؤامرات تأتي غالبا من زوجات السلطان اللاتي أتجن أولادا منه رغبة في أن يكون

١- الشناوي : المرجع السابق ج٢ ص ٨٩٨ .

٢- هناك من يذكر أن السلطان بيلازيد الثاني أرسل أسطولاً لنجدة أهل الأندلس ولكن ذلك لم يشأ تاريخيا . انظر سستالي ثين بول : الدول الإسلامية - ترجمة محمد صبحي قرزات - القسم الأول ، دمشق ، مكتب الدراسات الإسلامية ص ٦٥ .

٣- بيهم : المرجع السابق ج٢ ص ١٧ .

ابتهن وليا للعهد ، ونظرا لهذا التصارع للوصول إلى السلطة كان الابن الذى يصل إلى منصب السلطنة كثيرا ما يقوم بقتل جميع منافسيه ، أو يفرض عليهم أن يظلوا سجناء فى قصورهم لا يخالطون أحدا ومن غريب الأمر أن يصدر السلطان محمد الفاتح قانونا يحول بمقتضاه السلطان الذى يتولى العرش بأن يقوم بقتل إخوته تأمينا لسلامة الدولة وأمنها القومى<sup>(١)</sup> ، وقد عبر محمد الفاتح عن ذلك صراحة فى سجل القواتين بقوله "إن غالبية المشرعين أعلنوا أن اللامعين من أبنائى الذين يتولون العرش يكون لهم الحق فى إعدام إخوتهم تأمينا للسلام فى الدولة وعليهم أن يعملوا طبقا لهذا" وبهذا حكم محمد الفاتح فى هدوء بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا الكبار منهم ، وثمة سينة أخرى من سينات هذا النظام وهى أن ممتلكات المحكوم عليهم بالإعدام كانت تؤول إلى السلطان مما شجع العديد من السلاطين على اقتراف هذه الجريمة<sup>(٢)</sup> .

أى صلات رحم هذه التى يقوم فيها الأخ بقتل إخوته خشية على سلطته ؟ ثم جاء بعد ذلك دور الإنكشارية فى التمثيل بالسلاطين أنفسهم وعزلهم وتنصيب من يجدون فيه عوناً لهم وذلك منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، وأبرز الأمثلة على ذلك أنهم قاموا بخلع السلطان مصطفى الأول ، وقتلوا عثمان الثانى وإبراهيم الأول<sup>(٣)</sup> .

### ٣ - زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبيات :

لقد سمح الإسلام للرجل المسلم بالزواج من النصرانية أو اليهودية طبقاً لقوله تعالى: "اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا ءاتيتوهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن كفر بالإيمان قد حبس ط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين"<sup>(٤)</sup> .

ولكن قد يقتضى الأمر أحيانا عدم الزواج من الكنائيات خشية تسرب أسرار الدولة إلى أعدائها من اليهود والنصارى ، وقد يقتضى الأمر أيضا زواج السلاطين من الكنائيات لمصالح سياسية فمثلا كانوا يتزوجون من بنات الملوك والأمراء النصارى أو اليهود ليكسبوا ودهم .

١- الشناوى : المرجع السابق ج١ ص ٣٤٦-٣٤٩ .

٢- ول ديورانت : المرجع السابق ج٤ المجلد السادس ص ١١٥ .

٣- بوهم : المرجع السابق ج٢ ص ٦٨ .

٤- سورة المائدة : الآية ٥ .

وعلى الرغم من أن المؤسسين الفاتحين من آل عثمان قد اختاروا الزواج من  
الأجنبيات لغايات سياسية ، ولتأمين العصبيات فاتته سرعان ما تطورت الأمور وأصبحت  
قصور السلاطين آهلة بالجواري والسراري الأجنبية اللاتي تظاهرن بالإسلام ولكنهن فى  
الواقع لن يشين أوطانهن الأولى ولا قوميتهن السابقة فاستغلن وضعهن فى القصر  
السلطاني واهتمن بخدمة أوطانهن الأصلية على حساب الدولة العثمانية<sup>(١)</sup> . وقد أوتين من  
الدساتين ألوانا أودت بعز الدولة ، وسودت صفحات عواهلها مما كان له أكبر الأثر فى  
تفسيخ الأسرة العثمانية المالكة وإضعاف شأنها<sup>(٢)</sup> . وأبرز الأمثلة على ذلك أن السلطان  
سليمان القانوني ضم إلى حريمه نحو ثلاثمائة جارية كلهن مشتريات من الأسواق أو  
أسيرات فى الحرب ، ومعظمهن من أصل مسيحي<sup>(٣)</sup> ، يضاف إلى ذلك أنه كانت له محظية  
شركسية تعرف باسم "وردة الربيع" أتجيت له طفلا أسماه مصطفى ، وعهد إليه بعدة  
مناصب ، ودرية ليكون وريثا للعرش<sup>(٤)</sup> ، ثم فجأة شغف بروكسلاته الروسية التى انتزعته  
من محظيته الشركسية فاتخذها زوجة له ، وقتل ابنه وولى عهده مصطفى إرضاء لها بعد  
أن حكت له مؤامرة - شاركها فيها رسم باشا الصدر الأعظم<sup>(٥)</sup> - أوغرت فيها صدر أبيه  
عليه ، وعين ابنه سليم من روكسلاته وليا للعهد بدلا من أخيه الأكبر<sup>(٦)</sup> .  
يضاف إلى ذلك أن هذه المرأة استطاعت حجب زوجها السلطان عن قيادة الحملات الحربية  
بعد أن كان وجوده فى ساحة القتال يثير حماس الجنود ويلهب مشاعرهم<sup>(٧)</sup> . وسار من  
جاء بعده من السلاطين على متواله مما أدى إلى فتور حماس الجنود ، كما بدأ الفساد يسد  
فى صفوف الإنكشارية الذين كانوا قد اعتادوا على أن لا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود  
حملتهم . يضاف إلى ذلك أن السلاطين أصبحوا فى معزل عن سرفه أحوال قواتهم ، ومدى  
ما وصلت إليه من قوة خصوصا وأن الحاشية السلطانية كانت تحجب عن السلاطين الأمور  
التي لا تريد أن تصل إلى مسامعها<sup>(٨)</sup> .

١- الشناوى : المرجع السابق جـ ١ ص ٤٠ .

٢- بيهم : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٣ .

٣- ول ديورانت : المرجع السابق جـ ٤ المجلد السادس ص ١١٧ .

٤- نفسه ص ١٢٦ .

٥- ألفت روكسلاته فى روع زوجها سليمان أن ابنه مصطفى يحاول أن يكسب شعبية تطلعا منه إلى انتزاع العرش ، كما  
أهم رسم باشا مصطفى بأنه يتوعد سرا إلى الإنكشارية ليقفوا بجانبه ضد أبيه مما جعل الملك يساور السلطان فأمر بقتل  
ابنه . انظر ول ديورانت : المرجع السابق ص ١٢٧ .

٦- الشناوى : المرجع السابق جـ ١ ص ١١٧ .

٧- نفسه : ص ١١٤ .

٨- بيهم : المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٢ .

#### ٤ - الاعتماد على الانتكشارية :

اعتمدت الدولة العثمانية في عملية التجنيد على جمع أبناء العشائر الأرثوذكسية خصوصا من البلقان فكانت ترسل وكلاءها إلى هذه المناطق حيث يطلبون من قسيس القرية كشفا بأسماء الأطفال الذكور الذي قام بتعبيدهم ثم يقومون بجمعهم ، ويحركون بهم إلى الأستانة حتى تنقطع صلاتهم بذويهم نهائيا<sup>(١)</sup> . وقد عرفت هذه العملية باسم "الدقشirme"<sup>(٢)</sup> . Devshirme أو ديوشيرمه وهي كلمة تركية تعني ضريبة الغلمان . وقد أعدت الدولة هؤلاء الغلمان ليكونوا فرق مشاة في الجيش العثماني وأطلق عليهم الانتكشارية<sup>(٣)</sup> . وقد قامت هذه القوات بدور رئيسي في الفتوحات العثمانية وصار لا يعول إلا عليها في الحرب ، ولما أخذت الدولة العثمانية تمر في مراحل الضعف ترك الحبل على الغارب لزعماء الانتكشارية حتى تضخم نفوذهم وتزايد لدرجة أنهم خرجوا عن حدودهم وتعدوا واستبدوا وأصبحوا عبئا ثقيلا على السلاطين أنفسهم خصوصا بعد أن صار بمقدورهم تنصيب السلاطين أو خلعهم<sup>(٤)</sup> . يضاف إلى ذلك قيامهم في العديد من المرات بالتمرد ، وسلب أموال الأهالي ، وإشغال النيران في ممتلكاتهم وإقتحام المنازل والاعتداء على من فيها ، واعتراض مواكب السلاطين<sup>(٥)</sup> والتدخل في سياسة الدولة العليا ، هذا إلى جانب انتهاكهم للشريعة وتمزيق القرآن أثناء ثورتهم ، وإهمال الصلاة ، وشرب الخمر<sup>(٦)</sup> ، واستمرت الأحوال على ذلك حتى تمكن السلطان محمود الثاني من القضاء عليهم بقتل أغلبهم في ٩ ذي القعدة من عام ١٢٤١ الموافق ١٦ من يونيو ١٨٢٦<sup>(٧)</sup> دون أن يجد البديل الذي يستطيع حماية أراضي الدولة العثمانية والدفاع عنها ضد أعدائها .

١- تفاصيل ذلك انظر :

H. Gibb and H. Bowen : Islamic Society and the west, vol 1 pp. 56-60 .

2- عمر عبد العزيز: تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢ ، بيروت ، دار النهضة العربية ص ٤٢ .

3- محتاجا الجنود الجدد ، وقصة هذه الكلمة أنه لما صار لدى السلطان أورخان عدد ليس بقليل من هؤلاء الجدد ، سار بهم إلى شيخ طريقة البكتاشية ليدعو لهم بخير ، فدعا لهم هذا الشيخ بالنصر على الأعداء وقال فيكون اسمهم (بنى تشاري) أي الجيش الجديد ثم حرف هذا الاسم في العربية فصار انتكشاري . انظر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص ٤٢ . انظر أيضا توبتير : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٨ .

٤- سيد مصطفى : المصدر السابق ص ١٠ .

٥- تفاصيل ذلك انظر التناوي : المرجع السابق ج ١ ص ٤٩٤-٤٩٩ .

٦- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٦٨ .

٧- محمد فريد : المرجع السابق ص ٤٢ .

- ٥ - عدم مسابقة الدولة العثمانية للتطور في أنظمة الحكم وأحداث عصر النهضة:
- لم تعمل الدولة العثمانية على تطوير أنظمتها في الحكم والإدارة فظلت أنظمتها جامدة في حين أخذت أوروبا في تطوير أجهزتها الحكومية منذ عصر النهضة مما أوجد فجوة حضارية بينهما .
- ونتيجة لذلك أخذت الشعوب المسيحية التابعة للعثمانيين تتطلع إلى الانفصال ، وبدأت الدول الأوروبية تتدخل من أجل اقتسام أملاك الدولة العثمانية<sup>(١)</sup> فذعت إلى عقد مؤتمرات دولية ليبحث ما أطلق عليه المسألة الشرقية .
- يضاف إلى ذلك أن العثمانيين لم يسايروا تطورات عصر النهضة في أوروبا مما جعل الفجوة الحضارية شديدة الاتساع بين الشرق والغرب ، وأظهر عجز العثمانيين عن متابعة هذه التطورات .
- ٦ - الاعتماد على غير المسلمين في تسيير أمور الدولة العامة :
- لقد وجد اليهود والنصارى عند السلاطين العثمانيين صدرا رحبا إذ اعتمدوا عليهم في جميع أجهزة الدولة خصوصا المناصب الكبرى منها فشكل هؤلاء غالبية الهيئة الإدارية في الحكومة العثمانية<sup>(٢)</sup> ، كما أسند إليهم قيادة الجيوش ، ووصل بعضهم إلى منصب الوزارة والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أن السلطان بايزيد الأول ١٣٨٨-١٤٠٣م قد ولي الأمير سيسمان ابن ملك البلغار على ولاية صمصون ، يضاف إلى ذلك أن الباب العالي اعتمد في اختيار وزرائه على الأوربيين حديثي العهد بالإسلام لا سيما الألبان<sup>(٣)</sup> . وإلى جانب ذلك فإن العثمانيين سمحوا لليهود الدونمة بتولي الوظائف الهامة في الدولة ، مما كان له أكبر الأثر في ضرب الإسلام وتهديم كيانه من الداخل خصوصا بعد أن لبس هؤلاء لباس الإسلام وعاشوا بين المسلمين يظهرون لهم المودة في حين كانوا في الباطن يدبرون لهم المؤامرات ، ويكونون التنظيمات المعادية للإسلام بهدف اقتلاع الحكم الإسلامي من جذوره وقد ساعدهم على ذلك صلتهم الوثيقة بحكومة الاتحاد والترقي التي استولت على الحكم بعد خلع السلطان عبد الحميد
- ٧ - المآسى التي ارتكبتها العثمانيون ضد العرب :
- ارتكبت العثمانيون العديد من المآسى ضد الشعوب العربية بطريقة تبعد حكمهم إلى حد كبير عن روح الإسلام وسماحته ، فقد كانوا في كثير من الأحيان يشعرون بميزة

١- الشافعي : المرجع السابق ج٢ ص ١٨١-١٨١١ .

٢- ول ديورانت : المرجع السابق ج٢ المجلد السادس ص ١١٢ .

٣- بيهم : المرجع السابق ج٢ ص ٣٩ .

مستواهم المستمدة من سلطة عنصرهم على حين كان العرب يشعرون بأنهم أصحاب البلاد الأصليين والأدلة على ذلك متعددة وواضحة ذكرها بعض شهود العيان ومن هؤلاء المؤرخ ابن أبياس الذي قال عن جنود السلطان سليم بعد دخولها إلى بلاد الشام "إن عسكر ابن عثمان خرب غيطان الشام ، ونهب الفواكة من فوق الأشجار ، ورعت خيولهم في الغيطان ، وأكلوا أوراق الأشجار وطرّدوا الناس عن بيوتهم وسكنوا بها وأخربوا غالب بيوت الشام وحصل منهم لأهل الشام غاية الضرر"<sup>(١)</sup> . وقال بعد دخول القوات العثمانية مصر إن "ابن عثمان هتك حريم مصر وما خرج منها حتى غتم أموالها ، وقتل أبطالها ويتم أطفالها ، وأسر رجالها وبدد أحوالها وأظهر أهوالها"<sup>(٢)</sup> . يضاف إلى ذلك أن ابن عثمان كان يتحجب عن عسكره أيّاماً لا يظهر فيها وفي هذه المدة يقتل العسكر خلقاً في المدينة ، ويتجأهرون بالمعاصي والفسوق ، وأنهم لا يصومون شهر رمضان ، ويشربون فيه الخمر والبوزة . ويستعملون فيه الحشيش والشحيب ويفعلون الفاحشة في الصبيان المرد في شهر رمضان . وأن ابن عثمان لا يصلي الجمعة إلا قليلاً . وقد أشيعت عن ابن عثمان هذه الأخبار الشنيعة<sup>(٣)</sup> .

وذكر المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي مفاسد الجند العثماني بقوله "يأكلون ويشربون جهاراً في نهار رمضان ، ويشربون الحشيش والمسكرات ، ويذنون ويلوطسون ويشربون الجوزة ويلعبون القمار جهاراً في نهار رمضان ولياليه"<sup>(٤)</sup> . وأوضح محمد الإدريسي - أمير منطقة المخلاف السليماني - مفاسد الأتراك العثمانيين بقوله أنهم كانوا "يستباحون الحرم ، وينتسجون الأعراض ، ويتجأهرون بالمعاصي والخروج عن الحدود التي حددها الله ورسوله غير مبالين ولا متأدبين فلا الصلاة يسودون ولا الشهر يصومون ، ولا هم في حكمهم يعدلون"<sup>(٥)</sup> . كل ذلك جعل الأهالي ينفرون منهم . كما ذكر الإدريسي أن العثمانيين كانوا يتقاضون الرشوة . ويحتقرون العرب ولغتسهم هذا بالإضافة إلى إهمال جميع المصالح العامة وإهانة رجال الدين<sup>(٦)</sup> .

١- ابن أبياس : المصدر السابق ج٣ ص ١٤٤ .

٢- نفسه ج٣ ص ١٣٣ .

٣- نفسه ج٣ ص ٨٢-٨٣ .

٤- عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج٤ ، القاهرة ، المطبعة الشرقية ١٣٢٢ هـ ص ٢٢٠ .

٥- محمد الإدريسي : هذا بيان للأنس وموضحة للفتن . رسالة إلى صديق له في مصر بتاريخ ٦ ربيع الثاني ١٢٢٠ هـ .

٦- نفسه .

يضاف إلى ذلك أن الإدارة العثمانية لم تعمل على إيجاد أى ساعث حقيقي لمساعد رعاياها بل انقسم أبناء الدولة إلى حكام ورعايا ، كما انتشرت الرشوة في كافة الأوساط الحكومية لدرجة أنه كان هناك سمسرة للوزراء خصوصا في أيام عبد الحميد الثاني ينتشرون في الولايات ، ويعقدون الصفقات في شئون الدولة<sup>(١)</sup> مما كان له تأثيرات سلبية خصوصا على المجتمعات العربية أدت في نهاية الأمر إلى عدم شعور الأهالي بالولاء للدولة العثمانية<sup>(٢)</sup>.

ومن مساوئ أنظمة الدولة العثمانية لحكم البلاد العربية ما يلي : -

١ - أن الوالي الذي كان بمثابة نائب السلطان في البلد الذي يحكمه وكان تعيينه غالبا لمدة عام واحد مما جعل الولاة لا يهتمون بأمور ولاياتهم بل كان جل همهم هو جمع الأموال لأنفسهم والاعتصاف عن المشروعات العمرانية والإنتاجية التي تتطلب متابعة متواصلة لإتمامها<sup>(٣)</sup>.

٢ - انتشار الرشوة بين أفراد الديوان الذي كان بمثابة الهيئة الحكومية العليا نتيجة لتبني موظفي الإدارة العثمانية بعض الأفكار الخاطئة عن اختصاصهم فصار التقليد المتبع هو الحصول على الترقية بالرشوة والمحسوبية ، كما طرحت المناصب الإدارية والمدنية والامتيازات والرتب في المزد العلفي ، وساد الاستهتار بين موظفي الدولة والجند الذين فقدوا بالتدريج المثل الأخلاقية التي كانت قد بدت واضحة عليهم في المراحل الأولى من الحكم العثماني ، فالباشا الصالح في نظرهم هو الذي كان يرسل الف المعينة التي تتطلبها خزائن السلطان ، وكانت هذه هي أول خطوة نحو الرشوة فقد عمل الولاة على الاستفادة من وجودهم في مناصبهم ، وتعويض ما دفعوه من رشوى هذا بالإضافة إلى تكوينهم للثروات الضخمة<sup>(٤)</sup>.

٣ - تركيز السلطة في أيدي بعض الزعماء المحليين الذين حاولوا الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية مما أدى إلى سلسلة من الاضطرابات والانقسامات داخل الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية<sup>(٥)</sup>.

٤ - لجوء الدولة العثمانية إلى طريقة الالتزام حتى تتمكن من تأمين الأموال اللازمة لها خصوصا وأن الملتزمين كانوا يجمعون من الأهالي ما يفوق الأموال التي

١- بيهم : المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٤ .

٢- راجت الشيخ : المرجع السابق ص ٣٦-٣٧ .

٣- جلال يحيى : معالم العرب الحديث ، الإسكندرية ، دار المعارف ١٩٧٤م ص ٥١ .

٤- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ١٢٧ .

٥- نفسه : ص ١٢٦ .

كانت تطلبها الدولة . فكان الملتمزمون كثيراً ما يقترضون الأموال من مصارف استنبول بربا فاحش بغية تأمين المبالغ المقررة عليهم دفع الرشاوى للمسئولين حتى يقع عليهم الاختيار فإذا بلغوا مقر ولايتهم تفننوا في ابتزاز الأموال من الأهالي فكانوا يفرضون الضرائب الباهظة ، ويطلقون أيديهم في ممتلكات الأهالي ، ولا يتورعون عن المصادرات ، واتهام الأبرياء بالجنايات بغية ابتزاز الأموال مما أدى إلى تخريب القرى والإقطاعات من جراء المظالم التي ارتكبت والاعتداءات ووقوع الأهالي في شرك الفقر والمظالم<sup>(١)</sup> ، وباليات الأمر اقتصر على الأحياء ، فقد قرر رجال الدستور من العثمانيين استيفاء ضريبة على دفن الموتى<sup>(٢)</sup> .

٥ - عدم اهتمام العثمانيين بنواحي التعليم الصحة وال عمران في البلدان العربية خصوصاً وأن فكرة الحكم عند العثمانيين كانت بسيطة للغاية وهي إن للدولة وظائف محددة لا يجب أن تتعداها وهي الدفاع عن ولاياتها ، والحفاظ على الأمن وتحصيل الأموال أما فيما عدا ذلك مثل الاهتمام بالتعليم أو الرعاية الصحية أو النواحي العمرانية فقد كانت الدولة العثمانية تعدها خارج نطاق مسئوليتها وتركها للأفراد والجماعات . وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية التي حكمت العالم العربي حوالي أربعة قرون لم تترك فيه أي أثر من الآثار العمرانية الكبيرة يذكره التاريخ لها فلم تهتم بالمرافق ، ولم يهتم الولاء العثمانيون بحفر ترعة أو إقامة جسور جديدة . بل جفت بعض السمر القديمة لعدم تطهيرها ، وانهارت الجسور القائمة لعدم العناية بها ، وأغلقت بعض المدارس التي كانت قائمة قبيل الحكم العثماني ، يضاف إلى ذلك أن العثمانيين فرضوا على أنشطة العرب في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية جموداً بحيث لم يعد العرب يشاركون العالم بنشاطهم في هذه المجالات . وإلى جانب ذلك فقد تسبب العثمانيون في قتل النشاط الاقتصادي المزدهر في معظم البلدان العربية ، ويرجع ذلك إلى أن الدولة العثمانية لم تتدخل سريعاً وبصورة جديّة لضرب المعازل البرتغالية في الخليج العربي والهند إلا بعد نصف قرون من الزمان<sup>(٣)</sup> تقريباً هذا إلى جانب أن العثمانيين نقلوا إلى بلادهم أكثر ما في القلعة وأكثر ما في منازل السلاطين والأمراء الممالك من الذخائر والنفائس والكتب وقد وصف ذلك أحد شهود العيان بقوله: 'وأشيع أ ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل

١- بوهل : المرجع السابق ج٢ ص ٤٧-٤٨ .  
٢- كان مقدار هذه الضريبة خمسة ريالاً وللإفصيل انظر أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ، مطبوعات نسابي مكة  
الثقلى - الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ص ٥٦٠ .  
٣- الشناوي : المرجع السابق ج٣ ص ١٤٤٦-١٤٤٨ .



- محملة ما بين ذهب وفضة هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح والصينى والتحاس والمكفت والخيول والبغال والجمال وغير ذلك حتى نقل منها الرخام الفاخر<sup>(١)</sup> .
- يضاف إلى ذلك أنه نقل العمال المهرة من مصر إلى الأمشاة<sup>(٢)</sup> حتى أغلقت الكثير من الورش ، وفقدت مصر أكثر من خمسين صنعة<sup>(٣)</sup> .
- ٦ - تدهور الدراسات الدينية والفكرية وانحطاط هبة العلماء :

خلال الحكم العثماني للعالم العربي ضاق حيز الدراسات الدينية نسبيا ، ولذلك لا نجد في العصر العثماني حماس العلماء من أجل إضافة أشياء جديدة تضاف إلى رصيد ما جاء به فحول الفقهاء فيما يتعلق بالشرعية والخلافة والإمامة ونظم الحكم بسبل انحطت هبة العلماء ، وتدهورت سمعتهم ، وازداد نمو الفساد في سلوكهم لدرجة أن الوظائف العليا بينهم كانت تباع للأشخاص غير المؤهلين لتولى هذه المناصب<sup>(٤)</sup> . يضاف إلى ذلك أن إهمال العثمانيين للغة العربية ، وسيطرة اللغة التركية عليها خاصة في دواوين الحكومة والمعاملات الرسمية قد أدى إلى شيوع العجمة في التراكيب ، والسردي في الكثير من الأخطاء النحوية والنغوية<sup>(٥)</sup> ، وانتهى الأمر باستغلال الارماليات التنصيرية للفرصة ، وتشجيعهم لنصارى الشام على حمل لواء النهضة الفكرية في العالم العربي .

- وإلى جانب ذلك فقد أدى تدهور الدراسات الدينية إلى انتشار البدع والخرافات بين المسلمين حتى أصبح الناس لا يعرفون التفرقة بين الصحيح وغير الصحيح ففى دينهم ن ونتيجة لذلك راح العلماء العرب الغيورون على دينهم يحاولون إصلاح أمور بلادهم وأبرز مثال على هؤلاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذى تعد دعوته أنه إلى الحركات الإصلاحية فى الوطن العربى ، والتي بذلت الدولة العثمانية جل جهودها للقضاء عليها .
- ٧ - تدهور الحركة العلمية فى العصر العثماني :

سيطرت روح الجمود المطلق على الحركة العلمية فى البلدان العربية إبان الحكم العثماني فلا نكاد نجد فى العصر العثماني مؤلفات تتمتع بشيء من الأصالة العلمية وبالتالي لا نجد علماء يماثلون علماء العصر المملوكي مثلا فقد انكب العلماء فى العصر العثماني على تأليف الملخصات ووضع الحواشى على الحواشى وتخيل غرائب المسائل

١- ابن اياس : المصدر السابق ج-٣ ص ١٣٣ .

٢- نفسه ص ١٢٢ .

٣- الجدير بالذكر ان السلطان سليمان القانوني قد أمر بإعادة هؤلاء العمال إلى مصر .

٤- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢١١ ، ٢٦٧ .

٥- عبد المتعم الجموي : عبد الله اللديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية ، القاهرة ، دار لكتاب العلمى ١٩٨٠ ص ٣٩٦ .

• النحوية والفقهية ، وصاروا يدعون إلى الاستسلام للأمر الواقع .  
 • ولم يقف الحال على ذلك بل أغلقت معظم المدارس وتدنست الروح العلمية فيما تبقى منها تدنيا ظاهرا بسبب تعصب العثمانيين من جهة ، ونضوب الموارد المالية من جهة أخرى ، وعلى هذا فإنه يمكن القول: إن مرحلة الاحتطاط العلمي قد سيطرت على البلدان العربية ، منذ استيلاء العثمانيين عليها<sup>(١)</sup> ولكن هل هذا يعني أن تلقى اللوم كل اللوم على العثمانيين فحسب . فالواقع أن هناك بعض المناطق العربية مثل المغرب ونجد وعمان لم تقع تحت طائلة الحكم العثماني ، ومع ذلك فإنه لم ينتابها التقدم مثلها مثل البلدان العربية الأخرى التي دخلت تحت الحكم العثماني مما يوضح أن الأوضاع التي خيمت على البلدان الشرقية في ذلك الوقت ، وروح الركون إلى الكسل والخمول الذي انتاب رجالها كان لها الدور الأكبر في ذلك .

٨ - إهمال شئون أمن الحجاج والحرمين الشريفين :  
 في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني لم تهتم الدولة العثمانية بشئون حجيج بيت الله الحرام لدرجة أن الأعراب كانوا ينقضون على الحجاج سلبا ونهبيا وقتلا ، ويسومونهم سوء العذاب دون أي رادع يردعهم خصوصا وأن العثمانيين لم يرسلوا إلى أرض الحجاز من الجنود ما يحفظ الحج والحجاج ويجعلهم في مأمن على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم<sup>(٢)</sup> .  
 • وما زاد الطين بلة أنه عندما قامت ثورة الشريف حسين بن علي ضد الأتراك قسّى شعبان ١٣٣٤هـ/ يونيو ١٩١٦م ودارت رحى المعارك من أجل إخراج الأتراك من مكة أطلق الأتراك نيران مدافعهم من قلعة أجناد المقامة على الجبل صوب الكعبة حتى التهمت النيران أستار البيت العتيق ، وهرع الألوف من المسلمين لإطفاء لهيبها . وفتح باب البيت والصعود إلى سطحه للتمكن من إطفاء اللهب<sup>(٣)</sup> .  
 • وهكذا انتهك الأتراك حرمة أقدس البقاع في الأرض ، ومهما برر البعض الأعداء لهم فمن المعروف أن مكة المكرمة كلها حرم لا يجوز القتال فيه .

١ - أكرم الحلي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ٩٠٦-٩٧٢هـ / ١٥٠٠-١٥٦٠م ، دمشق - مكتبة النهضة  
 للتوزيع - الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ص ١٩٣-١٩٥ .  
 ٢ - إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية ، المجلد الثاني ص ٧٥-٧٨ .  
 ٣ - أحمد عبد الغفور عطار : الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم ، مكة المكرمة ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م ص ١١٦ .

- ٩ - الامتيازات الأجنبية التي منحتها الدولة العثمانية للأوروبيين في البلدان العربية :
- من المعروف انه نتيجة لدخول العثمانيين إلى البلاد العربية حرمت هذه البلاد من ممارسة سيادتها خارج نطاق حدودها وأصبحت الدولة العثمانية هي صاحبة الأمر والنهي في تسيير أمورها ، وقد أعطت هذه الدولة بعضا من الامتيازات لعدد من الدول الأوروبية سم استغلالها في فترة ضعف الدولة لصالح رعايا هذه الدول الذين أخذوا يفسرون هذه الامتيازات تفسيراً تعسفياً ، كما أخذت دولهم تتدخل في شئون البلدان الإسلامية مستغلة في ذلك هذه الامتيازات وانتزعت لنفسها العديد من الأطماع<sup>(١)</sup>.
  - ١٠ - مسؤولية الدولة العثمانية عن الاحتلال البريطاني لمصر :

كان لتخطيط السياسة العثمانية تجاه المسألة المصرية أكبر الأثر في تعقدها وضياح استقلالها ومن أمثلة ذلك التخطيط عدم موافقة السلطان عبد الحميد على الاشتراك في مؤتمر الأنشاس في عام ١٨٨٢ الذي تقرر فيه بحث المسألة المصرية مما أيد الدولة العثمانية عن المشاركة في تحديد مستقبل مصر ، وترك مصيرها معلقاً في أيدي الدول الأوروبية<sup>(٢)</sup>.

يضاف إلى ذلك أنها ترددت في اتخاذ موقف ثابت تجاه كل من العربيين والخدويو ، كما ترددت في إرسال قوات عسكرية إلى مصر بناء على طلب الخديو ، وتباطأت في اتخاذ موقف محدد من طلب الخديو المعونة من الإنجليز ثم زادت الطين بلة بإصدارها منشوراً بعصيان عرابي مما قلب ميزان الحماس الشعبي . وأضاع التأخير الذي لامي للثورة العرابية . وكان له أسوأ الأثر في النفوس وأدى إلى إيقاع الفرقة والانحلال في صفوف العرابيين . وانصراف الناس عن تأييدهم مما أتاح للإنجليز فرصة احتلال مصر<sup>(٣)</sup>.

- ١١ - مسؤولية الدولة العثمانية عن الاحتلال الفرنسي للجزائر :
- تباطأت الدولة العثمانية في ترضية فرنسا عندما طلبت منها التدخل لتأديب داي الجزائر الذي أظهر عداً واضحاً للفرنسيين بتحقيقه لقتل فرنسا ، ورفضه تقديم الترضية العلنية ، وكان يجب عليها الإسراع لحسم الموقف خصوصاً وأن نذر الحرب كانت واضحة بين فرنسا والجزائر . ومع ذلك فإنها قررت عدم التدخل في القضية في

١- الشنأوى : المرجع السابق ج٢ ص ٧٢٠ .

٢- الشنأوى : المرجع السابق ج٤ ص ٢٢٧٥ .

٣- لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع انظر بحثنا المعنون "موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية" والمنشور في العدد السادس والعشرون من المجلة التاريخية المصرية .

أول الأمر نظرا لأنها كانت متهمكة في إخماد ثورة المورة القائمة ضدها<sup>(١)</sup>. ونتيجة لذلك انفردت فرنسا بالجزائر، وقامت باحتلالها في عام ١٨٣٠م.

١٢ - عدم مسابرة العثمانيين للتطورات التي حدثت في أوروبا إبان عصر النهضة، وعزلهم للعالم العربي عن التطور العالمي الذي بدأ مع بداية العصور الحديثة وذلك عندما فرضوا ستارا حول العالم العربي بحجة حمايته من الغزو العسكري الأوربي. حقيقة لقد سمحت الدولة العثمانية بوجود تبادل تجاري بين العرب والأوربيين<sup>(٢)</sup> ولكنها أبقت العالم العربي على حالته التي كانت موجودة قبل فتحها له. وفي الوقت الذي تطورت أوروبا في مضمار النهضة تطورا كبيرا أسدلت الدولة العثمانية ستار الجمود حول البلدان العربية بهدف تعويق تقدمها ومنعها من الاقتراب من عصر النهضة الذي بدت آثاره واضحة في أوروبا مما أدى إلى تخلف العالم العربي عن ركب هذه النهضة. وإضعاف ثقته في نفسه

كل هذه الأوضاع جعلت العالم العربي يعيش في حالة من الجمود فسي ظل الحكم العثماني جعلته يدخل إلى القرن العشرين وهو لم يتخلص بعد من حياة العصور الوسطى. وانتهى الأمر بظهور جماعة الاتحاد والترقي، وسيطرتها على مقاليد أمور الدولة العثمانية، وتعصيبها للحركة الطورانية التي تستمد أساسها من التركيز على التمسك بالأتراك إلى أصول طورانية والدعوة إلى بعث الجنس التركي وتمجيده، وتخليصه من المؤثرات العربية والفارسية، ومحاولة تتركب العرب وغيرهم من العناصر التابعة للعثمانيين بجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية في المدارس والمحاكم والدواوين<sup>(٣)</sup>، مما أدى إلى نفور العرب، وشعورهم برغبة الأتراك في صيغهم بالصيغة التركية.

ولما ألغيت السلطنة وجاء أثناتورك اتخذ من الإجراءات التي باعدت بين الدولة والإسلام عموما، ومن هذه الإجراءات إلغاء الخلافة، وإلغاء منصب شيخ الإسلام وحذف عبارة "إن دين الدولة التركية هو الإسلام" والمناداة بتركيا دولة علمانية<sup>(٤)</sup>، وإلغاء القلتون الإسلامي وتبني قانون الأحوال الشخصية العلماني، وإلغاء التقويم الهجري، واستبدال العطلة الأسبوعية بيوم الأحد بدلا من الجمعة، وإلغاء الحروف العربية التي كانت تكتب بها اللغة التركية واستبدالها بحروف لاتينية، ومنع الصلاة والتعبد في جامع آيا صوفيا، وتحويله إلى متحف<sup>(٥)</sup>.

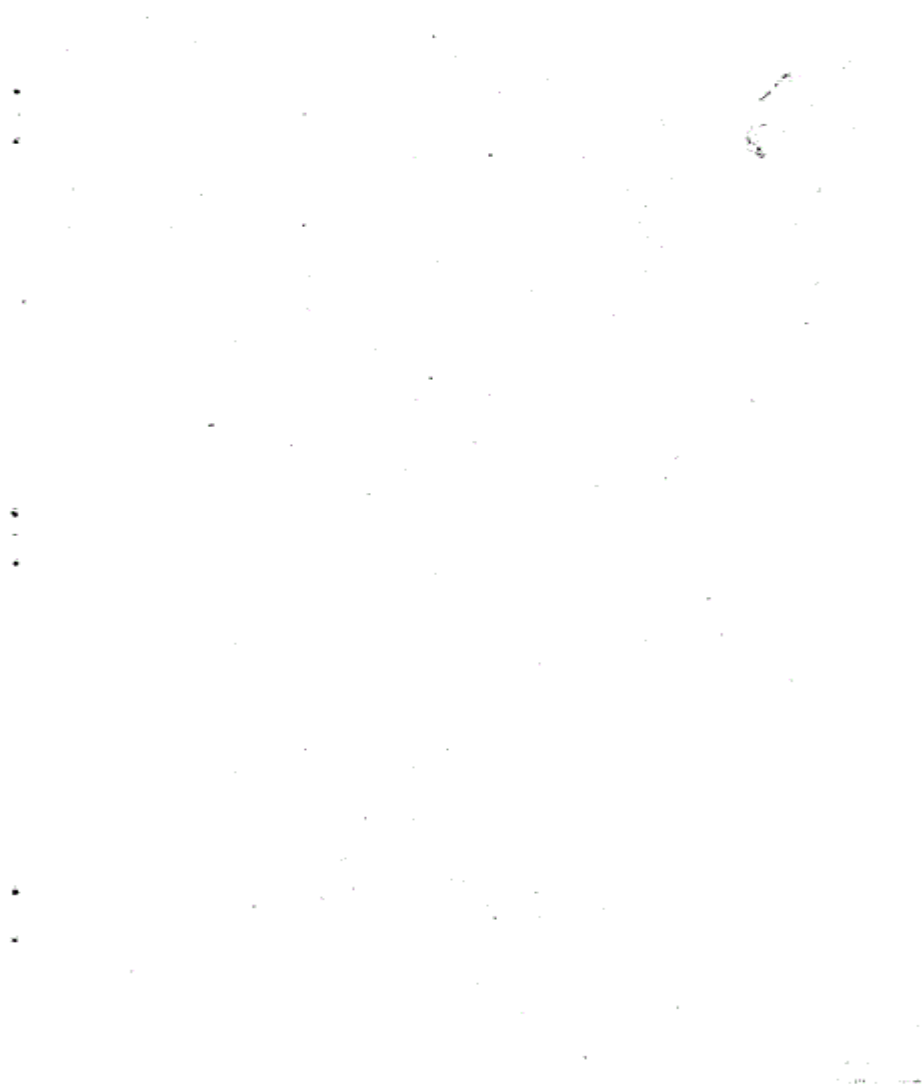
١- أرجمند كوران: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٢٧-١٨٤٧م - ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمي، تونس، الطبعة الثانية ص ٢٤-٢٥.

٢- سيد مصطفى سالم: الفتح الشامي الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، الطبعة الثالثة ١٩٧٨ ص ٤٤٢.

٣- الشدوي: المرجع السابق ج ٣ ص ١٢٢٨.

٤- نفسه ج ١ ص ٨٥.

٥- للتفاصيل انظر على حصون: تاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ص ٢٢٧-٣٠٠.



## الخاتمة

\*\*\*\*\*

وهكذا تعرضنا لمسلطنة آل عثمان التي استوفت قسطها من الحياة بما فيها من رفقى وهبوط ، وإساءة وإحسان فاستعرضنا خدماتها للإسلام والمسلمين خلال فترة قوتها وما وقعت فيه من أخطاء وتخييط أودى بالعالم الإسلامى إلى الكثير من المشاكل والأطماع الاستعمارية وذلك خلال فترة ضعفها .

ولكى تتضح الحقيقة ينبغى أن نذكر أن تخلف العالم العربى خلال فترة الحكم العثمانى لم يكن مسئولية العثمانيين وأحدهم ، وإنما كانت هناك عوامل أخرى متعددة يعود بعضها إلى أوضاع العالم الإسلامى نفسه ، يضاف إلى ذلك أن العثمانيين مدينون أكثر من غيرهم للإسلام باعتباره البوابة التى دخلوا منها التاريخ فهو أساس دولتهم وحضارتهم وإليه يرجع كل ما يفخر به العثمانيون .

\_\_\_\_\_

...

...

...

## الملاحق

ملحق رقم (١)

بيان بأسماء سلاطين آل عثمان وسنوات حكمهم

(الجلوس - الوفاة)	(الجلوس - الوفاة)	
بالميلادي	باليجري	
١٣٢٦-١٣٢٩	٧٢٦-٦٩٩	١- السلطان عثمان بن أرطغرل
١٣٦٠-١٣٢٦	٧٦١-٧٢٦	٢- السلطان أورخان بن عثمان
١٣٨٩-١٣٦٠	٧٩٢-٧٦١	٣- السلطان مراد بن أورخان
١٤٠٢-١٣٨٩	٨٠٥-٧٩٢	٤- السلطان بايزيد بن مراد
١٤٢١-١٤١٣	٨٢٤-٨١٦	٥- السلطان محمد جلبي بن بايزيد
١٤٥١-١٤٢١	٨٥٥-٨٢٤	٦- السلطان مراد بن محمد
١٤٨١-١٤٥١	٨٨٦-٨٥٥	٧- السلطان محمد الثاني (الفاتح) ابن مراد
١٥١٢-١٤٨١	٩١٨-٨٨٦	٨- السلطان بايزيد الثاني ابن مراد
١٥٢٠-١٥١٢	٩٢٦-٩١٨	٩- السلطان سليم بن بايزيد
١٥٦٦-١٥٢٠	٩٧٤-٩٢٦	١٠- السلطان سليمان القانوني ابن سليم
١٥٧٤-١٥٦٦	٩٨٢-٩٧٤	١١- السلطان سليم الثاني ابن سليمان
١٥٩٥-١٥٧٤	١٠٠٣-٩٨٢	١٢- السلطان مراد الثالث ابن سليم
١٦٠٣-١٥٩٥	١١٠٢-١٠٠٣	١٣- السلطان محمد الثالث ابن مراد
١٦١٦-١٦٠٣	١٠٢٦-١٠١٢	١٤- السلطان أحمد الأول ابن محمد
١٦١٨-١٦١٦	١٠٤٨-١٠٢٦	١٥- السلطان مصطفى الأول ابن محمد الثالث
١٦٢٢-١٦١٨	١٠٣١-١٠٢٧	١٦- السلطان عثمان الثاني ابن محمد الثالث
١٦٢٣-١٦٢٢	١٠٣٢-١٠٣١	١٧- السلطان مصطفى الأول ابن محمد الثالث
١٦٤٠-١٦٢٣	١٠٤٩-١٠٣٢	١٨- السلطان مراد الرابع ابن أحمد الأول
١٦٤٨-١٦٤٠	١٠٥٨-١٠٤٩	١٩- السلطان إبراهيم ابن أحمد الأول
١٦٨٧-١٦٤٨	١١٠٤-١٠٥٨	٢٠- السلطان محمد الرابع ابن إبراهيم خان
١٦٩١-١٦٨٧	١١٠٢-١٠٩٩	٢١- السلطان سليمان الثاني ابن إبراهيم خان
١٦٩٥-١٦٩١	١١٠٦-١١٠٢	٢٢- السلطان أحمد الثاني ابن إبراهيم خان



١٧٠٣-١٦٩٥	١١١٥-١١٠٦	٢٣- السلطان مصطفى الثاني ابن محمد الرابع
١٧٣٠-١٧٠٣	١١٤٩-١١١٥	٢٤- السلطان أحمد الثالث ابن محمد الرابع
١٧٥٤-١٧٣٠	١١٦٨-١١٤٣	٢٥- السلطان محمود الأول ابن مصطفى الثاني
١٧٥٧-١٧٥٤	١١٧١-١١٦٨	٢٦- السلطان عثمان الثالث ابن مصطفى الثاني
١٧٧٣-١٧٥٧	١١٨٧-١١٧١	٢٧- السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث
١٧٨٩-١٧٧٣	١٢٠٣-١١٨٧	٢٨- السلطان عبد الحميد ابن أحمد الثالث
١٨٠٧-١٧٨٩	١٢٢٥-١٢٠٣	٢٩- السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث
١٨٠٨-١٨٠٧	١٢٢٣-١٢٢٢	٣٠- السلطان مصطفى الرابع ابن عبد الحميد الأول
١٨٣٩-١٨٠٨	١٢٥٥-١٢٢٣	٣١- السلطان محمود الثاني ابن عبد الحميد الأول
١٨٦١-١٨٣٩	١٢٧٧-١٢٥٥	٣٢- السلطان عبد الحميد الأول ابن محمود غازي
١٨٧٦-١٨٦١	١٢٩٣-١٢٧٧	٣٣- السلطان عبد العزيز ابن محمود
١٨٧٦-١٨٧٦	١٢٩٣-١٢٩٣	٣٤- السلطان مراد خان ابن عبد المجيد
١٩٠٩-١٨٧٦	١٣٢٨-١٢٩٣	٣٥- السلطان عبد الحميد ابن عبد المجيد
١٩١٨-١٩٠٩	١٣٣٦-١٣٢٧	٣٦- السلطان محمد رشاد ابن عبد المجيد
١٩٢٣-١٩١٨	١٣٤٤-١٣٣٦	٣٧- السلطان محمد السادس (وحيد الدين)
		ابن عبد المجيد
١٩٢٤-١٩٢٣	١٣٤١-١٣٤٠	٣٨- السلطان عبد المجيد ابن عبد العزيز
		(خليقة فقط)

اعلان الجمهورية بقيادة مصطفى كمال (أتاتورك) ١٩٢٣ .

## فهرست

الموضوع	العنوان	الصفحة
تمهيد		٣
الموضوع الأول	السلطان محمد الفاتح وفتح القسطنطينية	٧
الموضوع الثاني	موقف الدولة العثمانية والقوى الإسلامية الأخرى من سقوط الأندلس	١٧
الموضوع الثالث	الأكثارية	٢٥
الموضوع الرابع	أثر معركة ديو البحرية على حركة التجارة العربية	٣١
الموضوع الخامس	العثمانيون والعالم العربي	٤١
الموضوع السادس	الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية	٥٩
الموضوع السابع	معركة تفارين البحرية	٧٠
الموضوع الثامن	محمد علي والخليج العربي	٨١
الموضوع التاسع	القوى الأوروبية وحكم محمد علي لبلاط الشام	٨٩
الموضوع العاشر	موقف الدولة العثمانية من توسعات محمد علي في بلاد الشام	٩٧
الموضوع الحادي عشر	السلطان عبد الحميد وفكرة الجامعة الإسلامية	١٠٧
الموضوع الثاني عشر	الحركات السياسية والفكرية في العالم العربي بين فكرة الجامعة الإسلامية وحركة التنريك	١١٥
الموضوع الثالث عشر	الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى وظهور أتاتورك	١٢٩
الموضوع الرابع عشر	الدولة العثمانية ما لها وما عليها	١٣٥
خاتمة		١٥٧
الملاحق		١٥٩

11

12

13